تربية المرأة والحجاب

تأليف
محمد طلعت حرب (باشا)

إعداد وتقديم ودراسة:
ممدوح الشيخ

obeikandl.com

الكتاب: تربية المرأة والحجاب (لمحمد باشا طلعت حرب)

إعداد وتقديم ودراسة: ممدوح الشيخ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ©

لا يجوز، دون الحصول على إذن خطي من المؤلف، نشر هذا الكتاب أو استنساخه أو نقله، كلياً أو جزئياً، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، وضمن ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها.

نشرت طبعته الورقية الأولى في مصر (2009) – دار ومكتبة الغد.

"على أن أول كتاب أُلِّف في الرد على قاسم أمين هو كتاب "تربية المرأة والحجاب" وهو أهم ما أُلِف وأعمقه أثراً، ألَّفه "محمد طلعت حرب" الذي اقترن اسمه فيما بعد – وللأسف – بشئون الاقتصاد الربوي!"

محمد أحمد إسماعيل المقدم

في كتابه: "عودة الحجاب"

obeikandl.com

هذا الكتاب

عندما قدَّم لي الصديق العزيز الأستاذ منير يس جزر مدير مكتبة الغد للطبع والنشر هذا الكتاب لإعادة إصداره كان مفاجأة سارة، كان يريد مني أكتب مقدمة للكتاب لكنني اكتشفت بعد القراءة أن الأمر سيكون مختلفاً، فالكتاب كان في حاجة لهوامش لغوية وتصحيحات استعنَّا فيها على نسخة مصورة للطبعة الأولى من الكتاب صادرة حديثاً عن مكتبة الآداب بمصر، وردت الإشارة إليها في هوامش الكتاب.

obeikandl.com

والكتاب كما يشير كاتبه رد على كتاب "تحرير المرأة" لقاسم أمين، وهو ما استلزم التأريخ للكاتبين (قاسم أمين ومحمد طلعت حرب)، وتأريخ للفكرة (تحرير المرأة).

وآمل أن يكون نشر هذا الكتاب مجدداً خدمة لديننا وثقافتنا.

والله الموفق

ممدوح الشيخ

قويسنا

في السادس والعشرين من ذي القعدة (1429).

الرابع والعشرين من نوفمبر (2008).

obeikandl.com

قاسم أمين وطلعت حرب و"تحرير المرأة"

دراسة: ممدوح الشيخ

تمهيد:

وضع رفاعة الطهطاوي أول أدبيات ما أصبح يسمى لاحقاً: "**تحرير المرأة**" في النصف الثاني من القرن العشرين حين كتب: "**المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين**". والكتاب مجلد ضخم، مرتب على مقدمة وخاتمة وسبعة أبواب تضم نحو خمسين فصلاً. وتناول في كتابه تربية الأطفال والناشئة من الذكور والإناث، وعلاقة ذلك بصفاتهم النفسية والبدنية. وحرص في الكتاب على أن يقرن البنات ممع البنين في الحديث عن أهمية التربية والتعليم.([1])

([1]) **قضايا المرأة في خطاب الإصلاح الحديث والمعاصر – إعداد: هند مصطفى علي – ورقة قدمت إلى مؤتمر: "اتجاهات التجديد والإصلاح في الفكر الإسلامي الحديث – مكتبة الإسكندرية – 19 – 21/ 1/ 2009 – ص 3.**

obeikandl.com

إلى جانب الطهطاوي، طرح علي مبارك مسألة المرأة أيضاً في مؤلفه: "**علم الدين**" الذي يعتبر أحد نماذج أدب الرحلات. وفيه نقاشات حول الحجاب أقرب إلى أن تمثل رأي علي مبارك والطهطاوي، وكلاهما ابتعث إلى فرنسا. وعند هذا المستوى من طرح قضية المرأة (حول منتصف القرن التاسع عشر) لم تثر عند المفكر إشكالية الصدام الحاد بين الذات والآخر، وضمنها الإشكاليات المتعلقة بوضع المرأة في الشرق والغرب، بل رصد كل منهما ما رآه في الغرب بإعجاب وتقدير، وضمن ذلك وضع المرأة في بلاده بغية تحقيق النهضة دون أن تثير لديهما أية حساسيات متعلقة بمسألة توضع المرأة في الإسلام مقابل وضعها في الغرب.([2])

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تمايزت على الساحة المصرية نخبة من المثقفين الشوام الذين نزحوا في فترات متقاربة إلى مصر، وبخاصة إلى مدينة الإسكندرية التي صارت مستقراً لكثير منهم. وقد جمعت هذه النخبة الشامية عدداً من السيدات اللائي أسهمن في طرح قضايا المرأة على الساحة الثقافية المصرية في وقت مبكر، حيث سبقن في ذلك قاسم أمين صاحب الدعوة الأشهر، وقد قمن بتأسيس عدة مجلات نسائية منها: "**مجلة الفتاة**" (هند نوفل، 1892)، و"**مجلة الفردوس**" (لويزا هابلين،

([2]) **قضايا المرأة في خطاب الإصلاح الحديث والمعاصر – إعداد: هند مصطفى علي – مصدر سبق ذكره – ص 3 – 4.**

1896)، و"**مجلة أنيس الجليس**" (ألكسندرا أفرينو، 1898)، و"**مجلة العائلة**" (استير أزهري، 1899).([3])

وعرف الفكر النسوي في هذه الفترة تعددية ملمويسة في الاتجاهات والرؤى لسبل النهوض ومسالكه.حيث ناقشت الصحافة النسائية قضايا حياتية مختلفة: التعليم، الزواج، الأزياء، العادات الاجتماعية، من مدخل اجتماعي عملي يعنى بتفاصيل الحياة اليومية ويبتعد عن الأيديولوجيا. ولم تخل تلك المرحلة من كتابات وأطروحات قوية فيما يخص تأكيد حقوق المرأة، من ذلك ما قدمته زينب العاملي([4])، صاحبة موسوعة: "**الدر المنثور في طبقات ربات الخدور**" الصادر عام 1892. وفي هذه الفترة أيضاً كتبت في تركيا فاطمة عاية هانم كتاباً بعنوان: "**نساء الإسلام**" صدر عام 1892.([5])

وحسب تعريف "**الموسوعة الحرة ويكبيديا**"، فإن: "**حركة تحرير المرأة حركة علمانية، نشأت في مصر، ومنها نُشرِت في أرجاء البلاد الإسلامية، وهدفها قطع**

([3]) **قضايا المرأة في خطاب الإصلاح الحديث والمعاصر – إعداد: هند مصطفى علي – مصدر سبق ذكره – ص 4.**

([4]) **تنتمي زينب العاملي إلى عشيرة "بني عامل" وهم من الشيعة الإثنى عشرية. ولدت في جنوب لبنان عام 1860، وفي 1879 هاجرت مع أسرتها إلى الإسكندرية. وضعت عدة مؤلفات منها: "مطالع البدور في محاسن ربات الحدور". (يمكن الرجوع إلى: عمر رضا كحالة – أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة العاشرة – 1991 – الجزء الثاني ص 82).**

([5]) **قضايا المرأة في خطاب الإصلاح الحديث والمعاصر – إعداد: هند مصطفى علي – مصدر سبق ذكره – ص 5 – 6.**

صلة المرأة بالآداب الإسلامية والأحكام الشرعية الخاصة بها كالحجاب، وتقييد الطلاق ومنع تعدد الزوجات والمساواة في الميراث وتقليد المرأة الغربية في كل شيء. .....، وتمتد أهداف هذه الحركة لتصل إلى جعل العلمانية واللادينية أساس حركة المرأة والمجتمع". والحركة أُسِّست لاستعادة ما يعتبره دعاتها "**الحقوق التاريخية المسلوبة من المرأة**" و"**القضاء على الأفكار الهدامة التي تنظم المجتمع على أساس ذكوري**". وقبل أن تتبلور الحركة بشكل دعوة منظمة لتحرير المرأة ضمن جمعية تسمى: "**الاتحاد النسائي**" كان هناك تأسيس نظري فكري لها ظهر من خلال كتب ثلاثة ومجلة صدرت في مصر:

– كتاب: "المرأة في الشرق" تأليف: مرقص فهمي المحامي، وهو نصراني الديانة، دعا فيه إلى القضاء على الحجاب وإباحة الاختلاط وتقييد الطلاق، ومنع الزواج بأكثر من واحدة، وإباحة الزواج بين النساء المسلمات والنصارى.

– كتاب: "تحرير المرأة"، تأليف قاسم أمين، نشره، بدعم من الشيخ محمد عبده وسعد زغلول، وأحمد لطفي السيد.

– كتاب: "المرأة الجديدة"، تأليف قاسم أمين أيضاً – نشره عام 1900.

– مجلة السفور: صدرت أثناء الحرب العالمية الأولى، من قبل أنصار سفور المرأة، وتركز على السفور والاختلاط.

وقد سبق سفور المرأة المصرية، اشتراك النساء بقيادة هدى شعراوي في ثورة سنة 1919 فقد دخلن غمار الثورة بأنفسهن، وبدأت حركتهن السياسية بالمظاهرة التي قمن بها في صباح يوم 20 مارس سنة 1919. وأول مرحلة للسفور كانت عندما دعا سعد زغلول النساء اللواتي تحضرن خطبته أن يزحن النقاب عن وجوههن. وهو الذي نزع الحجاب عن وجه نور الهدى محمد سلطان التي اشتهرت باسم: هدى شعراوي مؤسِّسة **الاتحاد النسائي المصري**، وذلك عند استقبال سعد باشا زغلول في الإسكندرية بعد عودته من المنفى. واتبعتها النساء فنزعن الحجاب بعد ذلك.

وقد تأسَّس الاتحاد النسائي في إبريل 1924 بعد عودة مؤسَّسته هدى شعراوي من مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي الذي عقد في روما عام 1922 ونادى بجميع المبادئ التي نادى بها من قبل مرقص فهمي المحامي وقاسم أمين. مهَّد هذا الاتحاد بعد عشرين عاماً لعقد **مؤتمر الاتحاد النسائي العربي** عام 1944، وقد حضرته مندوبات عن البلاد العربية. وقد رحبت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية بانعقاد المؤتمر، حتى أن حرم الرئيس الأمريكي روزفلت أبرقت مؤيدة له([6]).

ولعل من الموافقات الملفتة أن يكون صدور هذا الكتاب مرة أخرى في الذكرى المئوية لقاسم أمين، الذي لم يكن أول من دعا إلى ما يسمى: "**تحرير المرأة**"، وربما كان أول من خصص كتاباً، بل كتابين كاملين، لهذه القضية هما: "**تحرير المرأة**" و"**المرأة الجديدة**". وقد نشرا علي التوالي في العامين 1899 و1900. وكان إسراعه بكتابه

([6]) **موقع الموسوعة الحرة ويكيبيديا ar.wikipedia.org.**

الكتاب الثاني ونشره تعبيراً عن إصراره علي موقفه، ورفضه التراجع بعد أن اشتد الهجوم عليه بسبب كتابه الأول([7]).

ولذلك عرف قاسم أمين، لدي كثير من العرب وغيرهم الذين عنوا بالتاريخ العربي الحديث، باعتباره صاحب الريادة في الدعوة إلى ما يسمى: "**تحرير المرأة**"، رغم أن لهذه الدعوة رواداً سبقوه أبرزهم المصري رفاعة رافع الطهطاوي([8])، واللبنانيان فارس الشدياق([9])، وبطرس البستاني([10]). غير أن أياً منهم لم يخصص كتاباً لهذه القضية التي

([7]) **المرأة المصرية في مئوية قاسم أمين! – مقال – دكتور وحيد عبد المجيد – جريدة الأهرام – 2/ 9/ 2008 – بتصرف واختصار.**

([8]) **رفاعة رافع الطهطاوي (1801 – 1873): أزهري، مترجم، يوصف بأنه من مؤسسي النهضة المصرية الحديثة. رُشِّح للسفر كواعظ مع أول بعثة تعليمية أرسلها والي مصر محمد علي باشا إلى فرنسا عام 1826، وعاد عام 1830. أدار مدرسة الألسن ورأس تحرير جريدة "الوقائع المصرية". أشرف في عهد الخديوي سعيد على ترجمة القانون المدني الفرنسي. من مؤلفاته: "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" و"مباهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية" (موسوعة السياسة – المؤلف الرئيس/ رئيس التحرير: دكتور عبد الوهاب الكيالي – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – الجزء الثاني – صفحة 821).**

([9]) **أحمد فارس الشدياق: (1804 – 1887) أديب عربي ولد بعشقوب بلبنان ومات بالآستانة، تعلم بالمدارس المارونية بلبنان، ومصر. اشتغل في جريدة "الوقائع المصرية" ومدرساً للغة العربية بمالطا. تنقل بين باريس ولندن وتونس واستقر بالآستانة وأصدر صحيفة "الجوائب" وأسس مطبعته التي أصدرت عدة كتب من التراث العربي القديم. ومن أشهر مؤلفاته: "سر الليالي في القلب وما يزال"، و"الجاسوس على القاموس. (موسوعة السياسة – المؤلف الرئيس/ رئيس التحرير: دكتور عبد الوهاب الكيالي – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – الجزء الأول – صفحة 101). أما موقع**

obeikandl.com

عني بها ثلاثتهم ضمن سعيهم إلى ما تصوروا أنه المقومات الثقافية والاجتماعية اللازمة للنهضة، في لحظة تاريخية كان الأمل فيها مفعماً في اللحاق بقطار التقدم بعد قليل من انطلاقه في أوروبا. فقد تناول كل منهم مسألة "**تحرير المرأة**" في ثنايا بعض كتبه، وكتاباته وأحاديثه عموما، إيماناً بأن تحقيق النهضة التي كانت منشودة يستلزم دوراً للمرأة لا يمكن أن تؤديه إلا عبر تغيير نظرة المجتمع إليها، وإعادة النظر في موقعها في هذا المجتمع، وحصولها علي التعليم باعتباره ضرورة لتنشئة أجيال أكثر قدرة على حمل راية التقدم. وقد توافق ثلاثتهم، علي أن تعليم المرأة ليس حقاً لها وحدها، وإنما للمجتمع أيضاً من أجل توفير مقومات نهضته، وعلي رفض الربط بين أخلاق المرأة من ناحية وحجابها أو سفورها من ناحية أخرى. وكان الطهطاوي واضحاً في تأكيده أن أخلاق المرأة، كما الرجل، ترتبط بالتربية السليمة وليس بأي نوع من الرداء. كما اعتبر أن تعليم المرأة ينبغي ألا يكون

الموسوعة الحرة ويكيبيديا فيضيف تفاصيل مهمة فهو: "صحفي وكاتب لبناني. ولد في قرية عشقوت في قضاء كسروان مارونياً، ثم تحول إلى المذهب البروتستانتي ثم اعتنق الإسلام".

(http://ar.wikipedia.org)

([10]) بطرس البستاني (1819 – 1883): لغوي وصحافي لبناني. من دعاة النهضة العلمانيين. من آثاره: "محيط المحيط"، و"دائرة المعارف". (نقلا عن: معجم أعلام المورد – موسوعة تراجم لأشهر الأعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين مستقاة من "موسوعة المورد" – تأليف منير البعلبكي – إعداد: الدكتور رمزي البعلبكي – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الأولى 1992 – صفحة 105).

موضع جدل. ولذلك فعندما أصدر كتابه الأخير عن التربية والتعليم جعل عنوانه: "**المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين**".([11])

وفي الاتجاه نفسه تقريباً، مضي معاصره ذو الأصل اللبناني فارس الشدياق بلا زيادة ولا نقصان. ولكنه، إلى جانب تركيزه علي تعليم المرأة وتثقيفها، أيد إمكانية عملها دون أن يحدد المجالات التي يمكن أن تعمل فيها أو (العمل الذي تطيقه)، وفق التعبير الذي استخدمه عندما تحدث عن "**مباشرتها ما تطيقه من عمل حتى يتحقق للمجتمع توازنه**". فلم تكن المساواة بينها وبين الرجل في مجال العمل مطروحة في تلك المرحلة المبكرة، ولا حتى في المرحلة التالية التي كان قاسم أمين أهم رموزها. وربما كان بطرس البستاني أول من تبنَّى موقفاً قوياً في صف المرأة قبل قاسم أمين، ولم يكتف بالتعبير عن رأيه في ضرورة تحريرها، وإنما شنَّ هجوماً شديداً علي من يعتبرونها إنساناً من درجه ثانية، ويصرون علي إبقائها في حالة جهل وعبودية، وكشف زيف تستُّرِهم بالدين لتحقيق هذا الغرض لأنهم: "**ينزلون بها دون منزلتها المعينة من خالق الكون، ويختلسون منها حقها**" علي حد تعبيره. كما نبه إلى أن المرأة لم تُخلَق لتكون أداة للزينة تُحفَظ في البيت، داعيا إلى أن تكون عضوا يليق بجماعة متمدنة. وكان بطرس البستاني أول من ربط تقدم المجتمع بتحرير المرأة ارتباط الشارط والمشروط، خصوصاً من زاوية انتشار العلم الذي اعتبره رواد النهضة احد أهم مقومات التقدم، وجادل بأنه لا يمكن أن ينتشر العلم في أوساط

([11]) **المرأة المصرية في مئوية قاسم أمين! – مقال – دكتور وحيد عبد المجيد – جريدة الأهرام – 2/ 9/ 2008.**

openkanal.com

الرجال إذا حُجِب عن النساء. ورغم أن هؤلاء خلقوا أرضة للقضية فقد كان علي قاسم أمين أن يخوض معركة ضروساً، عندما تبنى هذه القضية في العامين الأخيرين في القرن التاسع عشر، وكأن أحداً لم يسبقه إليها. وربما يجوز تفسير ذلك بأن أفكار الشدياق والبستاني لم يكن لها تأثير يُذكَر في مصر، رغم أن أولهما أقام فيها لبعض الوقت. أما ميراث رفاعة الطهطاوي في هذا المجال فلم يكن قوياً، لأنه تناول قضية "**تحرير المرأة**" بشكل عابر، ولذلك فعندما خاض قاسم أمين معركته بعد 26 عاماً علي رحيل الطهطاوي، كان المناخ الثقافي الاجتماعي العام معادياً له ولدعوته([12]).

قاسم أمين وكتابه

وُلِد قاسم أمين لأبٍ تركي وأمٍ مصرية وقبل مجيئه لمصر كان الوالد الوالي التركي على إقليم كردستان. وعندما ثارت كردستان ضد الدولة العثمانية كان واليها محمد بك أمين في الآستانة فظل بها، حتى منحته الدولة عوضاً عن إمارته إقطاعات بإقليم البحيرة بمصر، فقرر الإقامة بمصر في بداية حكم الخديوي إسماعيل. ويرجَّح أن قاسم ولد في أول ديسمبر 1863 وهناك خلاف على محل ميلاده بين القاهرة والإسكندرية. تَلقَّى قاسم أمين تعليمه الأولى في الإسكندرية والتحق بعد ذلك بمدرسة الحقوق والإدارة ومنها حصل

([12]) **المرأة المصرية في مئوية قاسم أمين! – مقال – دكتور وحيد عبد المجيد – مصدر سبق ذكره.**

على الليسانس عام 1881. وكان قاسم أمين أحد الطلاب الذين اقتربوا من حلقة جمال الدين الأفغاني([13]).

عمل قاسم أمين بالمحاماة وكانت له صلات وثيقة مع المحامي الكبير مصطفى فهمي باشا، وفي العام نفسه سافر إلى فرنسا في بعثة دراسية انتهى منها عام 1885، وأثناء مقامه بباريس حدثت الحركة العرابية وبعد انتهائها والتدخل الإنجليزي المسلح واحتلال مصر ونفي قادة الحركة العرابية خارج مصر انتقل كل من جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده للإقامة بباريس وهناك أصدرا مجلة: "**العروة الوثقى**" لسان حال تنظيم "**العروة الوثقى**" السري الذي انتشرت فروعه من مصر للهند. وخلال هذه الفترة عادت الصلات مع محمد عبده، فكان قاسم أمين المترجم الخاص لمحمد عبده في باريس. وفي فرنسا قرأ قاسم أمين لمفكري أوروبا الكبار وأهمهم: نيتشة، وداروين، وماركس([14]).

في عام 1887 بدأ التنقل بين وظائف في النيابة وقضايا الحكومة وفي عام 1892 عُيِّن قاسم أمين نائب قاضٍ في محكمة الاستئناف. وخارج نطاق عمله القضائي كتب قاسم أمين في صحيفة "**المؤيد**" عدداً من المقالات دون توقيع وأصدر – بالفرنسية – كتابه: "**المصريون**" ردا على هجوم الدوق الفرنسي داركور على مصر والمصريين. ثم

([13]) قاسم أمين: الأعمال الكاملة – دكتور محمد عمارة – دار الشروق – مصر – الطبعة الثانية – ص 20 – 21.

([14]) قاسم أمين: الأعمال الكاملة – دكتور محمد عمارة – دار الشروق – مصر – الطبعة الثانية – ص 20 – 21.

أصدر كتابيه: "**تحرير المرأة**" و"**المرأة الجديدة**" عامي 1899 و1900 على التوالي([15]).

طلعت حرب:

هو – حسب ترجمته في "**معجم المؤلفين**" لعمر رضا كحالة – محمد طلعت بن حسن بن محمد حرب من رجال الاقتصاد المصري، مؤرخ، باحث بالشئون الاجتماعية. عين مترجماً بقسم قضايا الدائرة السنية، فرئيساً لهذا القسم، فمديراً لشركة كوم امبو، فعضواً بمجلس إدارة هذه الشركة، وعضواً بمجلس إدارة الشركة التعاونية المصرية. انتخب عضواً بالجمعية الجغرافية، وجمع مكتبة حافلة وهي الآن مكتبة مصر الجديدة. ومن آثاره:

تاريخ دول العرب والإسلام

علاج مصر الاقتصادي

تربية المرأة والحجاب

قناة السويس.([16])

([15]) **المصدر السابق – ص 24 – 25 – بتصرف واختصار.**

([16]) **معجم المؤلفين – عمر رضا كحالة – المجلد الثالث – ص 370 – مؤسسة الرسالة – لبنان – الطبعة الأولى – 1993.**

ولد حرب بقصر الشوق بحي الجمالية بالقاهرة في 25 نوفمبر 1867 من أبوين أصلهما من بلدة منيا القمح بالشرقية. وعائلته في الأساس ترجع إلى أصول بدوية، إذ أن "**قبيلة حرب**" أصل موطنها الحجاز. وقد هاجر قسم منها إلى العراق. ويؤيد ذلك محمد طلعت حرب نفسه، فقد قال للصحفيين خلال زيارته للعراق عام 1939 إن عائلته ترجع إلى أصول بدوية، وأن قبيلته كانت تعيش في منطقة البصرة.([17])

عاش حرب فترة من حياته في قصر جده لأمه أحمد بك صقر رئيس سكك حديد وتلغرافات الحكومة المصرية وميناء الإسكندرية آنذاك ..... وكانت سكك حديد مصر آنذاك من المشروعات الحديثة في مصر. التحق محمد طلعت حرب بالكتاب وحفظ القرآن، ثم أتم دراسته بالمدرسة الخديوية في القاهرة، بعدها التحق بمدرسة الحقوق الخديوية في أغسطس 1885، وكان لهذه المدرسة دور مؤثر في تشكيل شخصيته وتحديد اتجاهاته، فقد اتسمت شخصيته خلال تلك المرحلة بملامح لا تكاد تفارقه طوال حياته كان أولها الاجتهاد، فقد انكب على دراسته بشغف كبير وحصل على شهادة الدراسات الأولية في القانون بمرتبة الشرف عام 1886، كما حصل على مرتبة الشرف في امتحانات الترجمة في نوفمبر 1887. أما السمة الثانية فهي الثقافة، إذ أتاحت له مدرسة بالحقوق فرصة

([17]) صلاح عريبي عباس العبيدي – الدور الاقتصادي للبرجوازيين الوطنيين في المشرق العربي حتى ستينات القرن العشرين – دار غيداء للنشر والتوزيع – الأردن – 2009 – ص 64.

دراسة الفرنسية وإجادتها، وبذلك أصبح عضواً في نخبة وطنية مثقفة صغيرة آخذة في النمو.([18])

وفي ديسمبر 2015 أهدى شريف سامي، رئيس هيئة الرقابة المالية (حفيد طلعت حرب)، **مركز توثيق التراث الحضارى والطبيعي**، وثيقة من اثنين وعشرين ورقة بخط يد جده طلعت حرب، مكتوبة باللغة الفرنسية، تكشف اشتغاله بالمحاماة، وتعددُّ علاقاته مع الاقتصاديين والقانونيين ورجال الفكر والثقافة، والتي من خلالها تكونت شخصيته. كشف حفيد طلعت حرب أن جده، بعد تخرُّجه، اتجه للعمل التجاري، واكتسب خبرة في مجال البيع والشراء، وفي عام 1910 دخل مجال الشركات، وأسس مع عدد من التجار **شركة التعاون المالي**، وبعد عشر سنوات أسس بنك مصر، وعددًا من الشركات التي تخصصت بتقديم القروض للمشاريع الصناعية، وكان هدفه تخليص الاقتصاد المصري من أيدي الأجانب.([19])

وحسب "**الموسوعة السياسية**" أصدر طلعت حرب كتابه: "**علاج مصر الاقتصادي**" ودعا لإنشاء بنك للمصريين أو "**بنك الأمة**". وقد ألقى فكرته في آتون ثورة

([18]) صلاح عريبي عباس العبيدي – الدور الاقتصادي للبرجوازيين الوطنيين في المشرق العربي حتى ستينات القرن العشرين – مصدر سبق ذكره – ص 64 – 65.

([19]) وثيقة بخط يد "طلعت حرب" تكشف اشتغاله بالمحاماة – تقرير: محمود عبد الباقي – جريدة فيتو المصرية – 1/ 12/2015 – الرابط:

http://www.vetogate.com/1930075

1919، وأعلن ميلاد بنك مصر في 7 مايو 1920 برأسمال قدره 80 ألف جنيه.([20]) وقد كانت البنوك الأجنبية تسيطر على اقتصاد مصر بالكامل، حتى إن الحكومة المصرية أودعت أموالها في **البنك الأهلي** (كان أجنبياً) بفائدة 1.5 % مع علمها بأن البنك يرسل هذه الأموال للخارج. عندما بدأ طلعت حرب يدعو المصريين للاكتتاب لإنشاء أول بنكٍ مصريٍ، استدعاه المستشار المالى الإنجليزى وقال له: "**كنتُ أظنك رجلاً عاقلاً .. هل تتصور أن المصريين يستطيعون أن يديروا بنكاً؟ إنها صناعة الأجانب وحدهم.. أنصحك أن تُشرك معك بعض الأجانب لتعطى المصريين شعوراً بالثقة فى هذا البنك**"، فأجابه طلعت حرب بهدوء: "**لقد قررتُ أن يكون البنك مصرياً مائة فى المائة حتى نعفيكم من مشاركتنا فى الفشل**".. واستطاع أن يقنع مائة وستة وعشرين من المصريين الغيورين بالاكتتاب لإنشاء البنك الذى افتُتِح فى سنة 1920.. وفى تسعة عشر عاماً فقط تحققت المعجزة، ويكفى أن نقول إن **بنك مصر** أسّس واشترى خلال هذه السنوات القليلة نحو 40 شركة ومصنعاً فى جميع المجالات، بدءاً بالمطبعة، ثم السياحة، والمحالج والغزل والنسيج والصباغة، والطيران والنقل، والألبان والجلود والدباغة، والمناجم والمحاجر، والبترول، والمستحضرات الطبية، والتجميل ..... وغيرها، حَمَلَت كُلُها اسم مصر.([21])

([20]) **موسوعة السياسة – المؤلف الرئيس/ رئيس التحرير: دكتور عبد الوهاب الكيالي – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – المجلد الثامن – ص 785.**

([21]) **طلعت حرب.. العظيم الذى قتلته الخِسّة – مقال – م/ يحيى حسين عبد الهادي – جريدة الأهرام القاهرية – 29 نوفمبر 2014.**

لكن نهاية طلعت حرب كانت للأسف نسخةً طبق الأصل من نهايات كثيرين من عظمائنا الذين ماتوا مقهورين .. قهرتهم الخِسّةُ والنذالة .. كان طلعت حرب يقول: "**بعضنا ورث طبيعة العبيد نتيجة الاستعمار.. كلُ ناجحٍ نحاول أن نحطمه.. ولو أن معاولَنا كانت فى البناء لكان لنا فى كل قريةٍ هرمٌ أو مصنع**"، ولم يكن يدرى أن نهايته ستكون تصديقاً لمقولته، وأن معاول العبيد ستتكالب لتحطيمه. فمع نهاية ثلاثينات القرن الماضى كان جيل الزعامات التاريخية قد بدأ ينحسر لصالح جيلٍ جديدٍ من أفاعي السياسة ورجال الأعمال من حلفاء القصر والإنجليز.. وتكالبت الأفاعي لالتهام **بنك مصر**، وواتتهم الفرصة عندما صعد إلى رئاسة الوزراء على ماهر باشا (عدو طلعت حرب اللدود)، الذى اختار بدوره لمنصب وزير المالية حسين سرى باشا، حليف عبود باشا الخصم الآخر للرجل العظيم. وانتهز على ماهر فرصة نشوب الحرب وأقنع الملك فاروق بسحب أموال الخاصة الملكية من **بنك مصر** .. ثم عمل على نشر هذا الخبر فى الأندية والمجتمعات، فسادَ الذعرُ بين العملاء وتزاحموا على سحب ودائعهم من البنك .. وبدلاً من أن تقف الحكومة إلى جانب البنك، سارع **صندوق توفير البريد الحكومي** إلى سحب ودائعه من **بنك مصر** (3 ملايين جنيه) ولم يسحب مليماً من عشرة ملايين جنيه أودعها فى **البنك الأهلي**، المنافس الأجنبى التقليدى لـ **بنك مصر**. وتَحامَل الرجل العظيم على نفسه وذهب إلى وزير المالية حسين سرى باشا يرجوه أن يأمر **صندوق توفير البريد الحكومي** بعدم سحب ودائعه من. ووجدها حسين سرى باشا فرصةً للنيْل من الأسد الجريح فقال له: "**إن الحكومة ستتدخل لإنقاذ البنك بشرطٍ واحدٍ.. أن تترك البنك**"،

فقال له طلعت حرب دون تردد: "**من الآن، ما دام فى تركى للبنك حياةٌ له**". وكان طلعت حرب بعد أن غادر البنك يُغالب دموعه ويقول: "**لقد متُ ولم أُدفن**".([22])

ويصف المؤرخ الراحل الدكتور يونان لبيب وداع مصر لطلعت حرب قائلاً: "**في يوم 14 أغسطس عام 1941، وعلي الصفحة الخامسة، وتحت عنوان: "طلعت حرب باشا"، وبمساحه أقل من عمودين في نهاية الصفحة، طلعت الأهرام علي قرائها بخبر جاء فيه: "فقدت مصر أمس ابنا من أبرِّ أبنائها بها، ورجلاً فذاً كان في الطليعة بين الرجال العاملين، هو المغفور له محمد طلعت حرب باشا. كان من أولئك الذين يقفون مواهبهم وجهودهم علي خدمه أمتهم والنهوض بها**"([23]) .

وقد كان محمد طلعت حرب متعدد المواهب فهو كاتب له مساهمات في الصحافة، ومؤلفات أولها: "**كلمة حق عن الإسلام والدولة العثمانية**"(1875)،

([22]) **طلعت حرب.. العظيم الذى قتلته الخِسّة – مقال – م/ يحيى حسين عبد الهادي – مصدر سبق ذكره.**

([23]) **طلعت حرب.. غروب حزين – مقال – دكتور يونان لبيب رزق – جريدة الأهرام – 20/ 12/ 2007 – سلسلة: ديوان الحياة المعاصرة – الحلقة 701.**

وآخرها: "**علاج مصر الاقتصادي وإنشاء بنك مصر للمصريين**"(1911). كما خاض طلعت حرب معارك فكرية منها هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم([24]).

معركة "تحرير" المرأة

في تقديرنا فإن عبارتين يقدمان مفتاحاً لفهم فحوى السجال بين قاسم أمين وطلعت حرب، الأولى عبارة للكاتب محمد الشافعي في وصف المزاج الفكري والأخلاقي لمحمد طلعت حرب يقول فيها: "**كان طلعت حرب محافظاً في أفكاره ويقدِّس تقليد الآباء والأجداد**"([25])، أما العبارة الثانية فهي للدكتور محمد عمارة في الدراسة التي ألحقها بالأعمال الكاملة لقاسم أمين، يقول عمارة عن قاسم أمين: "**ولقد كان طبيعياً أن يؤمن قاسم أمين بالتطور والتقدم كقانون علمي، ليس فقط في نطاق الظواهر الطبيعية فقط كما اشتهر عن داروين (1809 – 1882) في ذلك العصر، بل في الظواهر الخاصة بالحياة الإنسانية، ذلك أن "التغير والتحول، بل الحركة المستمرة إلى جهة**

([24]) **طلعت حرب: قصيدة في حب الوطن – محمد الشافعي – كتاب يصدره صندوق التنمية الثقافية بمناسبة الاحتفال بمرور 140 سنة على ميلاد رائد الاقتصاد المصري نوفمبر 1867 – ص 2 – 16 – بتصرف واختصار كبير.**

([25]) **طلعت حرب: قصيدة في حب الوطن – محمد الشافعي – كتاب يصدره صندوق التنمية الثقافية بمناسبة الاحتفال بمرور 140 سنة على ميلاد رائد الاقتصاد المصري نوفمبر 1867 – مصر 2007 – ص 3.**

الترقي هي قانون الحياة الإنسانية التي خلقها الله ووهبها أعظم وسائل الارتقاء وبهذا القانون خرج الإنسان من المعيشة البهيمية".([26])

إنه سجال بين "**أيديولوجية داروينية**" مستترة وراء مقولات التقدم والنهضة يتبناها قاسم أمين، و"**ثقافة محافظة**" اختارت أن تختبيء وراء الدين لتخوض معركتها دفاعاً عن التقاليد يرد بها محمد طلعت حرب!

لكن النظر إلى الكتابين بوصفهما صفحة من صفحات السجال الإسلامي العلماني – رغم ما في هذا الوصف من تجاوز – يستدعي الخلفيات المعرفية لكلا النظرتين لقضية المرأة. والاهتمام بشان المرأة: تحريرها وتكريمها وحقوقها وأهمية حصولها علي مكانه وموقع في المجتمع وتقلد المواقع القيادية العليا فيه، هذا الاهتمام متعدد الأبعاد والأسباب، والبعض يرجعه لمفكرين رواد مثل قاسم أمين والبعض يرجعه إلى الحضارة الغربية، ويجب علينا أن نتوقف للمقارنة بين النموذج الغربي في الدعوة إلى حقوق وحريات المرأة وبين النموذج الإسلامي:

فما الهدف من وراء كل نموذج؟
وما فلسفه تحرير المرأة في كل منهما؟
وما أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما؟([27])

([26]) قاسم أمين: الأعمال الكاملة – دكتور محمد عمارة – دار الشروق – مصر – الطبعة الثانية – ص 38.

opelkanal.com

ويجيب الشيخ الدكتور نبيل السمالوطي عن هذه التساؤلات قائلاً إن هذا يتطلب منا إبداء مجموعة ملاحظات أوجزها فيما يلي:

أولاً:

تاريخ الميلاد الحقيقي لحقوق الإنسان وحرياته وكرامته، رجلاً كان أم امرأة، هو وحي السماء، وآخره الإسلام الذي منع وحرم الاتجار بالمرأة وحرم توريثها كسلعة، وحرم وأدها وأكد إنسانيتها وأنها خلق من خلق الله لها نفس حقوق آدم وحرياته وكرامته. وأكد القرآن والسنة حق المرأة في الحياة والتعليم والعمل وتقلُّد أعلي المناصب القيادية في المجتمع، وحقها في المشاركة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ومنح المرأة ذمة اقتصاديه مستقلة تماماً عن الرجل.

ثانياً:

أقول هذا لأن إلحاق فكرة "**تحرير المرأة**" بالحضارة الغربية، هو إعطاء تاريخ مزيف لتحرير المرأة. ففي الغرب عقد في روما القديمة مؤتمر للمرأة دارت أبحاثه حول سؤال غريب: هل المرأة إنسان؟ وكانت النتيجة أن خرج بأنها ليست إنساناً. وفي اسكتلندا أصدر البرلمان عام 1567 قرارا بعدم منح المرأة أية سلطة علي أي شيء من الأشياء، وفي عصر هنري الثامن ملك انجلترا أصدر البرلمان الإنجليزي قرارا يحظر علي المرأة أن تقرأ

([27]) **تحرير المرأة بين النموذجين الإسلامي والغربي – مقال – دكتور نبيل السمالوطي (عميد كلية الدراسات الإنسانية سابقا، أستاذ علم الاجتماع جامعة الأزهر) – جريدة الأهرام – سلسلة حوارات معاصرة – 31/ 3/ 2008 – باختصار وتصرُّف يسير.**

obeikandi.com

الإنجيل لأنها رجس من عمل الشيطان. ومن أحدث القوانين في فرنسا قانون صدر حديثاً سنة 1941، يعتبر أن الزوجة ناقصة الأهلية لا يحق لها التصرف في خاصة ملكها إلا بإذن زوجها([28]).

هذا وغيره مما يجعلنا – وبحق – نرفض أن يزايد علينا الغرب بأنه هو الذي أطلق صيحة تحرير المرأة وطالب بحقوقها وحرياتها وكرامتها، فهذا هو الغرب لا يزال يمتهن المرأة حتى الآن، ما يجعلنا نقول إن دعوى تحرير المرأة في الغرب هي حق أريد به باطل، فأعلى نسبة اغتصاب النساء خاصة المحارم في الغرب، وأعلى نسبه لضرب المرأة في الغرب، وهكذا.

ثالثاً:

الفكر الإسلامي فكر منفتح يتفاعل مع كل ما من شأنه إعلاء كرامة الإنسان وحرياته، ولهذا نحن نرحب بكل قرارات الأمم المتحدة والمنتديات الدولية والمؤتمرات العالمية، وكل دعوه لتحرير وحقوق المرأة لأنها أصل ثابت من أصول الدين الإسلامي، لكن بشرط عدم التصادم مع معايير شرعية أو مع قيم الأديان السماوية الصحيحة أو مع المنطق العقلي السليم والفطرة الإنسانية السوية كما خلقها الله تعالى([29]).

([28]) **تحرير المرأة بين النموذجين الإسلامي والغربي – مقال – دكتور نبيل السمالوطي مصدر سبق ذكره.**

([29]) **المصدر السابق.**

openkanon.com

رابعاً:

هناك محاولات مستميتة لتسويق النموذج الغربي لحقوق الإنسان داخل العالم الإسلامي. ولاشك أن هذا النموذج له إيجابياته الكثيرة، لكن أيضاً له سلبياته التي يجب التنبيه إليها وتوضيح الفرق بينه ومن النموذج الإسلامي في التحرير نوجزها فيما يلي:

١ – فلسفة تحرير المرأة في النموذج الغربي تنطلق من النموذج الليبرالي الذي يعلي قيمة المادة والاقتصاد، فرجال الصناعة والاقتصاد أرادوا للمرأة أن تخرج لأداء وظيفتين أساسيتين في حياة المجتمع:

الأولى: الإسهام في الإنتاج الاقتصادي بأقل الأجور مقارنه بالرجل، وساعات عمل أطول.

والثانية: استخدامها في كل عمليات التسويق والإعلان لفتح شهيه المستهلك واستنزافه من خلال إبراز مفاتن الأنثى وتعريتها دون نظر إلى قيم دينية أو عقيدة أو أخلاق.

ففلسفه الربح والإنتاج وتشجيع الاستهلاك، وهي قيم ليبرالية، كانت وراء استثمار جهد المرأة وجسدها وجمالها ومفاتنها في تحقيق أهداف الليبرالية أو الرأسمالية المتوحشة. وكان أصحاب المصانع في أوروبا يستغنون عن عماله الرجال ويطالبونهم بإرسال أزواجهم وبناتهم للعمل في المصانع لأنهن أقل أجوراً، وأكثر صبراً، وأقل تمرداً من الرجال،

ولم يكن هدف تحرير المرأة احترامها كانسان شقيقه للرجل، ولم يكن لها حقوق الرجل في أوروبا حتى عهد قريب جداً.([30])

وحسب الدكتور نبيل السمالوطي، فإن ول ديوانت يؤكد في الفصل التاسع من كتابه: "**مباهج الفلسفة**" أن أول خطوه نحو تحرير المرأة في انجلترا لم تحدث إلا سنة 1882 حيث صدر قانون حصلت النساء بموجبه علي ميزة لم تكن لهن من قبل هي حقهن في الاحتفاظ لأنفسهن بالمال الذي يكسبنه من العمل والإنتاج. ويقول الدكتور إبراهيم أبو محمد في دراسة له بعنوان: "**المرأة بين حضارتين**" إن هذا القانون المسيحي الأخلاقي وضعه أصحاب الأعمال في **مجلس العموم البريطاني**، لأسباب اقتصادية وليست قيمية دينية، وأهمها جذب النساء للخروج للعمل إعلاء لحجم الإنتاج والربح، وهذه هي الفلسفة الحقيقية لإطلاق الدعوة لتحرير المرأة وإنهاء عذابها واستعبادها داخل المنازل. كذلك شجع الشباب هذه الدعوة لسبب آخر هو الحصول علي المرأة بأرخص الأسعار وحتى دون زواج واللهو بها دون تكلفة مادية، ومن هنا عزف العديد من الشباب الذكور عن الزواج أو فضلوا تأخيره إلى ما فوق الأربعين، لقدرتهم علي إشباع حاجتهم مجاناً وبلا زواج.

([30]) تحرير المرأة بين النموذجين الإسلامي والغربي – مقال – دكتور نبيل السمالوطي – مصدر سبق ذكره.

خامساً:

يجب ألا يفهم من إعلاننا للنموذج الإسلامي في تحرير وتكريم واحترام وتمكين المرأة، أن هذا النموذج مطبق في مجتمعاتنا الإسلامية، فالعكس هو الصحيح لأن المرأة في هذه المجتمعات تعاني العنف والتخلف والقهر والتبعية في الكثير من جوانب حياتها، وهذا لا علاقة له بالدين، لكن هذا التخلف يرجع في الأساس إلى غلبه الموروثات الثقافية كالعادات والتقاليد والأفكار البالية وغياب الدعم المجتمعي. فرغم أن النموذج الإسلامي يحقق أسمي درجات التكامل والتكافل للأسرة وأسمى درجات الرقي والتكريم للمرأة، وتحريم كل أشكال التحيز ضد المرأة، وإذا كان هناك من تحيز فهو التحيز الايجابي للمرأة، فالرسول عليه الصلاة والسلام ظل يوصي بالمرأة حتى نهاية حياته. ورغم هذا نجد أن مجتمعاتنا الإسلامية في حاجه إلى دعم مجتمعي، ومسانده ثقافية وتغيير للعديد من سلوكياتنا وأفكارنا وموروثاتنا من العادات والأعراف البالية، والتي هي في جوهرها مصادمة لقيم السماء ولما جاء به إسلامنا الحنيف.

سادساً:

يجب التمييز بين العدالة والمساواة المطلقة، فالمساواة المطلقة بين المرأة والرجل ظلم للمرأة، وليست المساواة المطلقة عدالة حقيقية، فهناك اختلافات بيولوجية وفسيولوجية وسيكولوجية بين المرأة والرجل ويجب علي المجتمع وعلي أي تشريع يخص المرأة أن يراعي قدراتها وخصائصها ويؤكد إنسانيتها دون تجاهل لأنوثتها وهو ما يؤكده قوله تعالى:

"**وليس الذكر كالأنثى**"([31]). وهذا هو البعد المفقود في التناول الغربي لقضايا المرأة. فالمرأة في الغرب تعامل كجسد يوظف للإغراء وأداة للتسويق والإعلان، وهذا يعني قصرها علي جغرافية جسدها بعيداً عن البعد الإيماني وبعدها الإنساني والأعباء الصحية والأخلاقية. ويختم الدكتور نبيل السمالوطي رؤيته قائلاً: "**إن تحرير المرأة في الإسلام قضية عبادة وعقيدة، ونحن نتقرب إلى الله بالإحسان للمرأه وتحريرها ومنحها كل الحقوق، لكن القضية في الغرب قضيه اقتصاد واجتماع ودنيا**"([32]).

وإذا كنا نؤيد الشيخ الدكتور نبيل السمالوطي فيما ذهب إليه من خطوط عريضة للنظر لقضية المرأة، فإن هذا التجريد والتعميم لا يمنع من وضع القضية في سياقاتها المختلفة: الزمانية والمكانية، والثقافية، إلخ .. .وحسب اجتهاد الباحث محمد إسماعيل المقدم في كتابه: "**عودة الحجاب**"([33]) فإن البذرة الأولى لحركة "**تحرير المرأة**" تعود جذورها إلى عهد محمد علي باشا والي مصر، حينما بعث المبعوثين إلى فرنسا ليتلقوا هناك الخبرات والمهارات الفنية ثم يحملوها معهم إلى مصر، لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل

([31]) **سورة آل عمران: 36.**

([32]) **تحرير المرأة بين النموذجين الإسلامي والغربي – مقال – دكتور نبيل السمالوطي – مصدر سبق ذكره.**

([33]) **وجدنا صعوبة شديدة في العثور على الكتاب "ورقياً" ويشاع بشكل كبير أنه محظور في مصر لكنه متاح على الانترنت واعتمدنا نسخة موقع مكتبة صيد الفوائد:**

http://saaid.net.

رجع المبعوثون من فرنسا حاملين تيارات فكرية مادية دخيلة على دينهم بعد أن بهرتهم رهبانية العلم المادي وتعبدهم سلطان العقل، وقد عاد أولئك المبعوثون يحتلون مراكز الصدارة والتوجيه في مختلف الميادين السياسية والتربوية والفكرية([34]).

وكان من أعضاء الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي الذي أقام في باريس خمس سنوات (1826 – 1831) تقريباً وكان قد رافق البعثة المصرية كواعظ وإمام لها، وما إن عاد إلى مصر حتى بدأ يبذر البذور الأولى لكثير من الدعوات الدخيلة على البيئة المصرية المسلمة تلك الدعوات التي حمل جراثيمها معه من فرنسا مثل الدعوة إلى فكرة: "**الوطنية القومية**" بمفهومها المادي المحدود، المنابذ للرابطة الإسلامية بين المسلمين مهما تباعدت أوطانهم، وكذا استوحى من واقع الحياة الفرنسية أفكاراً عن المرأة هي أبعد ما تكون عن شرائع الإسلام وآدابه وقد تجلى ذلك في مواقفه الجريئة من قضايا تعليم الفتاة وتعدد الزوجات وتحديد الطلاق واختلاط الجنسين، حيث ادَّعى في كتابه: "**تخليص الإبريز في تلخيص باريز**" أن: "**السفور والاختلاط بين الجنسين ليس داعياً إلى الفساد**". أ. هـ. وذلك ليُسوِّغ دعوته إلى الاقتداء بالفرنسيين حتى في إنشاء المسارح والمراقص مدعياً أن: "**الرقص على الطريقة الأوربية ليس من الفسق في شيء بل هو أناقة وفتوة**"([35]).

([34]) **عودة الحجاب – محمد إسماعيل المقدم – ص 17.**

([35]) **المصدر السابق – ص 18.**

وهكذا كان رفاعة الطهطاوي أول من أثار قضية (تحرير المرأة) في مصر في القرن التاسع عشر الميلادي لكن الأهم ما يذكره المقدم بعد ذلك من أن الدعوة لم تجد معارضاً، وبخاصة أن حاكم البلاد باركها وبارك أول كتاب وضعه رفاعة وهو "**تخليص الإبريز في تلخيص باريز**" يبرز فيه تقدُّم الغرب، وأكثر من هذا فقد قرأ محمد علي الكتاب قبل نشره، فأمر بطبعه وأصدر أمره بقراءته في قصوره وتوزيعه على الدواوين والمواظبة على تلاوته والانتفاع به في المدارس المصرية، بل إنه أمر بعد ذلك بترجمته إلى التركية.

وبصياغة أكثر حداثة فإن حركة تحرير المرأة – كجزء من مشروع محمد علي – توضع ضمن ما يسمى: "**التحديث الاستبدادي**"، أو فرض قيم التنوير الأوروبية على المصريين من أعلى بالقوة (الناعمة أو الخشنة).

فحسب كتابه القيم: "**عودة الحجاب**"، فإن رفاعة كان أول من وضع الأفكار النظرية موضع التنفيذ، وأول من أنتج عملاً فكرياً يمهد لخطة اجتماعية عملية وتجلَّى ذلك في مؤلفيه: "**تلخيص الإبريز**" و"**المرشد الأمين**" الذي ألفه بأمر الخديوي إسماعيل وذلك عام (1872) قبل افتتاح أول مدرسة للبنات ترعاها الحكومة بعام واحد وقبل موت رفاعة بأعوام قليلة. ولما كان الخديوي إسماعيل يقود – في بداية تلك المرحلة – حركة التحديث في كل الميادين السياسية والفكرية والاجتماعية، فقد حاول بعد ذلك أن يقنع أهل الرأي بتأليف كتاب في الحقوق والعقوبات يطبقه في المحاكم بحيث يكون: "**سهل العبارة مرتب المسائل على نحو ترتيب القوانين الأوربية**"، لكن أهل الرأي من مشايخ

الأزهر رفضوا هذه الدعوة، فطلب الخديوي من الشيخ رفاعة إقناعهم بقبول ذلك، لكنه اعتذر عن ذلك، على الوجه الذي وصفه الشيخ رشيد رضا في كتاب: "**تاريخ الإمام محمد عبده**" على الوجه التالي: قال الشيخ رشيد: "**حدثني علي باشا رفاعة بن رفاعة بك الطهطاوي قال: إن "إسماعيل باشا" الخديوي لما ضاق بالمشايخ ذرعاً استحضر والده رفاعة بك وعهد إليه أن يجتهد في إقناع شيخ الأزهر وغيره من كبار الشيوخ بإجابة هذا الطلب، وقال له: "إنك منهم ونشأت معهم وأنت أقدر على إقناعهم فأخبرهم أن أوربا تضطرب إذ هم لم يستجيبوا إلى الحكم بشريعة "نابليون"، فأجابه بقوله: "إنني يا مولاي قد شخت ولم يطعن أحد في ديني فلا تعرضني لتكفير مشايخ الأزهر إياي في آخر حياتي وأقلني من هذا الأمر فأقاله**"، وكان أن انزوى الطهطاوي بعيداً عن مكان الصدارة، ليحتل مكانه الشيخ محمد عبده الذي كان في ذلك الوقت في شرخ الشباب يحدوه جرأة الشباب وإقدامه وهنا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل تحرير المرأة([36]) .

وتحت عنوان: "**مرقص فهمي والقذيفة الأولى**" يقول محمد إسماعيل المقدم: في سنة (1894) ظهر كتاب مرقص فهمي المحامي: "**المرأة في الشرق**" وفيه دعا صراحة للمرة الأولى في تاريخ المرأة المسلمة إلى تحقيق أهداف خمسة محددة وهي:

أولاً: القضاء على الحجاب الإسلامي.

ثانياً: إباحة اختلاط المرأة المسلمة بالأجانب عنها.

([36]) **المصدر السابق – ص 20 – بتصرف واختصار.**

ثالثاً: تقييد الطلاق وإيجاب وقوعه أمام القاضي.

رابعاً: منع الزواج بأكثر من واحدة.

خامساً: إباحة الزواج بين المسلمات والأقباط.

وقد أحدث الكتاب ضجة عنيفة ولم يلبث المسلمون حين صدموا به حتى انطلقت في غمرات هذه الضجة قذيفة أخرى، فقد صدر كتاب ألفه الدوق دراكير باسم: "**المصريون**" حمل فيه على نساء مصر، وهاجم المصريين، وتعدى على الإسلام، ونال من الحجاب الإسلامي، وقرار المرأة المسلمة في البيت، واقتصار وظيفتها على تربية النشء ورعاية الزوج. وقد هاجم (المثقفين) المصريين بصفة خاصة لسكوتهم وعدم تمردهم على هذه الأوضاع .

وهنا يدخل محمد إسماعيل مساحة شائكة جداً بترجيح افتراض أن يكون للأميرة نازلي فاضل([37]) دور في "**دعم**" مرقص فهمي، وقبل أن نسترسل معه في هذا السياق، نتوقف للتعريف بهذه الشخصية التي كانت لها أهمية استثنائية – بكل معنى الكلمة – في تاريخ مصر الثقافي والسياسي آنذاك.

([37]) هي ابنة الأمير مصطفى فاضل باشا نجل إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا الكبير، كان والدها مصطفى فاضل يعتبر نفسه أحق بعرش مصر من الخديوي إسماعيل ومن هنا كانت الأميرة نازلي تعلن الحرب على الخديوي (عباس) أ. هـ. من جريدة المساء الخميس (4أغسطس 1983م) من مقالة (هل انتحر محرر المرأة بسبب امرأة؟) للصحافي مصطفى أمين. (نقلاً عن عودة الحجاب – محمد إسماعيل المقدم – هوامش صفحة 23)

obeikandl.com

الكاتب البريطاني الشهير روجر أوين (وهو هنا شاهد مهم) يتحدث عن هذه السيدة – ومن الملفت جداً أن يفرد لها جزءا كبيراً من مقال عن اللورد كرومر – يقول أوين تحت عنوان: "**دور نازلي**": "**رغم السياسات التي كان ينتهجها اللورد كرومر في مصر والتي أثارت غضب المصريين وحنقهم، إلا أنه كانت له علاقات وطيدة مع نخبة المجتمع في مصر، ومعظم هذه العلاقات كانت من خلال الأميرة نازلي ابنة أخت الخديوي إسماعيل التي كانت تقيم في دارة فخمة وراء قصر عابدين. وقد وصف الجنرال جرينفيل الأميرة نازلي بأنها كانت ترتدي "اليشمك الحر"، وكانت وثيقة الصلة باللورد كرومر. ويقول عنها إنها رغم أنها كانت ذات يوم من مؤيدي الحركة العرابية، إلا أنها سرعان ما انقلبت إلى النقيض وأصبحت من مؤيدي الاحتلال البريطاني. والأميرة نازلي كانت تمد اللورد كرومر بكل المعلومات التي ترى أنها قد تكون مفيدة له، حتى دون أن يطلب منها ذلك. والأكثر من ذلك أنها لعبت دوراً مهماً في تعريف اللورد كرومر شخصيات مصرية كانت ترى . من وجهة نظرها . ضرورة أن يتعرف بها لكي يستفيد من علاقاته بها بطريقة أو بأخرى، وان ذلك سوف يساهم في تكريس الاحتلال البريطاني لمصر**"([38]).

ونعود إلى محمد إسماعيل المقدم الذي يولي هو الآخر اهتماماً لعلاقة هذه الأميرة بمحمد عبده إذ كان مقرباً لديها، وقد سعى لأستاذه جمال الدين الأفغاني كي يتوسط لها

([38]) **ظل طويل من كالكتا إلى القاهرة – مقال – روجر أوين – نقلاً عن موقع: المركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب – http://www.icaws.org – 9 / 8/ 1425.**

لدى السلطان في الآستانة ليمنحها وساماً سلطانياً. وكانت هي قد سعت لدى الخديوي توفيق ليعفو عن الشيخ محمد عبده عقب عودته من منفاه كما التمست وساطة كرومر للأمر نفسه وتم المراد وعفا عنه الخديوي. وقد أدركت تلك الأميرة ما للشيخ من تفوق عقلي وخلقي فخصته بمكانة متميزة. وقد ظهر تأثيرها على موقف الشيخ محمد عبده من الإنكليز الذين كان يشتد عليهم قبل التعرف على الأميرة أثناء صحبة الأفغاني، وعقب الثورة العرابية. أما بعد اتصال الشيخ بالأميرة التي كانت صديقة لبعض الإنكليز، فقد خفت حملته ضد إنكلترا وسمح بصداقته الشخصية للورد كرومر صديق الأميرة.([39])

في إطار ما تقدَّم فإن شخصية الأميرة نازلي فاضل وعلاقتها بمحمد عبده يدفعان محمد إسماعيل المقدم إلى ترجيح أن الاستعمار الإنكليزي لجأ إلى الأميرة نازلي فاضل لعمل شيء يساند "**مرقص فهمي**" من خلال صالونها. وكانت دعوة "**تحرير المرأة**" جزءاً من منهج كلي شمل كافة اتجاهات الحياة في المجتمع المصري، وتعود خيوطه إلى مدرسة الشيخ محمد عبده تلميذ جمال الدين الأفغاني، وقد سارا على الدرب الذي رسمه الطهطاوي وزاد الأفغاني نشاطه المريب وعلاقاته بالمحافل الماسونية وتبنيه مبادئ الثورة الفرنسية "**الماسونية**"([40]).

وتثير قضية "**ماسونية الأفغاني**" الكثير من الحساسية عند فريقين: علمانيين يقدرون دوره – هو وتلاميذه – كجسر يمكن استخدامه لمحو الحدود الفاصلة بين الإسلام

([39]) **عودة الحجاب – محمد إسماعيل المقدم – ص 28 – 29.**

([40]) **عودة الحجاب – محمد إسماعيل المقدم – ص 23.**

والمادية الغربية، والفريق الثاني: سذج يعتبرون أن أية إشارة إلى ماسونيته نوعاً من الإغراق في التفسير التآمري، رغم أن والوقائع لا يجوز الرد عليها بالشعارات، كما أن الماسونية "**معطى**" عقلاني تناولته دراسات جادة جداً في الغرب، بسبب الأهمية الكبرى لأدوارها في التاريخ الحديث والمعاصر.

وحديثاً، تكشف رسائل محمد عبده لأستاذه جمال الدين الأفغاني تفاصيل مهمة في هذا الشأن، فماسونية جمال الدين الأفغاني مثبتة بقلمه، وباعترافه الشخصي، وقد كان جمال الدين الأفغاني ومجايلوه ينظرون إلى الماسونية قبل أن تُكشَف دسائسها وكواليسها المتصهينة كحركة عالمية منافحة عن الحرية، وكجمعية دولية للأحرار في كل مكان، وبهذه الصفة دخل الأفغاني الغامض إلى الحركة ثم خرج من المحفل الفرنسي وهو أكثر غموضاً، ولأن انتسابه إلى الماسونيين وتنظيمهم لم يعد سراً، عند الحفنة المشرقية التي كانت تعيش في باريس، وجد ذلك المفكر الذكي أن خير وسائل الدفاع الهجوم، فاعترف أولاً بالانتساب وأسبابه: "**وأول ما شوقني في بناية الأحرار . يقصد الماسونية . عنوان كبير خطير، حرية، مساواة، إخاء غرض منفعة الإنسان وسعي وراء دك صروح الظلم، وتشييد معالم العدل المطلق**". وبعد أن عاشر الأفغاني الماسونيين في فرنسا أربعين يوماً وأكثر بدأ يكتشف أن المكان موبوء "**بجراثيم الأثرة والأنانية**" ولعله طلب المساعدة السياسية من ماسونية باريس، فما أجابوه، لأنهم لم يروا فيه أكثر من عميل متحمس يصلح لخلخلة الأنظمة لا لتثبيت بدائل عنها، فلما لم يجد عندهم العون الذي كان يطلبه تغيرت اللهجة وقرر أن يهاجمهم في ذات الوقت الذي يثبت فيه انتسابه لتنظيمهم، وبذا يضرب ثلاثة عصافير معاً، فينتسب ويتبرأ، ويقطع الطريق على أي تفسير مغرض قد

يصدر عن "**شلة باريس**" التي كانت تشاركه المنفى وبعض أعضائها لا يدري عن أهدافه إلا أقلها([41]).

ونص ماسونية الأفغاني محفوظ في "**الخاطرات**" التي جمعها محمد باشا المخزومي تحت عنوان: "**خاطرات جمال الدين الأفغاني**"، فبعد أن شرح المصلح أسباب انتسابه جاء أوان تبرير الانقلاب على الحركة: "**هذا ما رضيته من الوصف للماسونية وارتضيته لها، ولكن مع الأسف أرى جراثيم الأثرة والأنانية وحب الرياسة.. وإذا لم تدخل الماسونية في سياسة الكون، وفيها كل بناء حر، وإذا آلات البناء التي بيدها لم تستعمل لهدم القديم وتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة، وتدك صروح الظلم والعتو والجور فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة**". ولاكتمال تثبيت ماسونية الأفغاني، لا بد أن نتساءل عن سكوت كتّاب عصر النهضة العربية الأوائل عن تفسيرها أو الإشارة إليها، فالدور الغامض لهذا المفكر الإسلامي كان معروفاً بالإشارات، والغمز دون اللمز، والحصيف لا يحتاج إلى دحمة قطار ليدرك أنه أمام تنظيم سري عالمي الطابع أخاف ولا يزال الأكاديميين والمؤرخين، وهيئات البحث العلمي شرقاً وغرباً. ويضيف اللاذقاني: "**ومن مضحكات أبحاثنا النهضوية والتنويرية، أننا إلى اليوم ندرس "العروة الوثقى" كصحيفة عربية في باريس دون أن نقف عند أصلها وهي الجمعية السرية**

([41]) **الماسونية المشرقية من "جمعية حيدر أباد" إلى "الشلة الباريسية": رسائل محمد عبده لأستاذه تكشف عن وجود جمعية سرية وخطرات الأفغاني تصرح بالانضمام للمحفل الفرنسي – محيي الدين اللاذقاني – جريدة الشرق الأوسط اللندنية –21 /3 / 2002.**

التي شكلها الأفغاني قبل قدومه إلى العاصمة الفرنسية، مما يعني أن ماسونيته أصيلة وقديمة وليست وليدة المحيط الباريسي الذي وجد نفسه فيه مع شلته وتلاميذه"([42]).

وأخبار تلك الجمعية السرية موجودة عند أخلص تلاميذ الأفغاني وهو الشيخ محمد عبده الذي نشر له الباحث الجاد المرحوم علي شلش في سلسلة الأعمال المجهولة نصاً يعترف فيه بجمعية (حيدر أباد) تلك المدينة التي ستكون بعد قرن ونصف القرن من الأفغاني مقراً لأسامة بن لادن، فانظر، وتفكر ولا تأخذ أحداث الدنيا بالسطحية التي يقترحونها عليك لتريح رأسك، وتترك لهم إدارة شؤون الكون لصالح جمعيات سرية ذات أهداف شديدة الغموض والالتباس، ومغرقة في سريتها. يقول محمد عبده في رسالة إلى أستاذه جمال الدين الأفغاني، تحمل تاريخ الرابع والعشرين من ديسمبر 1884 ميلادية، وقد كتبها من تونس: "**استطعت أن ألتقي هنا العلماء ورجال الدين، وقد عرفتهم بنا، وقلت لهم: إن العروة ليست اسم الصحيفة، وإنما اسم جمعية أسسها السيد في حيدر أباد ولها فروع في كثير من الأقطار لا يدري أحدها عن الآخر شيئاً، ولا يعرف هذه الفروع إلا الرئيس وحده، كما قلت لهم إننا نرغب اليوم بتأسيس فرع جديد في هذا البلد**". وما دام الشيخ محمد عبده يتحدث عن نفسه وعن الأفغاني بصيغة التلازم "**عرفتهم بنا**" و"**إننا نرغب**" وما دام الأمر يتعلق بفرع لجمعية سرية، وليس لصحيفة، فلماذا لم نسمع أو نقرأ شيئاً في إثبات ماسونية محمد عبده أو نفيها؟.. خصوصاً أنه كان

([42]) **المصدر السابق.**

من الشلة الباريسية، التي ضمته مع الأفغاني ويعقوب صنوع وأديب اسحق وغيرهم من منفيي المشرق. وليس بين يدي الباحثين – حتى الآن – نصٌ بقلم محمد عبده يثبت ماسونيته كنص جمال الدين الأفغاني في خاطراته، لكن حياة الرجلين يصعب فصلها عقائدياً وإنسانياً وتنظيمياً، ولمن يريد إمساك طرف الخيط للسعي وراء نفي أو إثبات ماسونية الشيخ محمد عبده نشير إلى أن المستشرق البريطاني (إيلي كدوري) يعتبر الأفغاني ملحداً، وكذلك تلميذه، ودليله مقطع من رسالة لمحمد عبده حول رد أستاذه الأفغاني على المستشرق الفرنسي (رينان) يقول فيها: "**لا تُقطَع رأس الدين إلا بسيف الدين**"، ولخطورة هذه العبارة اضطر عبده لتفسيرها لاحقاً، فقال إنه وأستاذه يميزان بين إسلام القرآن وإسلام الحكام والمعنى حسب التفسير اللاحق أن القرآن سيف الدين وهو وحده الذي يفحم الحاكم والخليفة ويفل سيفه([43]).

ويستطرد محيي الدين اللاذقاني: ودع هذا الخيط واتبع آخر، فقد كان الشيخ عبده أثناء منفاه البيروتي في ضيافة وموضع حفاوة أحفاد الأمير عبد القادر الجزائري، وهؤلاء ركبتهم تهمة الماسونية إلى منتصف خمسينات القرن الماضي وكان الأمير محمد سعيد حفيد الأمير عبد القادر، قد خصص جناحاً في قصره الدمشقي لاجتماع المحافل الماسونية المشرقية وهي عديدة منها: "**محفل ميسلون**"، و"**محفل أمية**" و"**محفل أبي العلاء**"، و"**محفل العدل الشقيق**"، ومحفل يحمل اسم الأمير عبد القادر الجزائري نفسه. وإذا كانت تلك الحفاوة مجرد كرم ضيافة عربية وليست أخوة عقائدية، فماذا نقول عن عشرات

([43]) **المصدر السابق.**

الإشارات في كتابات الشيخ عن وحدة الهدف والتنظيم والمصير بينه وبين جمال الدين الأفغاني؟، وما الرابط بين جمعية حيدر أباد السرية والشلة الباريسية التي كانت على صلات وثيقة بالحركة الماسونية؟([44])..

وقد كان لمحمد عبده أخطر الأثر في عملية "**التغريب**" وتقريب الأمة الإسلامية نحو القيم الغربية الأمر الذي جعل اللورد كرومر يشيد بدعوته وبتلامذته ويعلق عليهم أمله في تغريب المجتمع المصري ويذكر أنهم لذلك يستحقون: "**أن يعاونوا بكل ما هو مستطاع من عطف الأوربي وتشجيعه**". أ. هـ. لقد كان يريد محمد عبده أن يقيم سداً في وجه التيار العلماني اللاديني ليحمي المجتمع الإسلامي من طوفانه، ولكن الذي حدث أن هذا السد أصبح قنطرة للعلمانية عبرت عليه إلى العالم الإسلامي لتحتل المواقع واحداً تلو الآخر، ثم جاء فريق من تلاميذ محمد عبده وأتباعه فدفعوا نظرياته واتجاهاته إلى أقصى طريق العلمانية (اللادينية)([45]).

وحسب السياق التاريخي لقصة كتاب قاسم أمين: "**تحرير المرأة**"، فإنه قرأ كتاب داركير عن المصريين فتألم أشد الألم حتى قيل إنه مرض عشرة أيام بعد قراءته لشدة تأثره، فحاول أن يدافع عن المصريين والإسلام، وألف رداً بالفرنسية حاول فيه تفنيد اتهاماته لمصر والمصريين، وبيَّن فيه فضائل الإسلام على المرأة المصرية ورفع من شأن الحجاب، وعدَّه دليلاً على كمال المرأة، وحاول شرح الحكمة الإيجابية في قوانين الشرع

([44]) **المصدر السابق.**

([45]) **عودة الحجاب – محمد إسماعيل المقدم – صفحة 24.**

الإسلامي. ومما يجدر الإشارة إليه أن قاسماً استنكر في كتابه: "**المصريون**" خطة بعض السيدات المصريات اللائي يتشبهن بالأوربيات، فاقتنص بعض خصومه الفرصة ووشوا به إلى الأميرة نازلي بأن قاسماً إنما يعنيها هي بهذا التعريض بذم المصريات اللائي يقلدن الإفرنجيات ويسرن سيرتهن، لأنه لم يكن في نساء مصر آنذاك من يتشبه بالنساء الأوربيات غيرها. فقد كانت الوحيدة التي تختلط بالرجال وتجالسهم في صالونها الذي افتتحته آنذاك ليكون مركزاً تبث منه الدعوة إلى التغريب عامة وإلى "**تحرير المرأة**" خاصة. وكان من رواد "**صالون الضرار**" هذا سعد زغلول والشيخ محمد عبده واللقاني ومحمد بيرم وغيرهم. وكانت نازلي تؤيد هؤلاء في **قصر الدوبارة**، وهو مقر المندوب السامي الإنكليزي ضد **قصر عابدين**، وتسعى لترقيتهم وهم يعتمدون عليها في كل أمر. وكانت الأميرة نازلي قد افتتحت هذا المنتدى إثر عودتها إلى مصر بعد الاحتلال. وبعد أن قويت روابطها مع اللورد كرومر، واتخذت من المعتمد البريطاني أداة لحماية رواد هذه الدعوة وتعبئتهم لتوجيه هذه الحركة متى أمكن ذلك. وغضبت الأميرة مما فعله قاسم أمين وقالت للشيخ محمد عبده قولاً شديداً، بعد أن هددت وتوعدت، وقد أشير إلى جريدة "**المقطم**" لسان حال الإنكليز في مصر في ذلك الوقت، أن تكتب ست مقالات تتعقب آراء قاسم أمين في كتابه "**المصريون**" وتفند "**أخطاءه**"، في دفاعه عن الحجاب واستنكاره الاختلاط بين الجنسين. لكن لم تلبث هذه الحملة أن ألغيت بعد أن اقتنع قاسم أمين بضرورة تصحيح خطأه. واتفق معه سعد زغلول ومحمد عبده على أن ينشر كتاباً يصحح فيه خطأه ويؤيد فيه الدوق دراكير ويواصل مناصرته لكتاب: "**المرأة في الشرق**" لمرقص فهمي، وهكذا خرج قاسم أمين على البلاد بكتابه "**تحرير المرأة**" سنة (1899) ودعا

فيه إلى ما سبق أن دعا إليه ذلك مرقص فهمي بحذافيره، اللهم إلا أنه لم يتعرض لمسألة زواج المسلمات من الأقباط([46]).

وفي هذا المناخ الغامض المريب توسعت دائرة التعليق على الكتاب لتشمل تساؤلات عن نسبته إلى صاحبه، الدكتورة زينب محمود الخضيري كتبت في تقديم إحدي طبعات كتاب قاسم أمين: "**المرأة الجديدة**" (العدد الثاني من كتاب سينا السياسي 1987)، حيث قالت إن من ضمن ما اتهم به قاسم أمين ومحمد عبده كذلك أنه لم يكتب "**تحرير المرأة**"، أو علي أفضل الفروض ليس صاحبه كله، إذ أن صاحبه الحقيقي ومحرر بعض أجزائه هو الشيخ الإمام، ونسبه لقاسم أمين تجنباً للحرج والعاصفة المنتظرة وأن قاسم أمين لم يكن متبحراً، في العقيدة والشريعة بحيث يستطيع أن يذكر كل المصادر التي وردت في "**تحرير المرأة**".([47])

وتلتقط الكاتبة الإسلامية خيط الريبة والشك قائلة إنه في سبيل الدعوة إلى التوجه الكلي لـ "**محاكاة أوروبا**"، قال قاسم أمين في مشاكل اللغة العربية: "**لا أدري ما هي غاية الكتاب الذين إذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون أنفسهم في البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الأجنبية المصطلح عليها، كاستعمالهم مثلاً كلمة السيارة بدلا من كلمة الأوتوموبيل. إن كان المقصد تقريب المعنى إلى الذهن، فالكلمة الأجنبية التي اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على أوجه أتم من**

([46]) **عودة الحجاب – محمد إسماعيل المقدم – ص 26 – 28 – بتصرف.**

([47]) **كارلا وقاسم – مقال – يوسف القعيد – جريدة الأهرام – 12 /5 / 2008.**

الكلمة العربية، وإن كان مقصدهم إثبات أن اللغة العربية لا تحتاج إلى اللغات الأخرى فقد كلفوا أنفسهم أمراً مستحيلاً". (قاسم أمين، **الأعمال الكاملة، تحقيق دكتور محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1976، ج /1 ص/157**)([48]).

وتضيف صافي ناز كاظم: مع هذا المقتطف الشاهد على رغبته في الجمود على كلمة فرنسية أو أجنبية مع وجود كلمة عربية مرادفة وأسهل للناس (بدليل انقراض كلمة: "**أوتوموبيل**" في بلادنا وسيادة: "**سيارة**" و"**عربية**") نجد حضرته متأففاً نافداً صبره يكتب شاكياً: "**يظهر أن باب الاجتهاد أغلق في اللغة كما أقفل باب التشريع، فقد صار من المقرر بيننا أن اللغة العربية وسعت وتسع كل شيء**" (ج/1 ص/ 158). أما اجتهاده فيكون بتطعيم اللغة العربية الفصحى بـ "**طرق التعبير الجميلة التي نسمعها أحيانا في لغة العامة**" (ج/1، ص/158). وحين يكتشف أن الناس يلحنون في العربية، يجد أن هذا: "**برهان كافٍ على وجوب إصلاح اللغة العربية**"، وكيف يكون ذلك برأيه؟: "**أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأي عامل من العوامل**".

وتنتقل صافيناز إلى كتابيه فتقول: كتب قاسم أمين كتابيه الشهيرين: "**تحرير المرأة**" عام 1899، ثم "**المرأة الجديدة**" عام 1900، وبهما من اللغة الركيكة والحشو الممل ما يضيق الصدر عن عظمة الأوروبيين والأمريكان، وعن أسباب تقدم الأنجلو ساكسون، كيف أن نشاطهم وجراءتهم وإقدامهم وتبصرهم وفطنتهم وجميع الصفات التي

([48]) **تحرير المرأة .. وهذا الانحناء الذليل للغرب – صافي ناز كاظم – مقال – جريدة الشرق الأوسط اللندنية – 15 /3 / 2007.**

تعترف كل الأمم بامتيازهم فيها عن سواهم هي نتيجة لعب الكرة والسباحة وركوب الخيل، (ج/2، ص/78). وحين يعدد أخطاء المرأة المصرية، التي لا يجيد حصرها، يتناقض فيأخذ عليها تارة كونها لا تجيد سوى التزين لزوجها ومسامرته فيقول: "**ولما لم يبق للعقل ولا للأعمال النافعة قيمة لديها وإنما بضاعتها أن تسلي الرجل وتمتعه.... وجهت جميع قواها إلى التفنن في طرق استمالته إليها والاستيلاء على أهوائه وخواطر نفسه**".(ج/2، ص/23). بعد ست صفحات من هذا الكلام يأتي قوله متهماً المرأة المصرية بأنها جاهلة حتى في أمر زينتها ومسامرة زوجها، فنراه متفلسفاً: "**ذلك أن المرأة الجاهلة تجهل حركات النفس الباطنة، وتغيب عنها معرفة أسباب الميل والنفور فإذا أرادت أن تستميل الرجل جاءت في الغالب بعكس ذلك**" (ج/2، ص/29). ويلاحظ دكتور محمد عمارة، جامع الأعمال الكاملة لقاسم أمين ومحققها، أن الأجزاء الإسلامية الطيبة في الكتابين غريبة على كاتب يقول: "**في البلاد الحرة قد يجاهر الإنسان بأن لا وطن له ويكفر بالله ورسله ويطعن على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم... يقول ويكتب ما شاء ولا يفكر أحد...أن ينقص شيئاً من احترامه لشخصه متى كان قوله صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح. كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية**" (ج/1، ص/165). لذلك نجد الدكتور عمارة، بقرائن بحثه العلمي يقول: "**ففي "تحرير المرأة" وبالذات في الفصول التي تتناول وجهة نظر الشريعة والدين في هذه القضية، نلتقي بمجموعة من الآراء الفقهية والمناقشات، لا يستطيع أن يبحثها ولا أن يستخلصها كاتب مثل قاسم أمين... وأهم من ذلك نجد أحكاماً كلية تدل على أن صاحبها ومصدرها قد**

استقصى بحث هذا الأمر في جميع مصادره الرئيسة في الفكر الإسلامي، على اختلاف مذاهبه وتياراته الفكرية، وهو الأمر الذي لا نعتقد أنه قد توافر في ذلك العصر سوى لقلة قليلة، في مقدمتهم جميعاً الأستاذ الإمام محمد عبده". (**المصدر السابق، المقدمة، دراسة في فكر قاسم أمين، ص/144**). هذا هو اجتهاد دكتور محمد عمارة، ألا يكون من حقه هذا الاجتهاد، وفي الوقت نفسه، يكون من حق الأستاذ قاسم أمين الدعوة إلى الاجتهاد بالعبث في اللغة العربية والدعوة إلى حق المجاهرة بالكفر؟.

وتنحاز الكاتبة صافي ناز كاظم إلى من يستريبون في صحة أجزاء من الكتاب لقاسم أمين فتقول: "**إنني واحدة من المؤيدين لاستنتاج دكتور عمارة بأن الأجزاء الفقهية العلمية في كتابي قاسم أمين "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة"، ليست من كتابته لأنها خارج قدراته العقلية المتسمة بالتناقض والتشويش والتسطيح والانحناء الذليل للمدنية الغربية، فكيف لمن يقول في الأجزاء الإسلامية: "ولو كان لدين سلطة وتأثير على العوائد لكانت المرأة المسلمة اليوم في مقدمة نساء الأرض. سبق الشرع الإسلامي كل شريعة سواه في تقرير مساواة المرأة للرجل، فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت في حضيض الانحطاط عند جميع الأمم، وخولها كل حقوق الإنسان" إلخ إلخ إلخ، (ج2 ص 15)، يكون هو الذي يقول: "نحن لا نستغرب أن**

المدنية الإسلامية أخطأت في فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها، فليس خطؤها في ذلك أكبر من خطئها في كثير من الأمور الأخرى"؟([49]).

ومما أورده لطفي السيد في هذا السياق أنه اجتمع في جنيف عام 1897م بالشيخ محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول، وأن قاسم أمين أخذ يتلو عليه فقرات من كتاب: "**تحرير المرأة**" وصفت بأنها تنم عن أسلوب الشيخ محمد عبده([50]).

وقد أثار الكتاب عاصفة من الردود بلغ عدد الكتب وحدها التي نشرت رداً على كتاب: "**تحرير المرأة**" لقاسم أمين أكثر من مائة كتاب أهمها:

- **السنة والكتاب في حكم التربية والحجاب** – محمد إبراهيم القياتي.
- **الجليس الأنيس في التحذير عما في تحرير المرأة من التلبيس**- محمد أحمد حسنين البولاقي.
- **خلاصة الأدب** – حسين الرفاعي.
- **نظرات في السفور والحجاب** – مصطفى الغلاييني.
- **قولي في المرأة** – مصطفى صبري.
- **رسالة في مشروعية الحجاب** – مصطفى نجا.
- **رسالة الفتى والفتاة** – عبد الرحمن الحمصي.

([49]) تحرير المرأة .. وهذا الانحناء الذليل للغرب – صافي ناز كاظم – مقال – جريدة الشرق الأوسط اللندنية – 3/15 / 2007.

([50]) عودة الحجاب – محمد إسماعيل المقدم – ص 35.

obeikandl.com

على أن أول كتاب أُلِّف في الرد على قاسم أمين هو كتاب: "**تربية المرأة والحجاب**" وهو أهم ما ألف وأعمقه أثراً ألفه محمد طلعت حرب الذي اقترن اسمه فيما بعد – وللأسف – بشئون الاقتصاد الربوي.([51])!

([51]) **عودة الحجاب – محمد إسماعيل المقدم – ص 40 – 41.**

obeikandl.com

تربية المرأة والحجاب

تأليف: محمد طلعت حرب

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي باسمه يفتتح كل كتاب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاء بالحكمة وفصل الخطاب، ودعاء النساء كما دعا الرجال، إلي القيام بصالح الأعمال، والسير في طريق الكمال.

وبعد فقد كان من فضل الله علينا وعلى الناس أن وفقنا لجمع هذا الكتاب، الذي تلقاه بالقبول أولو الألباب، لدعوته إلي تربية المرأة على أصول الديانة الإسلامية، مع مراعاة حال العصر والتوقي من شرور المدنية الغربية، تلك المدنية التي أصلحت في الأقطار الغربية وأفسدت، ولكنها أفسدت في البلاد الشرقية وما أصلحت، إذ فتن الناس بشر ما جاءت به، وطفقوا يتركون لأجلها خير ما كانوا عليه.

لما رأينا كتابنا هذا "**تربية المرأة**" قد انتشر في الأمصار، وتنقَّل في الأقطار، حتى نفدت نسخ طبعته الأولى([52])، وتوجهت الرغبة إلي طبعه مرة أخرى، رأيت أن أزيد في

([52]) **اعتمدنا على الطبعة الثانية من الكتاب المطبوعة بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز، الصادرة عام 1323 هجرية، في 200 صفحة من القطع الكبير، وقد أصدرت مكتبة الآداب بمصر طبعة "مصورة" من الطبعة الأولى فجاءت في 140 صفحة.**

obeikandl.com

فوائده ومسائله، وأضم إليه شيئاً من أحاسن الكلام وعقائله، وكنت قرأت مجلة "**المنار**" الإسلامية، مقالات في "**الحياة الزوجية**"، لمنشئها الذي نعترف مع حضرة قاسم بك أمين بأن جميع الناس يعرفون مكانه من العلم والدين، فاخترت أن أجعلها خاتمة للكتاب، لأنها في الموضوع لب اللباب، ثم قرأت في باب التفسير من "**المنار**"([53]) كلاماً عالياً، وهدياً سماوياً وسامياً، في تفسير قوله تعالى في النساء: "**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة**"([54]) الآية. وهو مما كان اقتبسه صاحب المنار من دروس الأستاذ الإمام، حكيم الشرق وحجة الإسلام، الشيخ محمد عبده([55]) عليه الرحمة والسلام، فاخترت أن أقتبسه في فاتحة هذه الطبعة وهاكه نقلاً عن الجزء العاشر من مجلد

([53]) **تفسير اقترن باسم الأستاذ محمد رشيد رضا المولود في قرية "القلمون" بلبنان (23 سبتمبر 1865م)، وينتمي إلى أسرة شريفة من العترة النبوية الشريفة تعرف إلى محمد عبده، وكان محكومًا عليه بالنفي بتهمة الاشتراك في الثورة العرابية. نزل رشيد رضا الإسكندرية (3 يناير 1898م)، ثم نزل القاهرة واتصل على الفور بمحمد عبده. أصدر رشيد رضا العدد الأول من مجلته الشهيرة "المنار" (مارس 1898)، واستمرت 36 سنة وانتشرت انتشارًا واسعًا في العالم الإسلامي، واشتهر اسم صاحبها حتى عُرف باسم رشيد رضا "صاحب المنار"، ومن أهم مؤلفاته "تفسير المنار" الذي استكمل فيه ما بدأه شيخه محمد عبده الذي توقف عند الآية (125) من سورة النساء، وواصل رشيد رضا تفسيره حتى بلغ سورة يوسف، وحالت وفاته دون إتمام تفسيره.**

([54]) **سورة البقرة: 228.**

([55]) **محمد عبده (1849 – 1905) شيخ أزهري مصري يوصف بأنه من أهم المجددين الدينيين في العصر الحديث، ودوره وقيمته محل خلاف كبير، وفي حياته صفحات غامضة.**

المنار الثامن، (**الصادر في 16 جمادي الأولى سنة 1323**) "**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة**".

هذه كلمة جليلة جداً جمعت على إنجازها ما لا يؤدى بالتفصيل إلا في سِفر كبير فهي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق إلا أمراً واحداً عبر عنه بقوله: "**الرجال قوامون على النساء**"([56])، وهذه الدرجة مفسرة بقوله تعالى: " **ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف**" الآية، وقد أحال في معرفة ما لهن وما عليهن على المعروف بين الناس في معاشراتهم ومعاملاتهم في أهليهم، وما يجري عليه عرف الناس هو تابع لشرائعهم وعقائدهم وآدابهم وعاداتهم فهذه الجملة تعطي الرجل ميزاناً يزن به معاملة لزوجة في جميع الشؤون والأحوال فإذا هم بمطالبتها بأمر من الأمور يتذكر أنه يجب عليه مثله، ولهذا قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: "**إنني لأتزين لأمرأتي كما تتزين لي**" لهذه الآية. وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها وإنما أن الحقوق بينهما متبادلة وأنهما أكفاء فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابله لها إن لم يكن مثله في شخصه، فهو مثله في جنسه، فهما متماثلان في الحقوق والأعمال كما أنهما متماثلان في الذات والإحساس والشعور والعقل، أي أن كلا منهما بشر تام له عقل يتفكر في مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويُسَر به ويكره ما لا يلائمه وينفر منه، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذه عبداً يستذله ويستخدمه في مصالحة

([56]) **سورة النساء 34**.

obeikandl.com

لا سيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة التي لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه.

قال الأستاذ الإمام قدس الله روحه: "**هذه الدرجة التي رفع الإسلام النساء إليها لم يرفعهن إليها دين سابق ولا شريعة من الشرائع بل لم تصل إليها أمة من الأمم قبل الإسلام وبعده. وهذه الأمم الأوروبية التي كان من تقدمها في الحضارة والمدنية أن بالغت في تكريم النساء واحترامهن وعنيت بتربيتهن وتعليمهن العلوم والفنون لا تزال دون هذه الدرجة التي رفع الإسلام النساء إليها ولا تزال قوانين بعضها تمنع المرأة من حق التصرف في مالها بدون إذن زوجها وغير ذلك من الحقوق التي منحتها إياها الشريعة الإسلامية من نحو ثلاثة عشر قرناً ونصف. وقد كان النساء في أوروبا منذ خمسين سنة بمنزلة الأرقاء في كل شيء، كما كن في عهد الجاهلية عند العرب أو أسوأ حالاً ونحن لا نقول أن الدين المسيحي أمرهم بذلك لأننا نعتقد أن تعليم المسيح لم يخلص إليهم كاملاً سالماً من الإضافات والبدع ومن المعروف أن ما كانوا عليه في الدين لم يرق المرأة وإنما كان ارتقاؤها من أثر المدنية الجديدة في القرن الماضي**".

"**وقد صار هؤلاء الأفرنج الذين قصرت مدنيتهم عن شريعتنا في إعلاء شأن النساء يفخرون علينا بل يرموننا بالهمجية في معاملة النساء، ويزعم الجاهلون منهم بالإسلام أن ما نحن عليه هو أثر ديننا. ذكر الأستاذ الإمام في الدرس أن أحد السائحين من الإفرنج زاره في الأزهر وبيناهما ماران في المسجد رأي الإفرنج بنتا**

مارة فيه فبهت وقال ما هذا؟ أنثى تدخل الجامع!!! فقال له الإمام وما وجه الغرابة في ذلك؟ قال: إننا نعتقد أن الإسلام قرر أن النساء ليس لهن أرواح وليس عليهن عبادة، فبين له غلطه وفسر له الآيات فيهن... قال فانظروا كيف صرنا حجة على ديننا وإلي جهل هؤلاء الناس بالإسلام حتى مثل هذا الرجل الذي هو رئيس لجمعية كبيرة فيهم فما بالكم بعامتهم".

"إذا كان الله قد جعل للنساء على الرجال مثل ما لهم عليهن إلا ما ميزهم به من الرياسة، فالواجب على الرجال بمقتضي كفالة الرياسة أن يعلموهن ما يمكنهن من القيام بما يجب عليهن ويجعل لهن في النفوس احتراماً يعين على القيام بحقوقهن ويسهل طريقه، فإن الإنسان بحكم الطبع يحترم من يراه مؤدباً عالماً بما يجب عليه عاملاً به ولا يسهل عليه أن يمتهنه أو يهينه وإذا بدرت منه بادرة في حقه رجع على نفسه باللائمة فكان ذلك زاجراً له عن مثلها".

"كلَّف الله تعالى النساء بالإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة في العبادات والمعاملات كما كلف الرجال وجعل لهن عليهم مثل ما جعله لهن عليهن، وقرن أسماءهن بأسمائهم في آيات كثيرة، وبايع النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنات كما بايع المؤمنين وأمرهن بتعلُّم الكتاب والحكمة كما أمرهم، وأجمعت الأمة على ما مضي به الكتاب والسنة من أنهن مجزيات على أعمالهن في الدنيا والآخرة، أفيجوز بعد هذا كله أن يحرمن العلم بما عليهن من الواجبات والحقوق لربهن ولبعولتهم ولأولادهن ولذي القربي وللأمة والملة؟ العلم الإجمالي بما يُطلَب فعله شرط في

توجُّه النفس إليه إذ يستحيل أن تتوجه إلي المجهول المطلق، والعلم التفصيلي به المبيِّن لفائدة فعله ومضرة تركه يُعد سبباً للعناية بفعله والتوقي من إهماله فكيف يمكن للنساء أن يؤدين تلك الواجبات والحقوق مع الجهل بها إجمالاً وتفصيلاً؟ وكيف تسعد في الدنيا أو الآخرة أمة نصفها كالبهائم لا يؤدي ما يجب عليه لربه ولا لنفسه ولا للناس والنصف الآخر قريب من ذلك لأنه لا يؤدي إلا قليلاً مما يجب عليه من ذلك ويترك الباقي ومنه إعانة ذلك النصف الضعيف على القيام بما يجب عليه أو إلزامه به بما له عليه من السلطة والرياسة".

"إن ما يجب أن تعلمه المرأة من عقائد دينها وآدابه وعباداته محدود ولكن ما يُطلَب منها لنظام بيتها وتربية أولادها ونحو ذلك من أمور الدنيا كأحكام المعاملات – إن كانت في بيت غنى ونعمة – يختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال، كما يختلف بحسب ذلك الواجب على الرجال، ألا تري الفقهاء يوجبون على الرجل النفقة والسكني والخدمة اللائقة بحال المرأة، ألا تري أن فروض الكفايات قد اتسعت دائرتها، فبعد أن كان اتخاذ السيوف والرماح والقسي كافياً في الدفاع عن الحوزة صار هذا الدفاع متوقفاً على المدافع والبنادق والبوارج وعلى علوم كثيرة واجبه اليوم ولم تكن واجبه ولا موجودة بالأمس؟، ألم تر أن تمريض المرضي ومداواة الجرحي كان يسيراً على النساء في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وعصر الخلفاء رضي الله تعالى عنهم وقد صار الآن متوقفاً على تعلُّم فنون متعددة وتربية خاصة، أي الأمرين أفضل في نظر الإسلام، أتمريض المرأة لزوجها إذا

هو مرض أم اتخاذ ممرضة أجنبية تطلع على عورته وتكتشف مخبآت بيته؟ وهل يتيسر للمرأة أن تمرِّض زوجها أو ولدها إذا كانت جاهلة بقانون الصحة وبأسماء الأدوية؟ نعم قد تيسر لكثيرات قتل مرضاهن بزيادة مقادير الأدوية السامة أو يجعل دواء مكان آخر".

"روي ابن المنذر والحاكم وصحيحه وغيرهما عن عليّ كرم الله وجهه تعالى أنه قال في تفسير قوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً": علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم: والمراد بالأهل النساء والأولاد ذكوراً وإناثاً وزاد بعضهم هنا العبد والأمة والأهل في أصل اللغة القرابة. وإذا كان الرجل يقي نفسه وأهله نار الآخرة بتعليمهم وتأديبهم فهو كذلك يقيهم بذلك نار الدنيا وهي المعيشة المنغصة بالشقاء وعدم النظام".

"والآية تدل على اعتبار العرف في حقوق كل من الزوجين على الآخر ما لم يحل العرف حراماً أو يحرم حلالاً مما عرف بالنص، والعرف يختلف باختلاف الناس والأزمنة ولكن أكثر فقهاء المذاهب المعروفة يقولون أن حق الرجل على المرأة أن لا تمنعه من نفسها بغير عذر شرعي وحقها عليه النفقة والسكني....إلخ، وقالوا لا يلزمها عجن ولا خبز ولا طبخ ولا غير ذلك من مصالح بيته أو ماله وملكه. والأقرب إلي هداية الآية ما قاله بعض المحدثين والحنابلة. قال في حاشية "المقنع" بعد ذكر القول بأنه لا يجب عليها ما ذكر: "وقال أبو بكر بن أبي شيبة والجوزجاني عليها ذلك واحتجا بقضية على وفاطمة رضي الله عنهما، فإن النبي

صلى الله عليه وسلم قضي على ابنته بخدمة البيت وعلى على ما كان خارجاً من البيت من عمل، رواه الجوزجاني من طرق قال وقد قال عليه السلام: "لو كنت آمر أحداً أن يسجد لأحد لأمر المرأة أن تسجد لزوجها ولو أن رجلا أمر إمراته أن تنتقل من جبل أسود إلي جبل أحمد أو من جبل أحمر إلي جبل أسود لكان نولها "أي حقها" أن تفعل ذلك" ورواه بإسناده، قال فهذا طاعة فيما لا منفعة فيه فكيف بمؤنة معاشه. وقال الشيخ تقي الدين يجب عليها المعروف من مثلها لمثله قال في "الإنصاف والصواب" أن يرجع في ذلك إلي عرف البلد". ا. هـ.

"وما قضى به النبي صلى الله عليه وسلم بين بنته وربيبته وصهره "عليهما السلام" هو ما تقضي به فطرة الله تعالى وهو توزيع الأعمال بين الزوجين على المرأة تدبير المنزل والقيام بالأعمال فيه وعلى الرجل السعي والكسب خارجه. وهذا هو المماثلة بين الزوجين في الجملة وهو لا ينافي استعانة كل منهما بالخدم والإجراء عند الحاجة إلي ذلك مع القدرة عليه ولا مساعدة كل منهما للآخر في عمله أحياناً إذا كانت هناك ضرورة وإنما ذلك هو الأصل والتقسيم الفطري الذي تقوم به مصلحة الناس وهم لا يستغنون في ذلك ولا في غيره عن التعاون: "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وتعاونوا على البر والتقوي ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله"، وما قاله الشيخ تقي الدين وما بينه به في "الإنصاف" من الرجوع إلي العُرف لا يعدو ما في الآية قيد شعرة. وإذا أردت أن تعرف مسافة البعد بين ما يعمل أكثر المسلمين وما يعتقدون من شريعتهم فانظر في معاملتهم لنسائهم تجدهم يظلمونهن

بقدر الاستطاعة لا يصد أحدهم عن ظلم امرأته إلا العجز، ويحملونهن ما لا يحمله إلا بالتكلف والجهد ويكثرون الشكوي من تقصيرهن ولئن سألتهم عن اعتقادهم فيما يجب لهم عليهن ليقولُّن كما يقول أكثر فقهائهم إنه لا يجب لنا عليهن خدمة ولا طبخ ولا غسل ولا كنس ولا فرش ولا إرضاع طفل ولا تربية ولد ولا إشراف على الخدم الذين نستأجرهم لذلك، إن يجب عليهن إلا المكث في البيت والتمكين من الاستمتاع، وهذان الأمران عدميان: أي عدم الخروج من المنزل بغير إذن، وعدم المعارضة بالاستمتاع، فالمعني أنه لا يجب عليهن للرجال عمل قط بل ولا للأولاد مع وجود آبائهم، أما قوله تعالى: "وللرجال عليهن درجة" فهو يوجب على المرأة شيئاً وعلى الرجل أشياء. ذلك أن هذه الدرجة هي درجة الرياسة والقيام على المصالح المُفسَّرة بقوله تعالى: "بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم"، فالحياة الزوجية حياة اجتماعية ولابد لكل اجتماع من رئيس لأن المجتمعين لابد أن تختلف آراؤهم ورغباتهم في بعض الأمور ولا تقوم مصلحتهم إلا إذا كان لهم رئيس يرجع إلي رأيه في الخلاف لئلا يعمل كل على ضد الآخر فتنفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام. والرجل أحق بالرئاسة لأنه أقدر على التنفيذ بقوته وماله ومن ثم كان هو المطالب شرعاً بحماية المرأة والنفقة عليها وكانت هي مطالبة بطاعته في المعروف فإن نشزت عن طاعته كان له تأديبها بالوعظ والهجر والضرب غير المبرح أن تعين تأديباً، يجوز ذلك لرئيس البيت لأجل مصلحة العشيرة وحسن العشرة كما يجوز مثله لرئيس الأمة "الخليفة أو السلطان"

لأجل مصلحة الجماعة. وأما الاعتداء على النساء لأجل التحكم أو التشفي أو شفاء الغيظ فهو من الظلم الذي لا يجوز بحال وكل راعٍ مسؤول عن رعيته. وسيأتي تفصيل لهذه السلطة في سورة النساء إن شاء الله تعالى".

"وختم الآية بقوله عز وجل "والله عزيز حكيم"، قال الأستاذ الإمام: إن لذكره العزة والحكمة ههنا وجهين أحدهما إعطاء المرأة من الحقوق على الرجل مثل ما له عليها بعد أن كانت مهضومة الحقوق عند العرب وجميع الأمم والثاني جعل الرجل رئيساً عليها فكأن من لم يرض بهذه الأحكام الحكيمة يكون منازعاً لله تعالى في عزة سلطانه، ومنكراً لحكمته في أحكامه، فهي تتضمن الوعيد على المخالفة كما عهدنا من سنة القرآن". ا. هـ.

هذا هو رأي فقيد الإسلام المرحوم ومن تصفَّح ما يلي من فصول كتابنا وجدنا لم نقل غير ما قال والله الهادي إلى ما فيه الخير والسداد.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين واخوانه المرسلين، أما بعد، فإنه قد كثر في هذه الأيام البحث والكتابة في حالة المرأة وما يجب عليها ولها وفي طرق تعليمها.

والفضل في فتح باب هذا البحث لكتاب "**تحرير المرأة**" الذي وضعه حضرة الفاضل قاسم بك أمين يقول فيه: إن المرأة مساوية للرجل من جميع الوجوه وأن الرجل ظالم لها في حقوقها ويحث فيه على تربية المرأة وتعليمها كما يتعلم الرجل سواء بسواء. ويقول بلزوم رفع الحجاب ووجوب الاختلاط، لأن حجاب المرأة وعدم اختلاطها بالرجال مما يقيد حريتها التي منحها الله إياها ويمنع من قيامها بالعمل المكلفة به في الهيئة الاجتماعية إلي آخر ما يدعو إليه. ولم يكد يظهر هذا الكتاب في عالم الوجود حتى أشيع في بعض الجرائد أنه تألفت لجنة في مصر تحت رعاية عظيم فيها لتحرير المرأة الشرقية على الطريقة التي أشار إليها حضرة المؤلف في كتابه. وأخذ الناس من ذلك الوقت يبحثون في موضوع الكتاب وما احتوي عليه من أفكار وأماني. ولقد انقسموا حزبين: حزباً يري رأي

المؤلف وهم قلائل يعدون على الأصابع. والحزب الآخر وهو الأعظم عدداً أجمع على استهجان ما ورد بالكتاب ويقول إنه يدعو إلي بدعة في الدين لا في العوائد فقط. وكلا الحزبين مسلم والحمد لله بأن الدين لا يمنع مطلقاً من تعليم المرأة وتربيتها وتهذيبها بل هو يحض على ذلك ويأمر به ولكنهما يختلفان فيما ينبغي أن تعلمه المرأة وفي طريقة التعليم والتهذيب.

ولما رأينا هذا الجدال والكفاح بين فريقين يعزِّز كل منهما قوله بالشرع ويقول إن الحق والدين في جانبه ورأينا أنه لم يكد يخلو مجتمع من الكلام في هذا الموضوع تاقت نفسنا إلي البحث والتنقيب والدخول فيه.

ونحن نعرض على القراء نتيجة بحثنا، فإن أخطأنا فلنا من حسن النية ما نرجوا معه غفران سيئات خطئنا، وأن أصبنا المرمي كما نظن فلسنا نسأل على عملنا أجراً، فنقول:

أول شيء طرأ على ذهننا حين قرأنا الكتاب ورأينا الناس أخذوا يسلقون حضرة المؤلف بألسنة حداد ويحملون عليه وعلى كتابه حملات لم يتعودها على مؤلف غيره من قبل، أن لابد في الأمر من شيء مهم حمل الناس على ذلك، إذ لا يمكن أن يجتمع كل الناس على ضلالة([57]). ولا يخفي أن ألسنة الخلق أقلام الحق([58]). فأخذنا نسأل

([57]) **إشارة إلى مجموعة من الأحاديث متقاربة اللفظ والمعنى منها: قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تجتمع أمتي على ضلالة"، وقوله: "إن الله أجاركم من ثلاث خلال: أن يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا، وأن لا يظهر أهل الباطل على أهل الحق، وأن لا تجتمعوا على ضلالة"، والحديث من ناحية السند منقطع (أي فيه راو لم يثبت أنه سمع من الراوي الذي سبقه في سلسلة رواة الحديث) والصحابي**

ونتساءل ونبحث ونتناظر حتى علمنا أن معظم هياج الرأي العام على حضرة المؤلف ناتج مما هو راسخ في أذهانهم من أن رفع الحجاب والاختلاط كلاهما أمنية تتمناها أوروبا من قديم الزمان لغاية في النفس يدركها من وقف على مقاصد أوروبا بالعالم الإسلامي ويقولون إن: "**للأوروباويين مطامع قديمة ومآرب في النفس يظهرها زيادة التقرب بين العالمين الشرقي والغربي، حتى أن بعض أمراء المسلمين اتخذ هذه المقاصد ذريعة يتقرب بها إلي بعض دول أوروبا في نيل مآربه. ومن ذلك أن إسماعيل باشا**([59])

الذي تنتهي إليه رواية الحديث لا يعرف من هو. وفي المعنى نفسه حديث روي بروايات متعددة منها: "لا يجمع الله هذه الأمة على ضلالة، ويد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار" وفيه راو ضعيف، ومنها "إن أمتي لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم" ويعلق العلامة ابن حجر العسقلاني على هذه الأحاديث بقوله: "هذه الأحاديث رويت بطرق كثيرة لا يخلو واحد منها من مقال". (ويمكن الرجوع إلى: "الغلو في حجية الإجماع الأصولي: صوره وأسبابه" – الأستاذ الدكتور صلاح الدين عبد الحليم سلطان أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة – الناشر: دار سلطان للنشر – بأمريكا).

([58]) "ألسنة الخلق أقلام الحق" قول مأثور يتناقله كثير من الباحثين والكُتَّاب على اعتبار أنه حديث شريف، قال السخاوي في "المقاصد الحسنة" لا أصل له" (المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة – عبد الرحمن السَّخاوي – دار الكتاب العربي – ص 152).

([59]) إسماعيل باشا (1830 – 1895): خديوي مصر (1863 – 1879). تم في عهده فتح قناة السويس (عام 1869). ورَّط مصر في الديون اضطر إلى بيع أسهمها في قناة السويس لبريطانيا بثمن بخس (1875)، ما فتح الباب لتدخُّل الدول الأوروبية في شؤون مصر الداخلية بشكل سافر. عزله السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (1879) وخلفه ابنه توفيق باشا. (نقلا عن: معجم أعلام المورد – موسوعة تراجم لأشهر الأعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين مستقاة من "موسوعة المورد" – تأليف

خديوي مصر الأسبق لما كانت نفسه تميل إلي الاستقلال وتكوين مملكة مستقلة بأفريقيا يحكمها هو ومن يأتي بعدها من أولاده كان عاملاً على جذب دول أوروبا إليه لتساعده على تحقيق أمنيته في مقابلة تحقيقه أمنيتهم بأن يدخل العادات الأفرنكية بين أمته مما كان يظنه سهل المنال، حتى أنه كان كثيراً ما يتظاهر ويقول إن مصر قطعة من أوروبا وأن أخلاق المصريين وعوائدهم التي ورثوها ستصبح بمساعيه بعد قليل مماثلة لعوائد أوروبا وأخلاقها ليكون له من ذلك وسيلة يتقرب بها إليهم لما رآه وعلمه من مخالطة أمرائهم وعلمائهم وأرباب الأفكار والسياسة منهم الذين يعلمون حق العلم أنه لم يبق حائل يحول دون هدم المجتمع الإسلامي – في المشرق لا في مصر وحدها – إلا أن يطرأ على المرأة المسلمة التحويل بل الفساد الذي عم الرجال في المشرق. وكل من أدرك اسماعيل باشا يعلم ما كان قد أشيع في ذلك الوقت من أنه كان يريد أن تخرج النساء مكشوفات الوجوه وفي الطرقات كالفرنجيات وعمت الإشاعة أرجاء القطر بأجمعه وتحدَّث الناس بها في كل نادٍ. وقالوا أيضاً إنه لأجل تنفيذ هذا الفكر أمر بأن تخرج تلميذات مدرسة السيوفية مكشوفات الوجوه. وقد رآهن الناس وهن على ذلك وعلى رؤوسهن البرانيط في عربات كثيرة يتفسحن في أرجاء المدينة وبينهن من لها من العمر ستة عشرة سنة وزيادة. وقد علم الناس ثمرة هذا الغراس فقد خرجن أكثرهن على علة

منير البعلبكي – إعداد: الدكتور رمزي البعلبكي – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الأولى 1992 – صفحة 57).

البغاء([60]). ولم يقتصر العلم بهذا العزم على مصر فقط بل تعداها إلي غيرها من الأمصار حتى أن أحد أمراء المسلمين إذ ذاك كتب إليه كتاباً مطولاً ينهاه فيه ويلومه على ما يتظاهر به من حب الانفصال عن الدولة، وما يريد إدخاله من عادات الافرنج بين قومه، ومما جاء في الكتاب المذكور مختصاً بهذا الموضوع قوله بعد العنوان وحمد الله والصلاة على أنبيائه([61]):

"بلغنا ورأينا من مقتضيات الأحوال ما يصدق الخبر أنكم كاتبتم ملوك أوروبا وتوجتهم بأنفسكم إليهم تطلبون منهم الإعانة على الاستقلال بملك مصر والاستبداد بالسلطنة ليقال لكم ملك مصر أو فرعون مصر ولم يقنعكم لقب الخديوي الذي شرفكم به سلطاننا في هذه المدة الأخيرة وذكرتم للمشار إليهم أنكم تضمنون لهم إن وقعت منهم الإعانة التي تطلبونها تبديل أحكام القرآن، وفصل السياسة عن الدين بالمرة وتبيحون لنساء الأمة الجديدة التي تكوِّنونها ما تبيحه العادات الأفرنجية وقوانينها من الحضور في مجامع الرجال ومواكبهم وغير ذلك ولا تظلمونهن بمثل ما ظلمتهن الشريعة الإسلامية على مدعاكم وقلتم فيما ذكرتم لأولئك والملوك أن السلطان العثماني لا يتيسر له ما يتيسر لكم من أمثال هاته الأمور التي هي خلاصة التمدن الإنساني في نظركم لكونه ملقباً بلقب: خليفة الرسول إلي آخر ما ذكرتم...." ا. هـ.

([60]) البغاء: الدعارة.

([61]) اطلعت على هذا الكتاب عند بعض أعاظم مصر ولديه ما يثبت صحته. (من هوامش الأصل).

"وإن إرادة الوصول إلي تغيير حالة المرأة المسلمة شيء كامن في نفوس الفرنج لذلك كانوا يطالعون به كل من حادثهم من أدباء الشرق وعلمائه حتى أنه ترى الواحد منهم متى ناظرته مشفقاً على المرأة المسلمة إشفاقاً غريباً ويرثي لحالها، ويصدر منه من الأقوال ما يدل على جهله بحالة المرأة وحقوقها في الإسلام جهلاً تماماً. مع أن لكثير من فضلاء الشرق مؤلفات ومقالات في حالة المرأة المسلمة وما لها من الحقوق بحسب الشريعة الغراء قد ترجمت إلي بعض لغات أوروبا واطلع عليها الكثير من علمائها، ومع ذلك تراهم مصرين على رأيهم من تعاسة حالة المرأة المسلمة كأن المرأة المسلمة وكلتهم عنها في المدافعة عن حقوقها أو كأنهم لما رأوا تعاسة المرأة عندهم وابتذالها بما وصلت إليه بفضل الحرية الزائدة الواسعة أرادوا أن تكون حالة التعاسة عامة كل نساء الدنيا فيهم دائبون عاملون على التنفير من حالة المرأة المسلمة وما هي عليه من الشقاء لتقوي كلمتهم فيتداخلون يوماً ما بالقوة باسم المروءة ليحملوا دول الإسلام على تغيير حالة المرأة فيتم لهم الغرض الخفي الكامن في نفوسهم كما تداخلوا من قبل باسم الإنسانية، والعهد ليس ببعيد في مسألة الرقيق وإن كل من نظر إلي أقوال الفرنج ومن ينسجون على منوالهم رآها مزخرفة الظاهر جميلة الحواشي والأركان لماعة براقة تكاد تأخذ بالألباب: ولكن واأسفاه حشوها السم الناقع. ولا نُلام على قولنا هذا، لأننا طالما سالمنا الأفرنج وظننا أن كل ما يصدر منه حق وكل أفعالهم منزهة عن العبث فلما استسلمنا إليهم بهذه الطريقة وقمنا فيما نخافه، فانطمست معالمنا ودَرَسَت آثارنا وغطي الجهل

بصائرنا فأصبحنا على حالة يرثي لها العدو قبل الصديق بعد مجد باذج وعز سابق وعلم قديم، ولو قيل لنا هذا القول في أول تعارفنا بالفرنج لكنا أخذناه كما هو وعملنا به ولربما أصبحت حالة المرأة عندنا كحالة الرجل على ما يبتغيه الفرنج. ولكن يسر الله وأصبحت لنا خبرة بمآرب الافرنج نحو الشرق فلا نسمع منهم قولاً إلا بعد أن نطيل النظر والتنقيب فيه".[62]

([62]) جاء في جريدة المقطم الغراء في عددها الصادر يوم 13 سبتمبر سنة 99 (أي 1899) ضمن مقالة في محلياتها عنوانها "أتدري ما هي فاعلة" ما يعذر هؤلاء المعارضين في اعتقادهم حيث قالت: "وبديهي أن الأمة التي تنفع العالم بقدوتها الحسنة تضرهم بقدوتها السيئة. ولعل أهل الشرق الأدني أعظم الأمم اقتداء بالفرنسويين واقتباساً لأفعالهم وعاداتهم واصطلاحتهم حتى أنك لتري شبانهم أكثر المدن لا يقلون شغفاً وتعلقاً بالفرنسوية وتحيزاً وتحزباً لها من الفرنسويين أنفسهم. فيخاف الشرقي الضرر من عاقبة خطأ الفرنسوي وضلاله قدر ما يرجى النفع من عاقبة أفعاله الحسنة ومبادئه القويمة. ولو بحثنا لوجدنا أن أضراراً كثيرة سرت إلينا من اختلال المبادئ القويمة في فرنسا، مع النفع الذي جنيناه من التشبه بها في مبادئها السامية وأفعالها العظيمة. فانحلال عري العفاف في عاصمة فرنسا، واستخفاف أهل باريس بهذا المبدأ الأدبي وإطلاقهم السراح لشهواتهم أثر تأثيره من الضرر في هذا القطر وغيره من الأقطار الشرقية على وجهين: الواحد اقتداء الذين رُبُوا في باريس أو زاروها بأهل باريس من هذا القبيل فصارت العفة عندهم أمرا حقيراً لا يرعون له حرمة ولا يُجِلّون لصاحبه قدراً. والوجه الآخر توهُّم كثيرين من الشرقيين أن التمدن الحالي يُنتِج في كل مكان ما أنتج في عاصمة الفرنسويين من الفجور وترك العفاف فنفروا منه وممن يستحسنه وكرهوا تعليم بناتهم وتغيير طرق المعيشة مع نسائهم وعائلتهم وقاموا يعنفون النابغين من أبناء هذا القطر كأنهم ارتكبوا وزرا حيث طلبوا للمرأة التحرير يعنون بذلك أن تغير معيشتها العائلية والاجتماعية بعض التغيير". أ. هـ. (من هوامش الأصل).

هذا هو مجمل قولهم وداعية سخطهم وإني أُجِل حضرة الفاضل قاسم بك أمين عن أن يكون له غاية من وضع كتابة خلاف حب الخير والارتقاء لأمته كما هو ظاهر من كلامه على تربية المرأة، فإنه وصف حالتها اليوم أحسن وصف وقال بوجوب تربيتها تربية تهذِّب أخلاقها وتقوِّم نفسها، فلحضرته مزيد الشكر على ذلك، وسيرانا في هذا الكتاب داعين إلي مثل دعوته رافعين صوتنا على دعوتنا تخرق تلك الأذن الصماء فيهتم القوم بأمر هذه التربية وننال ضالتنا التي ننشدها، وهي تحسين حالنا وما ذلك على الله بعزيز. وإننا مع موافقتنا لحضرته على هذا المبدأ نخالفه في غيره فنستمنحه العفو عما يجده خلال بحثنا من المخالفة والمباينة في الرأي والفكر فحضرته حر ولا نخاله إلا يحب كل حر الفكر.

ومما اتخذه خصومه حجة على ممالأته الفرنج ومجاراته لهم على أفكارهم أنه قد سافر بعض الفضلاء من الأتراك إلي أوروبا بقصد السياحة من بضع سنين فلما كان في بلاد الإنكليز وتعرَّف ببعض أدبائهم هناك جرهم الكلام إلي موضوع حالة المرأة المسلمة وهو الموضوع الذي قلَّ أن يخلوَ منه مجلس فيه شرقي ووجهوا إليه أقوالاً واعتراضات وانتقادات هي نفس الاعتراضات التي بنى عليها حضرة مؤلف الكتاب "**تحرير المرأة**" كتابه ويقولون: "**إنه ليس بعجيب في الأمر أن الاعتراضات التي وجهت إلي الفاضل التركي هي التي يوجهها كل الفرنج إلي الشرقيين. بل العجيب أن هذه الاعتراضات هي بعينها التي جاءت في كتاب حضرة قاسم بك أمين ولكنها بعبارة أوسع مع أن ذلك الفاضل التركي كان بأوروبا قبل أن يظهر كتاب "تحرير المرأة" بعد سنوات. وقد طبعت هذه الاعتراضات ضمن رسالة باللغة التركية سنة 1893 أفرنكية بالمطبعة "الجامعة" بمصر باسم "الرحلة الأصمعية". فهل هذا أيضاً من باب "وقوع**

الحافر" أو من "توافق الخواطر" كما كان الأمر في ظهور كتاب "تحرير المرأة" في الوقت الذي ظهرت فيه مقالة انكليزية قيل إنها لأحد "علماء الهند" المسمي القاضي أمير على وترجمت إلي العربية من جريدة إنكليزية في مجلة "المقتطف" يدعو فيها صاحبها إلي مثل ما يدعو إليه صاحب كتاب "تحرير المرأة"؟ – ذلك أمر لا نتعرض له بنفي ولا إثبات بل نكل فيه الحكم للقراء – إنما نقول إن اعتراضات الفرنج على حالة المرأة المسلمة وما هي عليه من التحجب لابد أن تكون قد وُجِّهت لحضرة الفاضل قاسم بك أمين حينما كان يتعلم بأوروبا، ولكن يظهر أن حضرته لم يحفل بها ولم تؤثر عليه أدنى تأثير. يدل على ذلك أقواله ومدافعاته عن حالة آداب المرأة المسلمة واحتجابها في مؤلفة النفيس الذي رد به على كتاب الدوك داركور. ولكن لا ندري أي الأسباب أثر عليه بعد ذلك فحوَّله عن فكره الأول إلي فكر يخالفه بالمرة في كتاب "تحرير المرأة.

ولنكتف الآن بما أوردناه ولنبحث في المرأة ووظيفتها في العالم وفي حقيقة التربية الصحيحة والتعليم الحق اللازمين للبنين والبنات ليصلحوا أن يكونوا يوماً ما أزواجاً فآباء وأمهات وفيما يجب أن يتخلق به النساء ليقمن بوظيفتهن في البيوت أحسن قيام. ثم نتبع ذلك بالكلام على الحجاب أهو شرعي يأمر به الدين ويقضي به العقل أم هو بدعه وعادة سيئة ضرت ضرراً بليغاً بدون أن تنفع؟ ويتخلل هذه الفصول بيان ما نحن عليه الآن من الأدب والتهذيب والتعليم وبيان درجة النقص فيها وطريق إصلاحها بما لا يخل بعوائدها المستحسنة ومبادئ ديننا القويم.

وإنا نقول هنا ما قاله حضرة الأستاذ الشيخ حمزة فتح الله في رسالته: "**باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام**"([63]): "**لا يحسبن قراء هذا الكتاب أنا نريد**

([63]) **وقف حمزة فتح الله في مؤتمر المستشرقين الذي عقد في أستوكهولم عاصمة السويد سنة 1889م يلقي بحثا جديدا في موضوعه، كان بعنوان "باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام" احتفل فيه بإبراز موقف الإسلام من المرأة على نحو قصد به إلى دفع ما يتوهمه كثير من الأوربيين عن النساء في شريعة الإسلام. ومما عرضه في بحثه أن طلب العلم مشترك الوجوب بين الرجال والنساء، وأن تعليم النساء واجب عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة علي كل مسلم ومسلمة"، وبناء على هذا الأصل فقد برع كثير من النساء المسلمات على نحو يثير الدهشة، وقد خصهن بعض العلماء بالتأليف، مثلما فعل ابن عساكر حين خصص مجلدا كبيرا من كتابه تاريخ دمشق لتراجم النساء. فقبل أن يفتح قاسم أمين هذا الباب على النحو الذي اختلطت فيه الحقائق بالأوهام، كان حمزة فتح الله مشغولا بقضية إصلاح أوضاع المرأة المسلمة، بل إنه اختار لطرح هذا الموضوع مؤتمرا دوليا يحضره أساطين العلماء وأئمة الاستشراق في العالم، وهو ما يسم المناقشات التي تدور حول الموضوع بالعلمية والموضوعية دون صخب وجلبة، واستقبل الحاضرون هذه الدراسة التي ألقاها العالم المصري حمزة فتح الله بمزيد من التقدير والإجلال. وقد ولد الشيخ حمزة فتح الله في الإسكندرية سنة 1849، وقد اعتاد المستشرقون آنذاك أن يعقدوا مؤتمرا كل فترة يحضره أئمة الاستشراق وكثير من العلماء والأدباء في بلاد المشرق لمناقشة البحوث العلمية واللغوية وآخر ما توصلوا إليه في الشأن الشرقي، وبدأت أول مؤتمراتهم في باريس سنة 1873، ثم تكرر عقد مثل هذه المؤتمرات، وحرصت مصر على حضورها بداية منذ المؤتمر السابع الذي عقد في فيينا سنة 1886م، وكان الشيخ حمزة فتح الله أول من مثّل مصر في هذا المؤتمر، وللشيخ فتح الله مجموعة من المؤلفات معظمها رسائل صغيرة تدور حول اللغة والأدب والتاريخ والتوحيد والتفسير. وقد وصفه معاصروه بالورع والتقوى، وبأنه يميل إلى الصالحين من المعلمين، ويحارب من يشاع عنهم التهاون في الدين، حفظا للناشئة وحماية لهم من الزيغ والضلال، وظل كذلك حتى وافته**

المنع من تقليد الأجانب فيما يعود علينا بالمنفعة. كلا. فإن ذلك لا تمنعه الشريعة المطهرة. كيف وقد أمر رسول الله صلة الله عليه وسلم بحفر الخندق لما أخبره سلمان الفارسي بأنه من أعمال الكسرويين في حروبهم وشواهد ذلك كثيرة حتى لا نطيل بذكرها".

ونحن عملا بما تأمرنا به شريعتنا المطهرة وتقليدا للأمم الحية في الحث على تهذيب البنين والبنات وتربية نفوسهم نحض على هذه التربية الصحيحة وندعوا إليا جهدنا لعلنا نوفق في الوصول إلى هذه الغاية الشريفة.

ولكي يطابق الاسم مسماه سمينا الكتاب: "**تربية المرأة والحجاب**"، وهو اسم كنا نتمنى أن يجعله حضرة قاسم بك أمين عنوانا لكتابه، فإنه أليق به من اسم "**تحرير المرأة**"، حيث إن المرأة المسلمة بشهادة حضرته قد خولت لها الشريعة السمحة من نحو ثلاثة عشر قرناً حقوقاً وامتيازات لم يحصل زميلاتها الفرنجيات على جزء يسير منها إلا من عهد غير بعيد، وهي الآن قد زادت حريتها عن الحد الشرعي. والله تعالى نسأل أن يهدينا سواء السبيل فيما نقول.

هذا وإنا نرجو المعذرة إذا هفا اليراع هفوة فالغرض مما نقدمه الجوهر لا العرض وجل غرضنا المشاركة في البحث توصلاً إلي الحقيقة التي هي ضالتنا جميعاً فما تزاحمت الظنون على شيء إلا انكشف. وعلى الله الاتكال في كل الأمور ومنه يرجي خير المآل.

المنية في 19 فبراير 1918. (نقلا عن: حمزة فتح الله.. باكورة الكلام عن حقوق النسوان – مقال – أحمد تمام – موقع إسلام أون لاين – http://www.islamonline.net).

obeikandl.com

الباب الأول

المرأة أقل من الرجال إدراكاً وحساً – وظيفتها – إقرار بعض العلماء الافرنج والسيدات أنفسهن بأن المرأة لا يلزم أن تتعدى وظيفتها – هل للمرأة أن تشتغل بأشغال الرجال؟ – ما هي نتائج تحرير المرأة في أوربا؟

المرأة ووظيفتها في المجتمع الإنساني

المرأة أقل من الرجل إدراكاً وحساً: أجمعت كل الشرائع المنزلة على ما سلَّم به الطبع والعقل من أن المرأة أضعف من الرجل وأقل منه في سائر الحيثيات جسماً وإدراكاً وعلى أن الرجال قوامون على النساء دون العكس. لهم عليهن السيادة ولهن منهم حسن المعاملة والرفق والمحبة والاحترام حيث إن الرجل لا يمكنه أن يعيش بدون المرأة ولا المرأة

obeikandl.com

بدون الرجل، لأنه يترتب على تآلفها عمران الكون وتحسين النوع الإنساني وتكثيره وسعادة العالم المؤلف من عائلات وأفراد بسعادتهم يسعدو بشقائهم يشق فقد جاء في التوراة في سفر التكوين بالاصحاح الثالث (عدد 16) أن الله تعالى قال للمرأة : "**تكثيراً أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلي رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك**". وجاء فيه أيضاً أنه تعالى قال للرجل معلقاً به الكد والشقاء : "**بعرق جبينك تأكل خبزك**" وجاء في أعمال الرسل: 1 كورنتوس ص 11 من ع 2: "**ولكن أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح. وأما رأس المرأة فهو الرجل. ورأس المسيح هو الله**".

.....

"**فإن الرجل لا ينبغي أن يغطي رأسه لكونه صورة الله ومجده، وأما المرأة فهي مجد الرجل. لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل. ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل، ولهذا ينبغي أن يكون لها سلطان على رأسها من أجل الملائكة. غير أن الرجل ليس من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل في الرب لأنه كما أن المرأة هي من الرجل هكذا الرجل أيضاً هو بالمرأة**".

وقد قررت الديانة المسيحية ذلك التعليم الإلهي وأمرت المرأة أن تخضع لرجلها وأمرت الرجل أن يتعطف على امرأته وأن يخلص لها الحب، أما الشواهد من القرآن ومن

السنة على كل ما تقدَّم فكثيرة جداً يعلمها حق العلم كل من اطلع عليها، وكلها تثبت خضوع المرأة لسلطان الرجل وهو نظام اقتضته حكمته سبحانه وتعالى.

وحسبنا إثباتاً لما نقول قوله تعالى: "**الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم**"([64]).

وقوله تعالى: "**تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً**"([65]).

وقوله تعالى: "**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة**"([66]).

وقوله صلى الله عليه وسلم: "**لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**".

وقوله عليه السلام: "**اتقوا الله في الضعيفين: المرأة واليتيم**".

وقوله صلى الله عليه وسلم: "**خيركم خيركم لنسائه وبناته. وأكمل المؤمنين أحسنهم خلقاً مع زوجته. وكلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وولده وهو مسئول عنهم والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسئولة عنه**".

([64]) **سورة النساء 34.**

([65]) **سورة النساء 34.**

([66]) **سورة البقرة 228.**

وقوله صلوات الله عليه: "**استوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عندكم وديعة لا يملكن لأنفسهن ضرا ولا نفعاً وإنما هن كأسري بين أيديكم وإنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتموهن بكلمات الله فعاشروهن بالمعروف ولا تظلموهن وقوموا بحقهن... إلخ**".

والشواهد الحسية والعقلية على ضعف المرأة كثيرة جداً كلها مؤيدة لما سبق نورد منها ما ذكره حضرة فريد أفندي وجدي([67]) ضمن مقالة عنوانها: "**نظرة في تحرير المرأة**" نشرت في جريدة "**المؤيد**" الغراء بعدديها الصادرين في 30 سبتمبر وأول أكتوبر سنة 1899. قال: "**المرأة مساوية للرجل في سائر الحيثيات؟؟ فالجواب لا**".

"**وهل لدينا دليل حسي على هذا الجواب السلبي أصدق من وجود المرأة من ابتداء الخليقة للآن تحت سيطرة الرجل يوجهها كيف يشاء ويحكم عليها بما تقضي أمياله([68])؟؟**"

([67]) **محمد فريد وجدي: (1878 – 1954) كاتب إسلامي مصري الجنسية من أصول شركسية ولد بالإسكندرية بمصر سنة 1878م (1295 هـ) وتوفي بالقاهرة سنة 1954م (1373 هـ). عمل على تحرير مجلة الأزهر لسنوات، وله العديد من المؤلفات ذات طابع ديني ووثائقي، أولها: "المدنية والإسلام" (ألفه بالفرنسية وهو ابن عشرين عاما ثم ترجم للعربية) ومن أهمها: "دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)" (10 مجلدات). ولم يقتصر نشاطه على الدين فحسب ولكن كان له نشاط سياسي واضح. وله كتاب ألفه بغرض الرد على أفكار قاسم أمين هو: "المرأة المسلمة".**

([68]) **أمياله: ميوله.**

إذا كانت المرأة مساوية للرجل من الجهتين الجسمية والعقلية فلماذا رضخت([69]) كل هذه الألوف المؤلفة من الأعوام لسلطان الرجل وجبروته؟ لاشك أنا إذا لاحظنا ناموس الغلبة والقهر الذي مؤداه أن القوي يغلب الضعيف، ويأسره علمنا جيداً أن المرأة لا تساوي الرجل في جميع المواهب الطبيعية إذ لو ساوته فيها لحدثنا التاريخ بأخبار التدافع بين هذين الجنسين شأن كل عاملين متساويي القوة في هذا الوجود. ولكن الأمر بالعكس فإن المرأة ظلت راضخة([70]) لنير الرجل ولم تنل ما نالته من حريتها في أوروبا إلا بسعي الرجل نفسه ورضاه بتخفيف الوطأة عنها كما هو شأن القوي إذا أراد أن يخفف عن الضعيف المقهور له شيئاً من أثقاله.

إذا أسلمنا بهذا، ولا مناص من التسليم به لأنه عين الواقع وجب علينا أن نبحث لنتبين كنه([71]) التفاضل بين الرجل والمرأة لندرك سر انغلابها له ورضاها بسيطرته كل تلك المدة المستطيلة فنقول:

"هل الرجل أقوي من المرأة جسماً ؟؟ الجواب نعم".

([69]) المقصود هنا أذعنت والصواب لأن يقال: خضعت، واستعمال "رضخت" في هذا المقام خطأ شائع.

([70]) هذه الكلمة بهذا الاستخدام في هذا السياق خطأ شائع، والأصح أن يقول "خاضعة"، فالرضخ لغة كما جاء في لسان العرب: كَسرُ الرأْس وما نحوه.

([71]) جاء في "لسان العرب" أن كُنه كلِّ شيءٍ قَدْرُه ونهايتُه وغايَتُه.

وهـذه حقيقـة لا مريـة فيهـا البتـة. ولـو سـلمنا جـدلاً أن ضـعفها ناشـيء مـن استكانتها للرجل الذي كثيراً ما حملها ويحملها أحكام عوائده وتقاليده المضرة بصحتها فإن أقل نظرة لحالتها الطبيعية من حيث لوازم الأنوثة وعوارضها ومن حيث الحمل والوضع والارضاع واستغراق عواطفها في الهيمنة على أطفالها وهي الأمور التي ويخلو منها الرجل بالمرة – قلنا أقل نظرة في حالتها هذه التي يعدها الفسيولوجيون أمراضاً – تكفي لأن نحكم بأنها أقل من الرجل قوة ونشاطاً.

على أنَّا لا نسلِّم مطلقاً كما قلنا بأن المرأة لو ألقي حبلها على غاربها وتحررت من كل قيد يمكنها أن تلحق شأو([72]) الرجل قوة وشدة. وإلا فهذه أناثي الحيونات كلها تدلنا حالتها الحيوية دلالة صريحة على أن الخالق جل شأنه خلق الإناث أضعف من الذكور في كل الأنواع الحية لحكمة بالغة ومقصد عظيم. لكن إثباتاً بأن الرجل أقوي من المرأة جسماً لا يفسر لنا خضوعها في سائر أدوارها فإن القوة العضلية بمفردها لا تكفي للسيطرة والغلبة في العالم الإنساني وإلا لتغلبت الوحوش على نوعنا الضعيف وأجلته عن الوجود من زمان مديد. فإن كثيراً من أنواعها أشد منه قوة وأقوي عضلا. ومع ذلك تغلَّب عليها وقهرها بقوة فكره وسعة إدراكه. إذن علينا أن ننظر في هذه النقطة إلي وجهة أخرى فنقول: "**هل المرأة أضعف من الرجل إدراكاً؟**"

نقول نعم. وأحوال الشعوب الحاضرة والغابرة تؤيد هذا القول بالشواهد العيانية فإن كل الأعمال الاختراعية والاكتشافات العلمية التي بنيت عليها الإنسانية صدرت من

([72]) **جاء في "الصحاح في اللغة": الشأو: الغاية والأمَد.**

الرجل دون غيره اللهم إلا بعض أمور صغيرة تمت على يد المرأة في العصور المتأخرة، ولكنها غير ذات أهمية ولو جمع الملايين منها لما وازت فوائدها ما أحدثته الآله البخارية من التأثير العظيم في أحوال المدنية.

يقول قائل نسلم لك ذلك لأنه عين الواقع، ولكن لا تنس أنه نتيجة ظلمها وحرمانها من تغذية قوتها الإدراكية بالعلوم والمعارف التي تهيئ الإنسان للإشراف على دقائق الأمور واستدرار منافعها. فنجيبه بأن حالة المرأة نفسها تعارض هذا القول على خط مستقيم. فإنَّا نعلم أن نمو المدركة الإنسانية كما يتوقف على الدراسة لمبادئ العلوم الأساسية كذلك يستلزم العمل بها وإجهاد النفس في تنميتها واستزادة مادتها وهو الأمر الذي لا يتأتى إلا بالانقطاع لها أو على الأقل بالتعرض لمناشئها. وبالتأمل في حالة الرجل والمرأة من هذه الحيثية نجد أن الأول بحكم الطبيعة متعرض لنفحاتها في كل أدوار حياته فهو من المدرسة إلي مكابدة العمل ثم إلي التعامل بين الناس سواء بالزراعة أو الصناعة والتجارة وكلها مناشيء لتربية المدارك وتوسيع نطاق المَلَكَات. بخلاف المرأة فإن الوظيفة التي نيطت بها من الحمل إلي الوضع إلي الإرضاع إلي التربية مع تدبير البيت تجبرها أن تصرف معظم حياتها في الابتعاد عن مصادر التغذية الفكرية. وبناءً على هذا يستحيل عليها أن تبلغ شأو الرجل في سعة الإدراك حتى ولو سلمنا (ولو أن ذلك مناف لأبحاث الفسيولوجيين)([73]) أن استعداد الجنسين لقبول المعلومات بدرجة واحدة. ولا يغرنا ما

([73]) **علم الفسيولوجيا أحد الفروع الهامة لعلم البيولوجي (الحياة) الذي يهتم بدراسة ظاهرة الحياة في الكائنات الحية بصورة عامة.**

نسمعه عن بعض النابغات بأوروبا وأمريكا في العلوم الطبيعية والفلكية فإنهن فضلاً عن كونهن لم يبلغن شأو الرجال فيها على الإطلاق جانيات على هيأتهن الاجتماعية بعدم إرادتهن الزواج إلا بعد أن يشارفن سن الهِرَم([74]) تقريباً. وبذلك فهن باشتغالهن بما لا ينفع وطنهن بشيء يذكر يحرمنه مما يطالبهن به من الذرية الصالحة منهن لو تركت أشغالها الفلكية مثلا العديمة الجدوي ورضخت لحكم طبيعتها فتزوجت وهي شابة لاستطاعت أن تهدي الجمعية بخمسة علماء من ذريتها يستطيع الواحد منهم أن يؤدي أضعاف أعمالها مما يكون له أثر يشكر. نعم. إن عالمات العالم المتمدن جانيات في نظر علماء العمران لابتعادهن عن الوظيفة الحيوية التي خلقهن لها الخالق عز وجل. فقد ثبت بالإحصاء أن المرأة العالمة لا تتزوج قبل أن يبلغ سنها الخامسة والأربعين كما روته مجلة المجلات الفرنساوية. فقل لي بأبيك ما ذا ينتظر منها من النسل بعد هذا السن وهل يستفيد الوطن من أبحاثها في علم الطبيعة أو السياسة أو التشريع مثلا بقدر بقدر ما يخسره من حرمانها إياه من ذريتها التي ربما نبغ فيها فيلسوف مثل جول سيمون أو طبيعي مثل هكسلي أو عمراني مثل سبنسر ممن يفيدون الإنسانية فوائد حقيقة؟ هذه الحالة يشكو منها الغربيون أنفسهم ويعدونها تداخلاً من المرأة في غير شأنها واشتغالاً بغير ما هو مطلوب منها مما يبعد بها عن لوازم جنسها وقد لاحظ ذلك الفيلسوف جول سيمون فقال ما معناه: إني لا أسر إذا كانت امرأتي دكتورة فإني أود أن تكون المرأة مرأة وما ذلك إلا لعلمه أنها

([74]) جاء في "لسان العرب" أن الهرم أقْصى الكِبَر.

بدكتوريتها في التشريع مثلا لا تستطيع أن تجمع بين دقائق القوانين ودقائق علم التربية الذي يطلب منها ويعتمد فيه عليها.

نتيجة ما تقدَّم:

يظهر لنا من كل ما تقدَّم – وليس بعد الحس دليل – أن المرأة أضعف من الرجل جسماً وإدراكاً. أما جسماً فلكونها مُعرَّضة للوازم الأنوثة، وهي كما أثبتنا أمراض تهد القوى وتضعف البنية بشهادة الأطباء. وأما إدراكاً فلكونها بحكم وظيفتها من تدبير المنزل وتربية أطفالها والتحفظ عليهم غير مُعرَّضة مثل الرجل لمناشيء تنمية القوة الإدراكية، فتكون النتيجة اللازمة لكل هذه المقدمات أن المرأة لا تساوي الرجل في كل حيثية إنسانية، وبناء على هذا – ومع ملاحظ ناموس التغلب – يجب أن يكون الرجل صاحب السيطرة المطلقة عليها إذ لا سبيل لمعارضة أحكام الطبيعة بالأقاويل. ولكن ذلك كله لا يمنع من مطالبة الرجل بالاعتدال في تلك السيطرة وإعطاء المرأة حقوقها في حدودها المعتدلة الحقة لا في إلقاء حبلها على غاربها وتركها وشأنها تحت مؤثرات الحياة المدنية التي كثيراً ما فتنت العبَّاد الزهاد فضلاً عن ربات القلائد والنضاد. أ. هـ.

وظيفة المرأة:

ظهر من ذلك أن للمرأة أعمالاً غير ما للرجل ليست بالأقل أهمية من أعماله ولا بالأدنى منها فائدة وهي تستغرق معظم زمن المرأة إن لم نقل كله: الرجل يسعى ويشقى ويكد ويتعب ويشتغل ليحصل على رزقه ورزق عياله. وإمرأته ترتب له بيته وتنظف له فرشه وتجهز له أكله وتربي له أولاده وتلاحظ له خدمة وتحفظ عينه من المحارم. وهو

يسكن إليها الخ. الخ... قال بعضهم. "**وقع خالد بن يزيد بن معاوية يوماً في عبد الله بن الزبير يصفه بالبخل وزوجته رملة بنت الزبير أخت عبد الله حاضرة فأطرقت ولم تتكلم بكلمة مع زوجها فقال لها خالد مالك لا تتكلمين؟ أرضا بما قلته أم تنزُّها([75]) عن جوابي؟ فقالت لا هذا ولا ذاك ولكن المرأة لم تخلق للدخول بين الرجال وإنما نحن رياحين للشم والضم فما لنا والدخول بينكم....**".

وروي عن أسماء بنت زيد الأنصاري رضي الله عنها أنها أتت للنبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقالت: "يا رسول الله أني وافدة النساء إليك. إن الله بعثك بالحق للرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك وإنّا معاشر النساء محصورات قواعد في بيوتكم مقضى شهواتكم وحاملات أولادكم وإنكم معاشر الرجال فُضِلتم علينا بالجمعة والجماعة وعيادة المرضي وشهادة الجنائز، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله تعالى، وأن الرجل منكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مرابطاً حفظناً لكم أموالكم وغسلنا لكم أثوابكم وربينا لكم أولادكم أفما نشارككم في الأجر يا رسول الله؟" فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلي أصحابه بوجهه الكريم ثم قال: هل مقالة إمرأة أحسن من هذه عن أمر دينها؟ فقالوا يا رسول الله ما ظننا إمرأة تهدى إلي مثل هذا فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إليها ثم قال: "انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك أن كل شيء حسن تفعله إحداكن لزوجها طلباً لمرضاته وابتغائها موافقته يعدل ذلك كله". فأدبرت المرأة وهي تهلل وتكبر استبشاراً".

([75]) **تَنزُّها: تَرفُّعا وتعاليا.**

وقيل إن رجلاً جاء إلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو إليه سوء خلق زوجته فوقف ببابه ينتظره فسمع الرجل إمرأة عمر رضي الله عنه وهي تُغلِظ عليه بالقول وهو ساكت لا يرد عليها فانصرف الرجل وهو يقول إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي! فلما خرج عمر رأي الرجل موليا فناداه ما حاجتك؟ فقال له سبب مجيئه وما سمع. فقال عمر: "**يا أخي إني أتحملها لحقوق لها على: إنها طباخة لطعامي خبازة لخبزي غسالة لثيابي مرضعة لولدي ويسكن قلبي بها عن الحرام**"، فقال له الرجل: "**يا أمير المؤمنين وأنا أتحمل زوجتي**".

أليس معني ذلك أن الله خلق المرأة للرجل للملاذ الدنيوية وحفظ الشؤون المنزلية وأنه لم يخلق النساء لمغالبة الرجال ولا للآراء والسياسات، ولو شاء الله لأعطاهن الشجاعة والبسالة والفتوة والشهامة مع أن الأمر بخلاف ذلك. ولو أرادت المرأة أن تسلك مسالك الرجال وتتعود على تحمل ثقيل الأحمال لتساوي الرجل في جميع أحواله وتضاهيه في أقواله وأفعاله أفلا يكون ذلك منها خروجاً عن الوظيفة التي خصصها بها الله سبحانه وتعالى؟ لأنه كما أن نظام الكون وسعادته قصياً بأن يخلق الناس أطواراً، وبأن يكون لكل منهم وظيفة مخصوصة ينقطع لها فيتقنها: فطائفة للسيادة، وطائفة للسياسة، وطائفة للعلم، وأخرى للبأس والنجدة، كذلك أراد الله أن يكون لكل من صنفي بني الإنسان: "**المرأة والرجل**" عمل مخصوص لا يتعداه وإلا حصل الخلط والتشويش. وبمجموع عمليهما تتم السعادة لكليهما.

ولا يظن ظانٌ أن هذا التقسيم في الأعمال تحكُّم من الرجال وأن المرأة قابلة للقيام بكل عمل منزلي أو غير منزلي لا فرق بينها وبين الرجل، لأنَّا إذا قطعنا النظر عن الإنسان ورجعنا إلي أنواع الحيوانات الأخرى التي لا تصنُّع عندها ولا تحكُّم لوجدنا أن الذكور منها أقوي بطشاً وأشد بأساً وأقدر على العمل وأصبر على المشاق. وتأمَّل في الطيور التي تطير جماعات وتسبح في البحار زرافات تجدها تسير تحت قيادة الذكور وتنام تحت حراستها وتنضوي تحت حمايتها وتجد الفرق بين الصنفين ظاهراً في الرواء والحسن والبنية والقوة. وإذا أمعنت النظر في الحيوانات تجدها إما بيوضاً وإما ولودا فالبيوض منها تقضي المدد الطوال في تحمُّل البيضة ثم وضعها في ركنة أو عش ثم احتضانها حتى تفرخ ثم تَعهُّد فرخها الصغير وجلب الأقوات له حتي يقوي على الطيران والتحصيل. والولود منها تقضي زمنا أطول من ذلك في الحمل والفصال والرضاع والتعهد والمدافعة بحيث يشغلها ذلك عن كل شاغل.

ثم ارجع إلي الإنسان تجد هذا الفرق بذاته وتحكم أن المرأة كغيرها من إناث الحيوان تحتاج لأن تقضي مدة من الزمان في الحمل والوحم والولادة والرضاع وتعهد الطفل حتى يترعرع وينمو ثم بعد ذلك لا تخرج من العهدة بل تشارك زوجها في تربيته وتعويده على العوائد والأعمال المطلوبة.

وهي في كل ذلك لا ينبغي أن تكون مشغولة بغير ذلك من الأعمال الخارجية كالوظائف والصنائع الشاقة والزراعة والجندية لأن أعمالها السالفة الذكر تحتاج إلي السكون والاطمئنان وراحة الفكر. فقد ظهر لك أن الطبيعة التي فطر الله الناس عليها جعلت المرأة في حيز مخصوص وحددت لها أعمالاً لا يمكن أن تكون للذكر فإذا حاول

محاولة تسوية المرأة بالرجل من كل الوجوه يكون قد حاول خرق سياج وتبديل السنة الفطرية: "**ولن تجد لسنة الله تبديلاً**"([76]).

ولقد حصلت في أحد المجامع مناقشة بين عدة من فتيان وفتيات فأخذت فتاة تخطب في أن الرجال هاضمون حقوق النساء ولماذا لا تدخل المرأة في الوظائف العامة؟ ولم لا يكون من النساء وزيرات ومديرات وقاضيات ونائبات؟ ولم لا يشتغل الرجال ببعض الأمور المنزلية؟ فقال لها فتي من الحاضرين نحن مستعدون لتسليمكن كل هذه الوظائف ولكن على شرط أن تقمن بأعمال الجنود من حفر خنادق وبناء استحكامات ومكافحة وقت اشتغال نار الوغى واستخراج فحم ومعادن من المناجم ومباشرة حرث وزراعة الغيطان وبناء جسور على الأنهر وحفر ترع وغدران. فقالت الفتاة: في الإمكان أن نقوم بهذه الأعمال إذا لم نتزوج ونحمل ونلد. فقال: إذا كان غرضكن أخذ هذه الوظائف مدة ثم قيام الساعة بعدها فانتظرن آخر الزمان!!. ولقد أيدت لنا ذلك المشاهدات الحسية فقد قرأنا في مجلة: "**أنيس الجليس**" الصادرة في 30 سبتمبر سنة 99([77]) أن عدد النساء المشتغلات في الولايات المتحدة بالفنون الجميلة والآداب قد زاد من سنة 70 إلي العام الماضي زيادة فاحشة وأردفت ذلك بقولها: "**ولكن يظهر أنه كلما أمعنت المرأة في التوسع بالفنون والعلوم زاد الرجل في طلاقها وكان أكثر ذلك في الولايات المتحدة فإن الطلاق يمتد فيها إلي حد غريب غير موجود في هذه البلاد الإسلامية وسواها**".

([76]) **سورة الأحزاب: 62.**

([77]) **أي 1899.**

هذا ولقد أثبت علماء العمران أن توزيع الأعمال أقوي معارج التقدم والمدينة فإذا اشتغل بأعمال كان من وراء ذلك التقدم والنجاح. وناهيك بالفساد الذي نراه من الرجال الذين يتشبهون بالنساء والنساء اللاتي يتشبهن بالرجال. ولقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا الاثنين وروي عن عمار بن ياسر عن النبي عليه الصلاة والسلام: "**ثلاثة لا يدخلون الجنة: الديوث والمترجلة من النساء ومدمن الخمر**"، وفسر المترجلة بالتي تتشبَّه بالرجال.

وقد قضت الشريعة الإسلامية الغراء وقوانين غالب الممالك بقصر السلطنة والقضاء والإمامة على الرجال دون النساء.. وليس عدم استخلاف النساء وتقليدهن هذه المناصب لعدم وجود من يصلح لذلك فقد قال عروة بن الزبير لذكوان: "**لو طابت إمرة لإمرأة بعد النبوة لاستحقت عائشة الخلافة**"، إذا لماذا ذلك وكلنا نسلم أن الشريعة السمحة لم تأت حكماً عبثا بل لابد لكل مبدأ قررته من حكمة مقبولة معقولة؟ أليس ذلك لكون النساء يوصفن بالنقص عن الرجل في مهمات الأمور الحسية والمعنوية؟ على أن من تقلَّد منهن الملك في الممالك المبيحة لذلك وأفلح فلم يكمل له الفلاح. وإذا كمل له فهو من النادر الذي لا حكم له ومع ذلك يكون معظم الفضل إن لم يكن كله للرجال الذين يدبرون الملك في عهدهن.

هذا وقد أجمع علماء التوحيد على أن الله سبحانه وتعالى لم يبعث نبياً من النساء مع كونه بعث مالا يحصي من الذكور: "**منهم من قصصنا عليك ومنهم من لن نقصص**

عليك"([78]) فإذا كان الله سبحانه وتعالى جعل تدبير أمور الجمهور وتنظيم الشرائع والقوانين والوساطة بينه وبين عباده بيد الرجال لم يجعل للنساء في ذلك نصيباً فأي إمرأة تقصد بعد ذلك أن تتعدي طورها وأي رجل يريد أن يساعدها على ذلك يكونان قد اعترضا على حكمة الباري وخالفا شرائع السماوية ومن لم يعتد بالشرائع السماوية فلا كلام لنا معه ولا جدال.

([78]) **سورة غافر: 78.**

opeikandl.com

إقرار بعض علماء الافرنج والسيدات أنفسهن بأن المرأة لا يلزم أن تتعدى وظيفتها

وهذا هو رأي كثيرين من علماء أوروبا كما علمنا مما سبق إيراده ونزيد عليه ما يأتي:

كتب العلامة الشهير والفيلسوف العمراني طائر الصيت جول سيمون – الذي عدَّد مآثره امبراطور ألمانيا على رؤوس الأشهاد – مقالة في مجلة العلماء عن المرأة الأوروبية وسوء تأثير التربية الإفراطية عليها وعلى مجتمعها برهن فيها على أن الحقوق التي تنتحلها المرأة المتمدنة لنفسها خروج عن الحد وغلو نتيجته وخيمة للغاية وشدَّد النكير كثيرا على اشتغال النساء خارج بيوتهن ومزاحمتهن للرجال في الأعمال عاداً([79]) ذلك مُقوِّضاً([80]) لبناء المدنية مُفسداً للنظامات العائلية واستطرد في الكلام إلي أن قال: "**المرأة التي تشتغل خارج بيتها تؤدي في الحقيقة عمل عامل بسيط ولكنها لا تؤدي عمل إمرأة**"، ثم قال: "**النساء قد صرن الآن نساجات وطباعات إلخ وقد استخدمتهن**

([79]) **أي معتبرا ذلك.**

([80]) **التقويض في "القاموس المحيط": نَقْضٌ من غيرِ هَدْمٍ.**

الحكومة في معاملها. وبهذا فقد اكتسبن بعض دريهمات ولكنهن في مقابلة ذلك قد قوضن دعائم عائلاتهن تقويضاً. نعم إن الرجل قد صار يستفيد من أجرة إمرأته ولكن بإزاء ذلك قد قلَّ مكسبه لمزاحمتها له في عمله"، ثم قال: "**وهناك نساء أرقي من هؤلاء يشتغلن بمسك الدفاتر وفي محلات التجارات ويستخدمن في الحكومة كمعلمات وبينهن عدد عديد في التلغرافات والبوستة والسكك الحديدة وبنك فرنسا والكريدي ليونيه ولكن هذه الوظائف قد سلختهن من عائلاتهن سلخاً**". ثم أطنب في مضار ذلك وختم فصله بقوله: "**يقول بعض الفلاسفة إن الحياة محفوفة بالمكاره ولكنهم ربما قالوا ذلك لأنهم لم يذوقوا طعم الحب طول عمرهم. أما أنا فأقول: إن الحياة طيبة هنيئة بشرط أن يلزم كل من الرجل والمرأة المحل الذي خصصه الله تعالى لكل منهما**". أ. هـ.

هذا ما قاله ذلك الفيلسوف وقد عرفنا من هو فلا يصح أن نضرب بقوله عرض الحائط. ولنلتفت الآن إلي ما قاله مستر "**لوسن**" الكاتب الأمريكي الشهير في "**مجلة المجلات**" التي هي أشهر مجلات العلم في العالم (مجلد 25) عن المرأة الأمريكية وما آل إليه أمرها: وصف هذا الكاتب الحر المرأة الأمريكية وصف رجل لا يغره الظاهر المُموَّه ولا تغشه "**خضراء الدمن**" مما يجب على الشرقي أن يتدبر فيه ويستفيد منه ليتخذه عبرة تزعه عن التقليد عن غير روية: قال جنابه بعد الكلام طويل: "**أما المنزل فيثير لهن ضجراً لا يستطعن إخفاءه لأنهن في الحقيقة لا يردن أن يكن ربات عائلات بل يردن أن يكتفين بأنفسهن مع أنهن لا يستطعن أن يفقدن كثيراً من الزمن لا في**

الخياطة ولا في المطبخ"، ثم قال: "**فالمرأة الأمريكية لا تقرأ ولا تحفظ بل ولا تفتكر في شيء كما يجب: أما معظم شغلها الشاغل فهو التزين والتبرج فتراها تعتمد على ظرافتها وجمالها لكي تسلب فؤاد حامل الدولارات "الريالات" الذي يعطيها الحق في أن تصرف كما تشاء لتبل أوام ما بها من البذخ والترف**". ثم قال بعد أن سرد لها مساويء كثيرة: "**هذه الحالة النفسية شديدة التهديد لمستقبل العنصر الأميريكي قد وصفتها بدون غلو ولا تقصير حيث لم أكتم شيئاً مما يتعلق باستعصاء هذا الداء الدوي**". أ. هـ. ملخصاً من مقالة لحضرة فريد أفندي وجدي نشرت بـ "**المؤيد**" الأغر بعنوان: "**نصيحة للباحثين في تهذيب المرأة**".

هذا وقد نقلت إلينا جريدة **الأهرام** الغراء في عددها الصادر في يوم 19 سبتمبر سنة 1899 من مقالة افتتاحية عنوانها: "**المتكلنزون وحكم إنكليزي عليهم**" خطبة لذلك الإنكليزي وهو الفيلسوف الشهير المستر "**بضلي**" اختتمها بذمه انتشار مذهب حقوق النساء السياسية في إنكلترا ونصح لفرنسا أن تتجنب هذا الخطر. وفهم بعض السيدات الإنكليزيات أنفسهن أن وراء مذهب حقوق النساء ما وراءه من الخطر على المجتمع الإنساني، فقامت من بينهم العالمة "**مس فرنسيس لو**" وناهيك بالمرأة الانكليزية علما وتربية ونشرت في مجلة **القرن التاسع عشر** رسالة اختتمتها بما يأتي كما عربتها لنا جريدة الاهرام الغراء في عددها الصادر يوم 9 سبتمبر سنة 1899، قالت بعد أن ذكرت أعمال المؤتمر الذي عقده بعض النساء بلوندرة في هذا العام:

"إن مؤتمرا كالذي تَقدَّم ذكره يؤدي إلي زرع العداوة والبغضاء بين الجنسين اللذين يتألف منهما النوع الانساني لأن كلا منهما قد وهبه الخالق عز وجل صفات ومزايا خاصة تُمكِّنه من القيام بالعمل الذي أرصدته([81]) له الطبيعة على مبدأ التعاون والتناصر فلذلك كان كل مسعي إلي تحقيق سعادة أحدهما دون النظر إلي سعادة النوع كله سعيا خبيثا يؤيده رأي فائل([82]) وأمل باطل. وكأن المؤتمر بذلك يدل على ضيق مداركه وخطل آرائه وقلة فطنته لأنه يسعي إلي خلط النابل بالحابل وتشويش نظام الجمعية البشرية كلها وقلب شرائعها الإلهية وقوانينها المدنية الإنسانية رأساً على عقب: وما كان أحراه أن لا يلتئم له شمل إذا كانت هذه هي الغاية التي يسعي إليها والمبادئ التي يعول عليها..." أ. هـ.

وإتماما للفائدة نورد هنا أيضاً ما كتبه في هذا الموضوع حضرة فريد أفندي وجدي ضمن مقالته السالفة الذكر قال: **هل للمرأة أن تشتغل بأشغال الرجال؟:**

"نحن إذا عرفنا حقيقة المرأة أنها ذلك الكائن الإنساني الذي أعدته العناية الإلهية لحفظ النوع البشري واستدامته ووهبته سائر الخصائص والمواهب التي يقوم بها على أداء هذه الخدمة. ثم أدركنا جيداً أن هذه الخدمة لأجل أن تؤدي كما يجب تستغرق جُلَّ أوقات المرأة علمنا بدون أدني شبهة أن المرأة لم تخلق لتتعاطى أشغالا خارج بيتها الذي يأوي إليه صغارها المحتاجون في كل لحظة للعناية

([81]) أرصدته: أعدته.

([82]) الفائل في "لسان العرب": صاحب الفراسة الذي يظن ويخطيء.

والملاحظة. ثم تحققنا تبعا لذلك أن إلقاء المرأة بنفسها في معترك الحياة الخارجية هو تعدٍّ منها لحدودها الطبيعية ويحب أخذ جميع الوسائل الفعالة دون انتشار ذلك التعدي بالطرق الحكمية الحافظة لسعادة الهيئة الاجتماعية. هنا يمكن أن يعترض علينا المعترضون قائلين: ألم تر تلك الشعوب الإفريقية والأسيوية مثلا كيف تشتغل النساء مع الرجال كتفا لكتف ولولا ذلك لما استقام لسكان تلك البلاد معيشة؟ نقول نعم كل ذلك صحيح وهو مظهر من مظاهر أسر الرجل للمرأة وأثر من آثار حرمانه إياها من حقوقها الطبيعية شأن القوي مع الضعيف. ونحن في مجال لا يجوز لنا أن نتخذ حال الهمجية دليلاً على نظرياتنا العمرانية ولو دقَّق المعترضون النظر لرأوا أن السبب الرئيسي([83]) لتأخُّر تلك الشعوب في ميادين المدنية هو اشتغال المرأة بغير وظيفتها وإلزام الرجل لها بترك أولادها تحت رحمة الصدف والمقتضيات الطبيعية وهي غير كافية لإبلاغ الإنسان كماله المرجو له والذي خُلِق لأجله ولذلك فإن جهابذة علماء العمران يعتبرون طروّ([84]) عادة الاسترقاق على ما بها من فظاعة مبدأ من مبادئ الرق البشري لأن حدوثه خفَّف عن عاتق المرأة أثقالها ووهبها من الدعة والراحة ما يسمح لها بتنمية قوتها العقلية وتربية أولادها نوعا ما. هذه حقيقة عمرانية يمكن الاصطلاح عليها في كتب علم الاجتماع البشري. إذن لم يبق علينا

([83]) خطأ شائع والصواب: الرئيس.

([84]) جاء في "لسان العرب": الطَّرَا ما يُكَثَّرُ به عَدَدُ الشيء، والمقصود انتشار الرق وكثرته.

الآن إلا أن نثبت أن الحياة المدنية تنافي تعاطي النساء أشغال الرجال. وهل لدينا دليل أصدق من الاستناد على مشاهدات علماء العمران في هذا الشأن:

قال الأستاذ "فريرو" البحاث في أحوال الإنسان وتطوراته! إنه يوجد في انجلتره كثير من النساء اللواتي يتعاطين أشغال الرجال ويتركن الزواج بالمرة وأولاء يصح تسميتهن بالجنس الثالث أي أنهن لسن برجال ولا بنساء لمنافاتهن للأول طبيعة وتركيبا وللأخريات وظائف وأعمالا. وقد درس هذا الاستاذ أحوالهن درساً مدققا فوجد أنهن بتركهن الزواج وانتزاعهم أنفسهن من وظائفهن الطبيعية كالأمومة وما يتبعها قد تغيرت احساساتهن عن احساسات بنات جنسهن وصرن في حالة من الكآبة تشبه أعراض الماليخوليا. فكأن الفطرة البشرية تقيم عليهن الحجة على إغفالهن حقوقهن. ثم قال: "وقد ابتدأ علماء العمران يشعرون بوخامة عاقبة هذا الأمر المنافي للسنن الطبيعية فإن هاته النسوة بمزاحمتهن للرجال صار بعضهن عالة على الجمعية لا يجدن ما يشتغلن به ولو تمادى الحال على هذا المنوال لنشأ منه خلل اجتماعي عظيم الشأن." هذا موجز ما كتبه ذلك الأستاذ ومنه يتضح للقاريء اللبيب وجوب الحذر من تمهيد السبل أمام النساء لتعاطي أشغال الرجال بالوسائل العادلة الكافلة لراحة الجنسين وليس ذلك بالعزيز علينا لو وقفت بعضنا نفسه كما هو حاصل في أوروبا على درس دقائق علم وارشاد الحكومات لما يرونه أضمن لحفظ أجزاء الهيئة الاجتماعية". أ. هـ.

إذا تَقرَّر ذلك وعُلِم أن المرأة أضعف من الرجل وأن الرجل راعيها، وأن لها عملاً مخصوصاً محدوداً لا يصح أن تتعداه، فكيف يطلب منا أن نسوي بين من لم يسو الله بينهما ونخالف حكمته؟ أليس الله هو كذلك الذي جعل شهادة الرجل الواحد تعدل شهادة امرأتين؟ وليت شعري ماذا يقول الشرقي المسلم بعد أن يتدبر أقوال علماء العمران السالفي الذكر: أيصح أن يصر على فكره الأول من ضرورة احتذاء المرأة الشرقية شاكلة المرأة الغربية أم يلزمه أن يتخذ هذه الأقوال عبرة ويجعلها وأمثالها نصب عينيه لنتمكن من وضع قاعدة حكيمة لتربية نسائنا على موجبها كي ينتجن النتيجة التي ينتظرها ومنهن كل محب لبلاده وجامعته الملية. وديننا فيه والحمد لله الكفاية للحصول على ذلك كما تري في الباب الثاني من هذا الكتاب. وإذا كنا نريد بالنساء المسلمات خيراً حقيقة ورفقاً فما علينا إلا أن نتبع ما جاء في كتاب الله العزيز وفي أحاديث نبيه الهادي إلي الطريق المستقيم فإنهما مع هذا الفرق بين الرجل والمرأة في التركيب الطبيعي وفي الطبائع والحقوق ومع تقسيم العمل والوظائف بينهما قد حثا على حسن معاملة النساء والرفق بهن والاستيصاء بهن خيراً بآيات وأحاديث مسطورة في كتب السنة المعتمدة. وكما جعل الله سبحانه وتعالى حقوقاً للرجل على المرأة طالب الرجل بما لا يقل عن تلك الحقوق بالنسبة لامرأته كما هو معلوم أيضاً لتتوفر أسباب السعادة والوفاق بينهما.

على أن من أنصف سلَّم بأن المرأة عند أغلب المسلمين الآن وقبل الآن هي صاحبة الأمر والنهي في بيت زوجها والقول قولها. وكم من رجل لا يمكنه أن يبدي أي رأي أو يعمل أي عمل إلا بعد أن يشاور زوجته وإن يكن في قلبه من مشوراتها حسرات

وغصص لجهالته المترتب عليها طبعاً جهالتها. ولنختم هذا الباب بذكر ما نتج عن تحرير المرأة في أوروبا ليتحقق لذي عينين إن كان يليق بنا أن نقتدي بالأوروبيين في ذلك أم لا:

ما هي نتائج تحرير المرأة في أوروبا؟(ﷺ)

قال حضرة فريد أفندي وجدي تحت هذا العنوان: "**لا نظن أن المرأة قاست من آلام الأسر في بلد مثل ما قاسته في أوروبا من أول أدوارها لغاية القرن السابع عشر. ونحن هنا لا نود أن نتوسع في بيان الفظائع التي كانت تعامل النساء في تلك البلاد الغربية. ولكنا نقول إجمالاً إن المرأة كانت هنا لك تُعَدُّ من ضمن العجماوات([86]) سواء بسواء. بل ربما كانوا يكرمون العجماوات أكثر منهن في بعض الأحوال**".

"**فإن أمامنا الآن من أخبار القرون الوسطي أنهم كانوا يحرمون على المرأة أكل اللحوم ويجبرونها على ملازمة المآكل النباتية كما يمنعونها من الضحك والكلام. ولكننا لم نر من أخبار تلك القرون أنهم حرموا على الهرر تناول اللحم أو حرموها من اللعب والقفز أمام من يقتنيها. نعم بلغ أسر المرأة في الغرب إلي درجة**

([85]) **الصواب أن يكون هذا العنوان: "ما نتائج تحرير المرأة في أوروبا؟"، ووجود ضمير الغائب (هي) في هذا الموضع خطأ شائع، وقد تكرر في الكتاب كثيراً.**

([86]) **العجماوات: البهائم.**

وحشية جداً حتى تَطرَّف كثير منهم وزعموا أن المرأة ليست من نوع الإنسان بل هي من وسط بين الحيوان والبشر".

"وألَّف أحد علمائهم في ذلك كتابا سماه "هل المرأة نفس" ولكن لما ترقَّت المدارك ولطفت الإحساسات أدرك الرجل شدة هضمه لحقوق المرأة فأخذ في إطلاق العنان لها شيئاً فشيئاً وساعد على ذلك فشو([87]) الإلحاد في بعض الطبقات تحت آثار التعاليم المادية التي انتزعت منهم كثيرا من الكمالات الإنسانية فمالت إلي الشهوات البهيمية واستلزام ذلك التغاضي عن تبرج النساء فقوي شأنهن تدريجاً حتى قمن في السنين الأخيرة "تحت حماية الرجل" يؤلفن الجمعيات للمطالبة بحقوقهن المهضومة التي تخولهن على زعمهن التربع في دسوت الوزارات وتقلُّد المراكز السياسية لقيادة الشؤون الاجتماعية. وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل سرى فساد الأخلاق اليهن سرياناً يخجل الكاتب من سرد وقائعه الشائنة وتعداد حوادثه المخجلة".

"ألم ترأن المرأة التي كانت محرماً عليها أكل اللحم صارت تشاطر الرجال في الجلوس على المنتديات العمومية ؟ ألم ترها بعد أن كانت محجوراً عليها غير الصلاة وطاعة زوجها طاعة عمياء، قد صارت الآن تحسو بنت الحان على رؤوس الأشهاد حتى لا تجد في ساقيها قوة توصلها إلي بيتها الذي فيه صغارها فتطرح

([87]) فشو: انتشار.

نفسا على أفاريز([88]) الطرقات وهي سكرى لا تستطيع حراكاً فيحملها رجال البوليس لتبيت في الضابطة. فقد دلَّ الإحصاء في بعض البلاد المتمدنة على أن البوليس يجد فيها سنويا ما يزيد عن العشرة آلاف إمرأة ملقاة في الطريق ثملاً([89]). وليتهن وقفن عند هذا الحد المدهش فإن بعض المتعلمات منهن قد فقدن فضيلة الحياء لدرجة صرن يؤلفن الكتب ينددن فيها بعادة الزواج مدعيات أنها من آثار الوحشية الأولى قائلات: ما هذه العادة السيئة التي تحرم المرأة من التمتع بإبلاغ عواطفها الحبية مشتهياتها؟ ما هذه التقاليد التي تربط المرأة بالرجل ارتباطاً دائماً فتجبرها على ملازمة رجل قبيح في عينها لرؤيتها من هو أجمل منه؟ ما هذا الرباط الحديدي الذي يمنع المرأة من أن تنصاع لأميال فؤادها السريع التقلب الكثير الإحساس بالانفعالات المختلفة؟ كلا. يعار على الهيئة الاجتماعية أن تذر هذه التقاليد القديمة حية للآن ويجب على ربات الجمال أن يبذلن وسعهن للتخلص منها بكل الطرق الممكنة. هذه كلها مقولات بعض المتغاليات من نساء العالم المتمدن وهذه الحالة قد أقامت علماء العمران وأقعدتهم وجعلتهم يتوقعون انهدام عظمة أوروبا بيد المرأة الضعيفة إذا لم يتوصلوا إلي إيقافها عند حدها".

"قال المسيو "جان فينو" مدير "مجلة المجلات" في فصل ذكر فيه غلواء النساء في الحرية والمصائب التي جرتها على المدنية: "نقول بغاية الأسف إن المرأة

([88]) أفاريز: أرصفة.

([89]) ثملا: مخمورة.

التي بواسطتها تهذبت أوروبا ستكون هي نفسها هادمة تلك المدنية الزاهرة بيديها بإزاء هذه النزغات فإن عقلاء القوم لا يدرون كيف يوقفون سير هذا التيار الشديد الاندفاع الذي ابتدأ يجرف أمامه كل الكمالات الأخلاقية التي بنيت على أساسها عظمة العالم المتمدن.

"قال الكاتب الشهير "جول بوا" بعد سرده مساوي المرأة في بحبوحة الحرية: وبانتظارها على هذه الحالة ستثنينا المرأة تحت سلطة جرائدها وصناعتها وفلسفتها التي لم تحسن استنتاجها للآن. فتري أفكار ناقد تشبعت بأخلاقها السامة التي تبعث النفوس إلي البالغ حد الجنون والسفه فهي لا تفتأ تحبب إلينا البطالة وقلة النظام وتبرهن لنا على أنه يجب على الإنسان أن يتسفل في أمياله لكي يصل إلي معالي الأمور. هذا قول كاتب من فطاحل كتابهم وما يقوله غيره في هذا المعني لا يدخل تحت الحصر فلا لزوم للاستزادة منه في هذه العجالة. ولا يحسبن القارئ أن هذا ناشيء من حسد الرجال للنساء على ما نلن من حرية فإن عقلاءهن أيضا قد أدركن هذا الفساد ووخامة عاقبته فقمن ينصحن لأخواتهن بالاعتدال والتوسط في أمورهن ولا يتأخرن عن إظهار ما يختلج بضمائرهن لمن يسئلن عن آرائهن. وإليك معنى ما قالته إحدي العاقلات للمسيو "جول بوا" بعد ذكرها أحوال النساء: هذه الحالة هي مهواة جنس من الأجناس ونهاية جيل من الناس لم يفكروا إلا في شهواتهم البهيمية حتى انتهي بهم الأمر إلي حد اليأس المهلك. إلي أن قالت: إن داء الضجر العضال ينتابنا معشر النساء المتبرجات جميعا وإن أذكانا

تدرك ساعة هدوها أنها غير صالحة لشيء ما. أرح نفسك فإنا سنتلاشى بهدوء وسكينة بدون مقاضاتنا أمام العدالة وأن كل ما لنا من جمال ورواء سيصير أثراً بعد عين. هذه شهادة إمرأة عاقلة على بنات جنسها ممن يتغالين في الحرية والترف. فهل بعد هذا يجوز لنا أن نحتذي حذو أوروبا في هذا الشأن الخطير؟ أليس يجب علينا بعد هذه المشاهدات أن ندرس هذه المسألة جيدال ليتضح لنا مثار الفساد الذي جرته أوروبا على نفسها ولم تستطيع أن تصدم تياره بما لديها من وسائل وحكمة ؟ نعم أن هذا من أوجب الواجبات علينا. قبل أن نخطو خطوة واحدة في سبيل إعطاء المرأة حقوقها لأن العاقل من يتعظ بغيره". أ. هـ.

وإذ قد علمنا ما هي المرأة وما هي حقيقة وظيفتها وأنها راعية على بيت زوجها حافظة لأمواله مربية لأولاده، فلنبحث الآن فيما يلزم أن تكون متخلقة به وفيما يلزم أن تتعلمه لتؤدي وظيفتها المطلوبة منها خير تأدية فنقول:

openkandil.com

الباب الثاني

ما ينبغي أن تكون المرأة متخلقة به. ويدخل في هذا المبحث

ماهية التربية الصحيحة وطرق الوصول إليها

obeikandl.com

الفصل الأول
تمهيد – تسليم الكل بوجوب التربية – حالتنا الحاضر في التعليم والأدب – مداواة الحالة الحاضرة

تمهيد:

من المعلوم المقرر أنه متي صحَّ التواد بين الزوجين توفر الهناء وتمت السعادة وتبودل الاحترام بين جميع أفراد العائلة وساد الوفاق وامتنعت أسباب الشقاق وكان الأمر بينهم شوري. فما أحسن الزوجين المتمتعين في منزلهما بالسعادة والهناء وبحسن إدارة المنزل وما أحسن الزوج الذي يحسن إرضاء زوجته والزوجة التي تحسن إرضاء زوجها.

ومعرفة إضاء أحد الزوجين للآخر فن دقيق لأنه يستدعي كمال التربية واعتياد كل من الزوج والزوج على تحسين أحوال المنزل المشترك بينهما وتنظيمه وترتيبه بقدر ما يمكن ومعرفة الاعتناء بالوسائل التي تستدعيها الصداقة بين الزوجين لاشتراكهما في المنفعة العمومية. فروابط الوداد الأكيدة بين الزوجين يتولدن منها ثقة عظيمة في أفعالهما وأقوالهما وجمع قلوب بعضهما على بعض فيكون منهما قوي الوداد شريف الفؤاد. فإذا حصل

التناسل والذرية تأكدت هذه المحبة التي قضت بثبوتها الزوجية وافتدي الأولاد بالوالدين في المحبة المتبادلة وفي الأشغال المنزلية الموجبة للعمران.

وكان نساء السلف إذا خرج الرجل إلي عمله يقلن له: "**اتق الله ولا تكسبن إلا من حلال فإنَّا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار**"، وهمَّ أحدهم بالسفر فقال جيرانه لزوجته: "**لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقة؟ فقالت: زوجي منذ عرفته أكالاً وما عرفته رزاقاً ولي رب رزاق: يذهب يذهب الأكال ويبقى الرزاق**" هذه عبارات لو نظرها الإنسان بعين الانصاف لوجدها صالحة لأن تشرح بمجلدات تقوم عليها دعائم السياسة ونظام الملك.

تسليم الكل بوجوب التربية

لذلك اهتم كل الأمم بتربية البنين والبنات وتهذيب أخلاقهم. ووجوب التربية أصبح مسلما به من العموم ومن البديهات التي يعترف بها كل قاصٍ ودانٍ. ومع ذلك كثرت المباحثات واشتغل العلماء والأفاضل في هذا الموضوع لا لإثبات لزوم ذلك بل لبث الرغبة والرهبة أو كلتيهما في الناس لأن حب الخير وحده ليس كافيا في سعادة الأمم بل لابد من العمل هدانا الله إليه.

ولم يقتصر الإسلام في ذلك كما يظن خصومه الذين يدعون أن لا تربية عند المسلمين خصوصاً للبنات إما تعنتا لغاية في النفس يريدون قضاءها أو جهلا منهم بأحكام الشريعة الغراء خصوصاً ما يتعلق منها بمكارم الأخلاق وأحكام المعاملات بجميع

أنواعها فيغترون بما يشاهدونه من سوء الأعمال وفساد الأخلاق وخرق سياج المروءة بما تأباه الإنسانية فيظنون أن هذه المنكرات مقتضي الشريعة الغراء وصريح القرآن الكريم ويستنتجون من ذلك أن الدين الإسلامي الذي فيما يظنون هو هذه المنكرات إنما هو إمارة الديار والمؤذن بالبوار وأنه عنوان الخراب وأبعد الأشياء عن نظام الممالك وعمران البلاد إلي آخر ما يرمونه به مما هو منه براء.

وليس الغريب جهل هؤلاء القوم أو عنادهم إنما الأغرب منه ما نشاهده من بعض جهالنا الذين يكادون ينكرون البديهات إذا قالها القرآن ويذعنون للمستحيلات متي عزيت إلي المسيو والمستر فلان.... ولله في خلقه شؤون.

ومن نظر بعين الإنصاف وجد أن في الشريعة الإسلامية من الحث على علو الهمم وكسب المعدوم وطلب المعالي والتنزه عن سفاسف الأمور وعن أن يكون المرء عالة على الناس ما لا يسعه هذا الكتاب وكذلك فيها من آداب سنية وأخلاق زكية تضمن إصلاح النفس والجسم وحسن التربية والأخلاق ما يكفي لعمارة الممالك وضمان السعادتين الدنيوية والأخروية وكان السلف يعوِّدون أبناءهم عليها فيشبون عليها فيأخذها عنهم أبناؤهم وبذا أصبحت الدنيا لهم ولم تُولِّ عنهم إلا يوم تولوا عن الدين وحادوا عن مبادئه ولم يأتمروا بأوامره ولم ينهوا بنواهيه. يوم أهملوا تربية الأولاد التربية الحقة. التربية التي يقتضيها الدين. التربية الصحيحة التي تنطبق تمام الانطباق على أحكام القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يوم دهمتنا المدنية التربية على فجأة بعد أن هبطنا من عظمتنا الأولى وظللنا قروناً عديدة تتوزعنا الفتن وتتقاسمنا الإحن فأحدث

لـدينا ذلـك الإنقـلاب الفجـائي دواراً اجتماعيـاً، جعلنـا نتخـبط في سـيرنا ونضـطرب في أعمالنا على غير هدى.

يوم دهمتنا المدنية الجديدة على ما بها من بهجة ظاهرية فظننا أن ذلك منتهى ما يدركه الإنسان من الكمال، فألقينا أنفسنا في مضمار التشبه والتقليد وتسابقنا في باحات التكيف، بما توهمنا أصولاً لذلك الكمال البشرى، فهبطنا إلي دركة أدني مما كنا فيها وأي هبوط.

يوم جهلنا أن الذي جاء به الإسلام من الأحوال والأحكام هو الذي مدَّن بلاد الـدنيا علـى الإطـلاق، وانبعثـت أنـوار هديـه في سـائر الآفـاق، أيـام كـان النـاس عـاملين بأحكامه فنبذنا أصوله وأنقدنا لأهوائنا وأهواء غيرنا، فكان جزاؤنا ما أصبحنا فيه من الفشل والاختباط([90]). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**أتيتكم بشريعة حنيفية بيضاء لم يأت نبي قبلي ولو كان أخي موسي وسائر الأنبياء في زمني ولم يسعهم إلا اتباع شريعتي**".

فإذا كنا نريد إصلاحاً حقيقاً لمجتمعنا، فما علينا إلا أن نبني كما كانت أوائلنا تبني، ونفعل مثل ما فعلوا، ونعمل على تربية أبنائنا تربية صحيحة حتى يأتي يوم نعيد فيه إذا استطعنا مجد آبائنا ونحصل على السعادة الداخلية والخارجية والهناء في الدارين.

وحيث كان الأطفال ذكوراً وإناثاً محتاجين للتربية – لأنه لا يوجد أحد يسلم بأن التربية الحاصلة الآن للذكور كافية وكافلة لتخريج رجال يصح أن يكونوا النساء متربيات

([90]) **الاختباط: التخبط.**

التربية الصحيحة التي ندعو إليها ويأمرنا بها الدين ولا أن يكونوا آباء يهذبون ويقوِّمون أخلاق أبنائهم ويربونهم تلك التربية المطلوبة – فلذلك وجب على كل من يرغب في تحسين حال البلاد ويغار على أمته وملته ووطنه أن يسعي جهده في الوصول إلي هذه الغاية. ويا ليت اللجنة أو الجمعية التي أشارت إلي تشكيلها الجرائد لتحرير المرأة الشرقية تقوم وتتشكل لتبحث في إيجاد أنجح الطرق وأسهلها لتربية البنات والبنين معا التربية الصحيحة الإسلامية. ويا ليتنا جميعا نقوم من غفلتنا ونهب من رقدتنا بعد أن صرنا في حالة من الجهالة وفساد الأخلاق يرثي لها العدو وقبل الصديق فنعمل بما يفرضه علينا ديننا ونقوم بما علينا من الواجبات لأبنائنا. ولا غرو فالسبب الأصلي في كل هذا البلاء ملقى على عواتقنا وعواهننا ونحن مسئولون أمام الخالق سبحانه وتعالى عن تركنا أبناءنا منذ نشأتهم ضحية للتغيرات الجوية والتقلبات الوسطية والأضاليل والترهات القولية بدون مراعاة أي ناموس من نواميس التربية الصحيحة. ولعمر الحق ماذا عملنا؟ قصرنا عن إيجاد نسل صالح للعمل عقلا وجسما!! أطلقنا العنان لأطفالنا وهم بين حجورنا في الكسل والرخاء والتنعم والترف وغيرها من العوامل التي تنتزع من النفس سلطات المروءة والنخوة فترتب على أنه انطبع في جوهر منحهم تلك المبادئ الفاسدة ونمت مع تلك العيوب التي تشربوها في صغرهم!! غفلنا عن كل ما هو في مصلحتنا. وأهملنا تربية أولادنا فأصبحت حالتنا في التعليم والآداب كما يعلمها الكل ولا ينازع فيها أحد غير ملائمة لمصلحة الأمة كل وجه وخصوصاً المسلمين منهم بعد ما أغفلت الحكومة العناية التي كانت لها قبل بأمور الدين!! أصبحنا في حالة الإملاق والحقارة: لا إقدام. لا نشاط. لا فضيلة. نخبط خبط عشواء!! أصبحنا متفانين في استهلاك شرفنا وثروتنا وجسمنا وعقلنا وكل فرد منا

يشكو لأخيه تقهقره وسوء حاله ويلقي تبعة ذلك على غيره ولا يدري أنه أول الناس في إهمال واجبه الأقدس!! وكثيراً ما تري المتنور منا يصف لك العلاج الشافي وصفاً جيداً، ولكنه لا يجربه لنفسه. وإذا لاحظت عليه ذلك أجابك لسان حاله بقول القائل:

فخذ بعلمي ولا تركن إلي عملي

ينفعك علمي ولا تضررك أوزاري([91]).

وما ذلك وأيم الحق([92]) إلا خطأ محض فإن النصيحة لا يكون لها تأثير حتى تَصُدر عن حر الطبع نقيّ الصنع بالفضائل بصير عامل بما يقول.

([91]) حكمة عربية تدعو للفصل بين العلم وشخص حامله (العالم) حتى لا يكون سلوكه الشخصي إذا تناقض مع علمه بابا لترك هذا العلم، وقد رويت شعرا بأكثر من رواية منها:

اعمل بعلمي ولا تركن إلى عملي * واجْنِ الثمارَ وخلِّ العودَ للنار**

وفي رواية:

اعمل بقولي ولا تركن إلى عملي * ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري**

وفي أخرى:

فخذ بعلمي ولا تركن إلى عملي * ينفعك علمي ولا تضرك أوزاري**

إن الرجال كأشجار لها ثمر * فاجن الثمار و خل العود للنار**

([92]) صيغة من صيغ القسم.

obeikandl.com

حالتنا الحاضرة في التعليم والأدب

أما كفانا عاراً أن تكون آدابنا على ما بيَّنا وعلى ما جاء بجريدة "**المقطم**" الأغر في عددها الصادر في 9 سبتمبر سنة 1899 بعنوان "**آداب الأمة عنوان مجدها**"، ولما احتوته هذه المقالة من فوائد جمة في هذا الموضوع ننقلها بلفظها. قالت: "**لا نكاد نسمع بأمة بلغت ذرى العلياء حتى أنافت على السماكين منزلا إلا كان الأدب لها رائداً ونريد بالأدب هنا معناه اللغوي أي: (ما يُحترَز به عن جميع أنواع الخطأ) أو (هو ملكة تعصم من قامت به عما يشينه) كما عرفه صاحب "المحيط"، فهو صولجان كل مملكة. وتاج كل رئاسة. وفخر كل أمة. بل هو الدعامة الكبري في نجاح كل أمة وتقدمها وهذا الكاتب الفرنسوي الشهير المسيو ادمون ديمولان عندما حاق بأمته من التأخير والانحطاط بالنسبة إلي الأمة الانكليزية جارتها أعمل فكرته وأجهد قريحته حتى وقف على أسباب ذلك التأخر فجمعها في كتاب ونشره على أمته تنبيها لها من غفلتها وإيقاظا من رقدتها وهو الكتاب المشهور بـ "سر تقدم الإنكليز" الذي ترجمه حضرة العالم الفقيه والمنشيء البليغ أحمد بك فتحي**([93]). **ولقد وجد**

([93]) **أحمد فتحي زغلول: الشقيق الأصغر لسعد باشا زغلول زعيم حزب الوفد المصري، وكان أحمد فتحي زغلول من رواد الترجمة في مصر من الإنجليزية والفرنسية. ولد في قرية إبيانة بمحافظة الغربية. شارك في الثورة العرابية وعندما فشلت فصل من عمله وسافر لدراسة القانون في أوروبا، وعاد عام 1887م وعين في القضاء وتدرج في مناصبه حتى أصبح رئيسا لمحكمة مصر. ربطت أحمد فتحي زغلول علاقة قوية باللورد كرومر المندوب السامي البريطاني الشهير وشارك كقاضٍ في محكمة دنشواي (1906م) وكان لهذه الحادثة المؤلمة أثرها القاتم على تاريخه وسيرته وأعماله، وإذا ذكر اسمه**

هذا الكتاب الشهير بعد البحث الدقيق أن السير في نجاح الأمة البريطانية هذا النجاح الذي لم تبلغه أمة من الأمم الخالية والحاضرة آداب أفرادها وحسن تربيتهم البيتية إلي أولادهم متبعين في ذلك قول الحكيم "رب الولد في طريقه فمتى شاخ لا يحيد عنها". ويظهر تقدير الأمة الإنكليزية للفضيلة واحتقارها للرذيلة من سقوط بارنل رئيس الحزب الأرلندي السقوط الهائل وهو إذ ذاك معادل لشيخ الحرية المرحوم المستر غلادستون في مكانته. وذلك لاشتهاره بالزنا حتى بلغ به الأمر أن عرض على رجال الصحافة مائة ألف جنيه لكيلا يذكروا اسمه في صحفهم فأبت الفضيلة التي ربوا عليها إلا أن يشهروه على صفحات الجرائد تشهيرا ليكون عبرة لغيره وليقوموا بواجب الخدمة العمومية التي ندبوا أنفسهم لها ففعلوا وهكذا سقط. ولا يظن القارئ الكريم أن ذلك محصور بين الطبقة العالية فيهم بل هو قد تناول أفراد الطبقة الدنيا أيضاً".

"وأذكر أن عسكريا انكليزيا ركب المركبة الكهربائية وهو ثمل من الشرب لا تكاد تحمله رجلاه وجلس على المقعد الذي أمامنا ولم يكد يستقر به الجلوس حتى صعدت سيدتان مع ولدين لهما إلي حيث هو جالس فنهض مسرعاً وأجلس أحد الولدين موضعه إذ لم يكن في المقعد متسع لجلوسهم جميعاً وظل واقفاً وهو في أشد التعب حتى بلغت المركبة متنزه العباسية".

اقترن بها. من أعماله الكبرى في الترجمة: "سر تقدم الإنجليز السكسون" لإدمون ديمولان، و"سر تطور الأمم" لجوستاف لوبون، و"روح الاجتماع" لجوستاف لوبون وغيرها.

"وأين ما فعله هذا الجندي، وهو في حالته تلك، مما يفعله بعض أدبائنا الذين شاركوا الغواني في لباسهن والمخنثين في أخلاقهم من ارتيادهم الطرقات والمنتديات وهم كل ما رأوا سيدة عارضوها في طريقها وأسمعوها من بذاءة أقوالهم ما يحمر له وجه كل حر خجلا. وأنكى من ذلك وأشد وقاحة شراؤهم الصور القبيحة وإبرازها أمام كل مخدرة([94]) يلتقون بها فتأخذ تلك المسكينة الرعدة من هذه السفالة ولا يزالون في أثرها حتى تلج حانوتا أو تركب مركبة تخلصاً من شرهم فيغربوا إذ ذاك في الضحك مقهقهين ولا قهقهة القرود سروا بما أتوه من الشهامة والنبالة".

"وهناك نوع آخر من الوقاحة يستعمله بعض ركاب العجلات وهو أنهم كلما رأوا سيدة خارجة في مركبتها للتنزه ساروا بحذائها حتى يضطروها إلي اسدال ستار كوة المركبة فراراً من نظراتهم السافلة وهي نهاية في الحطة وفقد الشرف. ألا يذكر هؤلاء الأغرار أن لهم أمهات وأخوات؟ فكيف إذا خرجن ونالهن مثل ذلك ما نال غيرهن منهم!! فإذا لم يكن لهم وازع من دين ولا ناه من أدب فخشية أن الكيل الذي يكيلون يكال لهم به وأزيد".

"هؤلاء غير رجال وخط الشيب رأسهم تجدهم عصاري كل يوم في محطة الكهرباء العمومية يركبون القطار ذهابا وجيئة وليس لهم من أرب في ركوبه سوي

([94]) الخدر في "لسان العرب": سِتْرٌ يُمَدُّ للجارية في ناحية البيت ثم صار كلُّ ما واراك من بَيْتِ ونحوه خِدْراً، والمخدرة المستورة بالحجاب ونحوه.

تهتكهم وإبداء سفالتهم لكل إمرأة يجدونها في القطار وحدها ولا رجل معها. ولما كان لا يرجي من رجال البوليس أن يراقبوا أمثال هذه المنكرات لانهماكهم في أشغالهم الخصوصية وجب على الجرائد الوطنية على اختلاف نزعاتها وتباين مذاهبها أن تتفق على مطالبة الحكومة بأن تجبر شركة الترمواي على القيام بما تكلفت به واشترطته على نفسها من جعل عربات خصوصية للنساء ويظهر أن الفئة التي عارضت سعادة العالم الأصولي قاسم بك أمين في رأيه الذي يذكره في كتابه "تحرير المرأة" عن احتجاب النساء وتمنيه أن يكن عندنا مثل ما هن عند الغربيين مصيبة في معارضتها ما دام عندنا شبان هذا مبلغهم من الآداب: وهم لسوء حظ مصر غير قلائل".

"وربما أخذ البعض العجب عند قراءتهم خبر الصور المغايرة للآداب وعما يفعل بها لأنهم يتذكرون أن وزارة الداخلية أصدرت قراراً بمنع بيعها وسنت عقاباً لمن يخالف أمرها. ولكن ذلك العجب يزول عندما يعرف القارئ الكريم أن تنفيذ هذا القرار موكول أمره إلي رجال البوليس وهم كما يعلم الجمهور لا يعرفون من واجباتهم "أولا يريدون أن يعرفوا" سوي معاكسة باعة الفاكهة إذا لم يستجلبوا رضاهم ومخالفة الحوذيين([95]) إذا لم ينقدوهم الجُعل([96]) المعلوم وما سوي ذلك فهو عندهم رجس من عمل الشيطان يجتنبونه".

([95]) الحوذي: سائق العربة التي تجرها الخيول (الحنطور).

([96]) المقصود هنا الرشوة.

"ولما كان الحث على الفضيلة والنهي عن المنكر من أخص واجبات الصحف ومن أجل الخدمات التي تقدمها للوطن وبنيه سيما ما يحط بشأنه ويحقِّر أبناءه في أعين الأجانب من مثل الفعال التي مر الكلام عليها فحبذا لو أنها تتفق على إيجاد طريقة فعالة لكبح جماح هؤلاء الأغرار انتصارا للفضيلة اذ هم أنجب أبنائها وشيمة أمثالهم البر لا العقوق والسلام".

مداواة الحالة الحاضرة

مما تَقدَّم ينتج أنه ليست تقوم لنا قائمة إلا إذا سعينا في تحسين التربية والتعليم وجعلناهما ملائمين لمصلحة الأمة من كل وجه ويجمل بنا أن نورد هنا كل ما لحضرة صاحب تحرير المرأة. قال: **"وقد آن الوقت على ما أظن لتربية نفوسنا تربية صحيحة متينة علمية. تربية تنشأ رجالا أولي علم وآصالة رأي يجمعون بين المعارف والخلاق والعلم والعمل. تربية تنقذنا من جميع العيوب التي يقذفنا بها الأجنبي في كل يوم وبكل لسان وكلها ترجع مهما اختلفت في الاسم إلي سبب واحد وهو النقص في تربية نفوسنا وقد اتفق جميع أهل النظر في مصر على أن التربية هي الدواء الوحيد لذلك الداء وانتشر هذا الرأي الصائب في الكتب والجرائد وأحاديث المجالس حتى صح أن يقال أنه أصبح رأيا عاما وتولد عن ذلك شعور بأن مستقبل الأمة تابع لتربيتها ولكن أري همم الناس موجهة إلي التعليم ولا أري أحداً يلتفت إلي تربية**

النفوس وأري أن الحرص على التعليم منحصر في تعليم الذكور مع أن تهذيب الأخلاق مقدم على التعليم وتعليم البنات مقدم على تعليم الذكور"([97]).

فهذا كلام كله حِكم ونوافق عليه حضرة المؤلف جهدنا ولكن لا يؤاخذنا إذا كنا نخالفه في أمر واحد فيه، وهو أننا نعتقد أن التهذيب واجب للذكور والبنات معاً لا تقديم للبعض على الآخر، أو إذا كان هناك سبب لتقديم تهذيب البعض فليبدأ بالذكور لأننا نري أن الرجل المربي المهذب يمكنه أن يجعل امرأته على خلقه ويطبعها بطبعه.

وعلى ذلك تكون تربية البنات تابعة لتربية الذكور لأن الأب هو المسئول عن حالة عائلته الأخلاقية. كيف لا وهو رئيسها وراعيها – والرعية على دين راعيها – ومن المقرر أن أخلاق رب المنزل وعوائده فإن أكثر من الموبقات والملاهي وأنواع الشهوات سرى ذلك في بيته وعائلته وذريته:

إذا كان رب البيت بالدف مولعاً

فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

وإن استقام وقام بما يجب عليه حق القيام تبعته عائلته وذريته وحاشيته وهذا أمر لا يختلف اثنان ويؤيده حالنا في هذه الأيام.

([97]) **تحرير المرأة – قاسم أمين – المستشار بمحكمة استئناف مصر – ملتزم الطبع محمد كامل علي صاحب مطبعة الترقي ومطبعتها – 1899 – طبعة مصورة عن هذه الطبعة نشر: مكتبة الآداب – مصر – 2003 – صفحة 43.**

فيا علماء الأمة وأذكياءها ويا سراتها وعقلاءها منكم يطلب تعريف الآباء واجباتهم وذلك لا يكون إلا بفتح المدارس المعدة لتثقيف عقول النشأة الجديدة ولا يكفي أن يتعلموا فيها اللغة والرياضيات بل يجب أن يدرس لهم ذلك العلم الأساسي وهو فن التربية الحقيقية، علمياً وعملياً، فليس العلم الصحيح بكثرة الرواية إنما العلم بالخشية على أصول دينية ونصائح أدبية وبأن يهيأ الطفل، ذكراً كان أو أنثى، للفضائل وبتعريفه واجبات الحياة ووظيفة الإنسان فيها.

وللائمة التعليم لمصلحة الأمة يجب أن يكون أساس التعليم في المدارس الأهلية التي تؤسس اللغة العربية وأمور الدين وآدابه التي أهملت في المدارس الأميرية مع المشي في اللغات الأجنبية والعلوم الأخرى بالنسبة للذكور حذو تلك المدارس وبذلك يكون التعليم في المدارس الأهلية مطابقة لمصلحة الأمة من جميع الوجوه بعد هذا وذاك يجب أن ينظر إلي مستقبل المتعلمين وها نحن نرى الوظائف أصبحت أضيق أبواب الرزق لهم فلابد من مخرج آخر، وهو لا يكون إلا بالترشيح للاستقلال في العمل الحر أياً كان، والدنيا مجال فسيح لأبنائها العارفين وسجن ضيق للجاهلين. وإذ وفق الله بعض أسخياء الأمة مدارس صناعية كانت لأبنائها منها حياة جديدة. ولكن النتيجة الحقيقية التي يستلزمها نجاح التعليم إنما تكون سريعة لو وجدت "**إدارة معارف أهلية**" تقبض على أزمة المدارس الأهلية وتسير بها في طريق واحدة تضمن لها الغاية التي يطلبها الجميع وعسى أن يأتي يوم يسمع فيه هذا النداء وتجاب فيه الدعوة لها وما ذلك على الله بعزيز وقد كان بودنا أن تكون الحكومة مساعدة على إصلاح أخلاق الأمة، ولكن يظهر أن الأمل في ذلك قليل ما دام الحال كما نرى فإنه من المقرر الثابت أن أغلب الناس لا يرتدعون عن غي أو عن

فعل قبيح إلا خوف الوازع القوي أو العقاب الدنيوي ولذلك نرى الناس من يوم أن أمنوا عقاب الحكومة لهم على مخالفتهم واجبات ديانتهم قد خلعوا برقع الحياء فصنوا ما شاؤوا وانتهكوا حرمة الأدب والدين ومع ذلك تراهم يتجنبون ارتكاب مخالفة بسيطة خشية الوقوع تحت طائلة العقاب الذي سنته الحكومة لهذه المخالفة. وحيث إن "**ما لا يدرك كله لا يترك جله**" و"**الطشاش خير من العمى**" كما يقال في الأمثال السائرة فيا ليت كبراءنا وسراه أمتنا وأفاضل علمائنا يتفقون على البحث عن الحكمة أينما وجدوها علماً وعملاً، لينشروها بين الأمة، ائتماراً بقوله تعالى:"**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**"([98]). ولا شك أن سائر الأمة تقلدهم وتتشبه بهم في طلب العلم الشرعي والعمل به وإقامة العدل والقسطاس والتخلق بمكارم الأخلاق والترفع عن سفاسف الأمور فتصطبغ أمتنا المصرية بصبغة الدين القويم ويستقيم معوج الأخلاق وحيئذ يسهل وجود المعلمين الأكفاء ويصير في استطاعة كل واحد أن يربي أولاده ويطبع زوجته بطبعه كما قدمنا.

ولعمر الحق ليس ذلك صعب المنال على من يرغب في تحسين حال بلاده ويوقف نفسه لخيرها عوزها فطرق الوصول كثيرة متيسرة لكل باحث ولكل طالب فإن الحقيقة بنت البحث وكل من سار على الدرب وصل. فقد كفى المسلمين إعراضا عن دوائهم واغضاء على دائهم وكفي عارا على مستنيري هذه الأمة أن تبقى حقائق دين الله مختبئة في مطاوي مجلداتهم وهم مغرورون بزخارف أفكار البشر مما يسمونه بالنظريات

([98]) سورة آل عمران: **104**.

الفلسفية. اللهم إن المسلمين عن أسرار دينهم لمحجوبون وعن بدائعه للاهون فهبهم اللهم ميلا إلي ترويض نفوسهم في حقائق دينك السرمدي وقانونك الأبدي وهب اللهم بصائرهم قوة تمتعهم من دينهم بما متعت به آباءهم الأقدمين أنك رحيم بالمؤمنين.

ولعمري ليس يتم لهم ذلك إلا بتربية النفوس وحفظها من الأمراض ولا سبيل لذلك إلا بتطهير النفوس من أدناس الأوهام وتهذيبها بالمعلومات الصحيحة وتعويدها على مكارم السجايا وتصحيح اعتقادها. والإسلام تكفَّل بكل ذلك كما لا نزاع فيه ولا مرية فلنرجع إلي أحكامه إن كنا نريد لأنفسنا خيرا حقيقة: أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

openkandl.com

الفصل الثاني
التربية الصحيحة – تقسيمها إلي ثلاثة أنواع: الرضاعة بالألبان وتقويم الأخلاق
وتربية العقول بالمعارف والعلوم – طرق التربية الصحيحة –
النوع الأول – النوع الثاني – النوع الثالث

التربية الصحيحة:

عرَّف بعضهم التربية بأنها: "**تنمية أعضاء المولود الحسية من ابتداء ولادته إلي بلوغه حد الكبر وتنمية روحه بالمعارف الدينية والمعاشية**". فبهذا انقسمت التربية قسمين: حسية وهي تربية الجسد ومعنوية وهي تربية الروح ومع ذلك فإن لتغذية الطفل ثلاثة أنواع من الغذاء مختلفة الموضوع: الأولى تغذية المراضع للأطفال بالألبان. الثانية تغذيتهم بإرشاد المرشد بتأديبه الأولى للأطفال وتهذيب أخلاقهم وتعويدهم على التطبع بالطباع الحميدة والآداب والأخلاق الفاضلة. الثالثة تغذية عقولهم بتعليم المعارف

obeikandl.com

والكمالات وهذه وظيفة الأستاذ المربي كما أن ما قبلها وظيفة المرشد المتولي أمر الصبي. فالنسبة بين الرضاع والتربية الأولية والتربية الانتهائية كالنسبة بين المرضع والمربي المرشد والأستاذ. فكلما أجاد المربي جادت التربية.

فالتربية بأنواعها الثلاثة وإن كانت تظهر ببادئ الرأي سهلة بسيطة لا تحتاج إلا إلى عمل يسير إلا أنها في الحقيقة وعند التأمل تستدعي عظيم اهتمام وعناية وسلوك أصول مقررة وآداب محررة ويضاف إلي ذلك ما يحتاج إليه المراضع والمربون والأستاذة من قوة محبة الأطفال ومعاملتهم معاملة من طب لمن جب.

وقد أنتج هذا أن التربية فن تنمية الأعضاء الحسية والعقلية وطريقة تهذيب النوع البشري ذكراً كان أو أنثى طبق أصول معلومة يستفيد منها الصبي هيئة ثابتة يتبعها ويتخذها عادة وتصير له دأبا وشأنا، وملكه فالتربية المعنوية حينئذ هي فن تشكيل العقول والنفوس البشرية وتكييفها بكيفية حسنة مألوفة وغايتها إيجاد ملكة راسخة في الصغير تحمله على التخلق بحسن الأخلاق حسب الإمكان بحيث تحصل من هيئة تربيته الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا بسهولة ويسر. ثم إن التربية لا تفيد الصبي الذكاء ولا الألمعية فإن هذه الصفات هي في الأطفال غريزية طبيعية وإنما بالتربية تنمو العقول وتتحسن الإدراكات والتربية الأولية فائدتها أن يعتاد الصبي على أن ينقاد بطبعة إلى ما يريده منه مؤدبه ويختاره له مرشدة فغايتها المطاوعة وهذا النوع كما يكون في الإنسان يكون في الحيوان بترويضه وتمرينه على الإطاعة. أما تنمية العقل التي هي غذاؤها بالمعارف المعقولة المقبولة كتغذية الجسم بالطعام فهي خاصة بالإنسان فالتربية المعنوية تزيد في تنمية عقول الأطفال بالمعارف وحسن الأخلاق على التناسب من حسن إدارة المرشد والمعلم، فبهذا

يقال لمن اكتسب المعارف الجيدة والأخلاق الحسنة أنه حسن التربية. وحسن تربية الآحاد ذكوراً وإناثاً، وانتشار ذلك فيهم يترتب عليه حسن تربية المجتمع الإنساني، وهو الأمة بتمامها. فالأمة التي حسنت تربية أبنائها واستعدوا لنفع أوطانهم هي التي تعد أمة سعيدة وملة حميدة. فبحسن تربية أولادها والوصول إلي طريقة إسعادها لا نخشي أن تأمن أبنائها على أسرار الوطن ولا على ما يكسبها الوصف الحسن بخلاف سوء التربية إذا انتشر في أمة من الأمم فإن فساد أخلاق بنيها يفضي بها إلي العدم حيث يفشو فيهم الإنهماك على اللذات والشهوات والانتهاك للحرمات والتعود على المحرمات كما هي حالتنا الآن كما أسلفنا القول فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

طرق التربية

التربية الأولى:

تربية الولد الأولى ينبغي أن تكون في بيت أبيه وأمه وهي التربية اللائقة للبيت وكل إمرأة لم تربها أمها في صغرها لا ترغب في تربية أولادها في كبرها. ومن سوء التربية أن الأم تكل تربية أولادها إلي غيرها بدون أن تلاحظ ذلك بنفسها فإن الأم بما أودع فيها من الشفقة والرأفة على أولادها وهي أولى وأرفق بالتربية ولتعديل مزاج أبنائها وبناتها. فإذا ربت المرأة أولادها إلي سن التمييز تربية حسية أو معنوية انتقش([99]) في أذهان الأبناء اعتدال المزاج والاتصاف بمكارم الأخلاق وتهذيبها وسلوك الرفق واللين التي هي من صفات

([99]) **انتقش: نقش من النقش.**

التمدن. ومن هنا وجب أن تكون الأم متحلية بهذه الصفات لتصلُح أن تربي على حسبها أولادها عالمه بكيفية الاعتناء بالطفل وكيفية تغذيته عارفه طباع طفلها وعوائده ويحسن أيضا أن تكون الأم هي التي ترضع ابنها فللرضاع تأثير ظاهر في الأولاد، فقد قال صلى الله عليه وسلم: "**الرضاع يغير الطباع**". وقال: "**لا تسترضعوا الحمقاء فإن اللبن يعدي ويروي**". ومعناه أن المرضع إذا أرضعت غلاماً نزعت إليه أخلاقها فيشبهها. وعند عدم تمكُّن الأم تختار المرضعة العاقلة صحيحة الحواس ظاهراً وباطناً، معتدلة المزاج عظيمة الثديين.

حُكي عن الإمام أبي المعالي عبد الملك الشهير بإمام الحرمين([100]) أعلم أصحاب الشافعي رضي الله عنه في عصره على الإطلاق وهو الذي انتهت إليه رئاسة العلماء نحو ثلاثين سنة ولأجله بنى نظام الملك[101] المدرسة "**النظامية**" بنيسابور وتولى بها الخطابة وكان

([100]) **هو أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف المتوفى سنة 478هـ، مات والده فجلس في مجلسه للتدريس، فانتقلت إليه نسبة (الجويني) وقيل: كان عمره عشرين سنة عندما جلس للتدريس في مجلس والده، ولقب بإمام الحرمين لأنه كما قيل، جاور مكة أربع سنوات كان خلالها يناظر ويدرس ثم عَرَّج على المدينة المنورة. وقد ألف الإمام الجليل مؤلفات كثيرة في فنون مختلفة. أهمها: "الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد" و"البرهان في أصول الفقه" و"الشامل في أصول الدين"، و"غياث الأمم في التياث الظلم" وغيرها.**

([101]) **نظام الملك (408 – 485 هـ) (1018 – 1092): رجل دولة تولى الوزارة في عهد السلطان السلجوقي ألب أرسلان ثم في عهد ابنه ملكشاه، فنظم الإدارة تنظيما حسنا. من أهم مآثره إنشاء المدرسة النظامية ببغداد عام 1067. اشتهر بكتابه "سياست نامة" في أصول الحكم. (نقلا عن: معجم أعلام المورد – موسوعة تراجم لأشهر الأعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين مستقاة من**

آية من آيات الله علما وعملا أن والده كان يتعيش من نسخ الكتب فاجتمع له ثمن جارية ولم يزل يطعمها من كسب يده حتى حملت بإمام الحرمين ووضعته فأوصاها أن لا تمكن أحدا من إرضاعه ثم دخل عليها يوماً، وهي مريضة والصبي يبكي وقد شاغلته إمرأة من جيرانهم بثديها فامتص منه قليلاً فشق ذلك على أبيه فأخذه ونكس رأسه ومسح على بطنه وأدخل اصبعه فيه حتى أفرغ جميع ما امتصه والصبي في خلال ذلك قد كربت نفسه تزهق وأبوه يقول: "**موته خير من فساد أخلاقه**" فكان الإمام إذا لحقته فترة في مجلس المناظرة يقول: "**هذا من بقايا تلك الرضعة**" أفتري والد هذا الإمام فعل غير ما يوجبه عليه القرآن الكريم حيث يقول:"**قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**"([102])؟

التربية الثانية

وبعد ذلك تكون تربية الأولاد موافقة أحوال الأمة وطريقة إدارتها وأحكامها لينتقش في أفئدة الصبيان الإحساس والأصول الحسنة الجارية في أوطانهم. مثلا إذا كانت طبيعة البلد المولود فيها الإنسان عسكرية مائلة للحرب والضرب تكون تربية الأولاد الذكور تابعة لها، أصولاً وفروعاً، وتكون تربية البنات أيضاً مائلة لمحبة الشجعان والأبطال وفحول الرجال ليشجعن الأبناء كما هو منقول ومسطور عن نساء العرب في الجاهلية وفي

"موسوعة المورد" – تأليف منير البعلبكي – إعداد: الدكتور رمزي البعلبكي – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الأولى 1992 – صفحة 455).

([102]) **سورة التحريم: 6.**

صدر الإسلام كما روي عن الخنساء بنت عمرو السلمية أنها حضرت حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال فقالت لهم من أول الليل: "**يا بني والله الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد وإنكم بنو إمرأة واحدة ما خُنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجَّنت حسبكم ولا غيرت نسبكم وأنتم تعلمون قول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"([103]). فإذا أصبحتم إن شاء الله فإغدوا إلي قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائكم مستنصرين فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها وأضمرت لظى على سياجها فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند اخترام خميسها تظفروا بالغني والكرامة في دار الخلود والمقامة. فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم وشنوا الإغارة وقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً، فبلغها الخبر فقالت: الحمد الله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته**". وإذا كانت المملكة زراعية أو تجارية أو بحرية وما أشبه ذلك كان مدار التربية الصحيحة للأولاد على ذلك.

ولقد دلت التجاريب وبرهنت المشاهدات على أن الأمة التي تتقدم فيها التربية بحسب أحوالها يتقدم فيها أيضاً التقدم والتمدن على وجه تكون به أهلاً للحصول على حريتها بخلاف الأمة القاصرة التربية فإن تمدنها يتأخر بقدر تأخر تربيتها. قال بعض الحكماء: "**إن سمحتهم لي بتحسين التربية ألزمت نفسي لكم بإصلاح أحوال العالم بأسره**". فالتربية هي أساس الانتفاع بأبناء الوطن ولذلك يجب تعويد الأطفال لا سيما

([103]) **سورة آل عمران: 200.**

أبناء الأمراء والأكابر والأغنياء من الصغر على ترك الكبر والإعجاب ومحبة النفس وتكليفهم باستعمال الرفق واللين والتلطف مع غيرهم حتى لا يتجاري أحد من عوام الناس وخواصهم على لومهم على أفعالهم وأطوارهم وحركاتهم فيلزم محو ذلك من الأطفال في حال صغرهم بأن يعتني مربي الذكور والإناث بأن يطفئ من قلوبهم نار حبهم لأنفسهم وحرارة حرصهم على جلب كل شيء لخاصيتهم فإن حبهم للنفس بهذه الدرجة إنما هو عين البغض لها لأنه يجلب لهم بغض من عداهم من الإخوان. وكيف ينال السعادة من خص نفسه بالمحبة ولم يجعل لأخيه قدر حبه. وفي الحديث الشريف: "**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه**" وهذا الحديث من أعظم آداب الدين وأسسه. وكذلك يلزم تعويد الأطفال على الآداب الدينية التي تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر فيعظمون الفضيلة في أعينهم ليحبوها ويتمسكوا بالرذيلة ليفروا منها ويستقبحوها ويعودونهم على النظافة والترتيب والاقتصاد ويحضونهم على مكارم الأخلاق قليلها وجليلها بأن يحسِّنوا لهم الصدق والوفاء والأمانة والعفة والصيانة وشرف النفس وتوفير الكبير واحترام الصغير واجتناب الهزل وإساءة الأدب والفحش في القول والفعل وبر الوالدين والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة والدعاء لهما تقبيل أيديهما عند الدخول إليهما لترسخ كل هذه الصفات والفضائل في أنفسهم وتنتقش في قلوبهم فلن ينسوها بعد ذلك ما دام المرء يشيب على ما شبَّ عليه. ومن المعلوم أن كل ما يصدُر عن الأطفال في كبرهم من خدم جليلة وصناعات جميلة ومساع خيرية ومنافع اجتماعية ليس إلا إظهاراً للمبادئ التي انطبعت في ذهنهم من تعاليمهم المنزلية حالة صغرهم ومما تلقوه من مرشدهم فنمت مع نموهم. فإن كانت هذه التعاليم ليست مؤسسة على قاعدة علمية صحيحة كانت سبب

تعاسة كبرى قلَّ أن يخلُص منها الطفل أو يقوِّمها بالدراسات الثانوية بعد نمو مجموع قواه الجسمية والعقلية. ومع تعويدهم على ذلك ينبغي أن يقبِّح في نظر الأولاد بالفعل وبالقول كل ما يضاد هذه الصفات بأن يمثلوا لهم حالة الكذاب الخداع المنافق الحسود الكنود المرائي في دينه أشنع تمثيل فإن الكذب وحده رأس كل مذموم وجماع كل فضيحة. ويلزم تقول تقويه صفة الحياء في الأولاد وهم صغار فيشبون ويشيبون عليها فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**إن شر الناس عند الله من خافه الناس اتقاء فحشه**"، وروي البخاري عن ابن مسعود قال: "**قال رسول الله عليه الصلاة والسلام أن ما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت**"، فإذا ارتفع الحياء صنعت النفس ما تهوى. ولذلك نكرر أنه يجب على من يربي البنات ويتعهد شؤونهن أن يتركهن على حيائهن الذي هو زينتهن، فلا تمسه التربية بمحوٍ ولا تخفيف، وأن لا يجتهد أحد في إلهام الشجاعة لهن. وكذلك ما اشتملن عليه عادة من الخوف والوجل، مما ينبغي محوه من الذكور، فلا بأس بإبقائه في النساء، فإنهن غير مخلوقات لأن يحزن شجاعة الرجل كما قدمنا.

وكان أهل سبارطة يربون أولادهم على طرف المملكة وكانوا يعودونهم على عدم الخوف من ظلام الليل وعلى عدم الكآبة والتشكي إلا لحاجة لازمة وكانوا إذا بلغ الطفل سبع سنين أمروا المعلم أن يعلمه التعود على الأشغال والتجلد والمشاق والمبادرة في الطاعة وكان المعلمون يسوون بين سائر الأولاد في التعليم بالمكاتب العمومية بلا تمييز لأحد منهم بتعليم شيء وتقديمه على آخر بل يعلمون الكل مع بعضهم بطريقة واحدة لأنهم مستوون في القيام بواجبات المملكة. وكانوا يجعلون من ظهرت نجابته في التعليم رئيسا على من

عداه ممن لم تظهر له نجابه فيحكم الأنجب فيمن عداه منهم بملاحظة الشيوخ من أخطأ في حكمه منهم إلى الصواب ويجب تأديبه على ذلك بما يليق بخطئه من العقاب. وكانت طريقة تعليم الأولاد التفاهم والتخاطب عندهم هي أن الآباء كانوا إذا اجتمعوا على مائدة عمومية يحضرون أولادهم ليغتنموا فائدة محاورة تلك المجالس وكانوا يسألونهم عن بعض أشياء مهمة فيقولون للواحد منهم ما رأيك في هذا الشيء. أو في هذا الرجل ويحملونهم على رد الجواب بسرعة مع الاختصار وأدب الكلام وكان هذا هو السبب الأعظم في كثرة فحول الرجال وكبراء الأبطال في بلاد اليونان وكذلك في مدينة "**أثينا**" كانوا يعتنون بتعليم الأولاد لعلمهم أن بقاء عز المملكة إنما يكون بذلك ويحثون على الاستقلال بالحرف والصنائع وكل من يثبت عليه من أهالي المدينة أنه لم يتعاط حرفة وصنعة واتهم بذلك ثلاث مرات فإنه يفضح على رؤوس الأشهاد كما كان يفضح كل ولد يسرف في أمواله أو يحرم أبويه من القوت إلا إذا كانا لم يعلماه صنعة فإنه كان لا عقاب عليه بذلك.

وكان من أحكام هذه المدينة أنه لا يجب على المرأة أن تتجهز لزوجها عند الابتناء([104]) بها بأكثر من ثلاث أثواب وأمتعة قليلة الثمن خوفاً على أهلها من الفقر وأن من اجتمع بغير زوجته وعاشرها أو خالط النساء المتبرجات لا يكون من أرباب مشورة المدينة لأنه لا يؤتمن على مصلحة الأهالي وأن من سكر من أرباب مشورة المدينة فعقابه القتل. فبهذا صارت تربية عموم اليونان كاملة فاضلة في أغلب الأزمان.

([104]) **الابتناء: الزفاف.**

ذلك كان حال التربية عند الأقوام الذين خلوا، وكانت سبباً في رفعتهم وعزتهم ومنعتهم، فقل لي بأبيك هل أتت بشيء أعظم مما يدعو إليه القرآن الشريف والشريعة السمحة؟ أيوجد أمة أحسن ممن تهذبت أخلاق أبنائها على ما وردت به تلك الشريعة الغراء؟ كلا – اللهم كلا – هذا وجميع هذه التعاليم والتدريبات التي أشرنا إليها هي المسماة بالدروس الأولية للطفل والتي يجب تلقينها له سواء كان ذكراً أو أنثى بواسطة الأمهات والآباء والأقارب والأصدقاء المرشدين الذين هم أساتذة هذه المدارس المنزلية. هذه الدروس هي الأساس الأقوم والمبدأ المحكم للتربية والواسطة الوحيدة لجعل الطفل مستعدا لأن يتلقى دروساً أعلى وبدون هذا الأساس لا يمكن التحصل على الثمرة المقصودة من الطفل اللازمة لذاته وعشيرته، لأنه بدونه لا يكون تهذيبه فيما بعد ممكناً بل تكون كل التعاليم التي تلقى إليه صورية لا تؤثر على وجدانه بشيء مهما أجهد النفس في تعديلها لأن الطبع يغلب التطبع. ولا جدال في أن إهمالنا هذه التربية الأولية هو السبب الأصلي في تقهقرنا ويلزمنا أن ننوه هنا أن لا تربية تصلح إلا إذا كان القائم بها مرشداً كان أو مربيا من أهل وأقارب ومراضع أو معلماً متخلقاً بالأخلاق التي يراد تطبيع الأولاد عليها حتى يكونوا قدوة حسنة لهم بهم يقتدون وعلى منوالهم ينسجون. وبخلاف ذلك لا يمكن ولا يؤمل أن تحصل فائدة إذ القدوة السيئة تؤثر تأثيرها على النفوس وتسيء أخلاق الأولاد منذ صغرهم فيشبون على ذلك ويفسدون. وهناك الطامة الكبري حيث لا يفيد دواء ويعظم الداء. ومن هذا عرفنا ما يجب على الأم أن تكون متصفة به من الأخلاق لتحسن تربية أولادها فإن الأم إن لم تتذرع هي أيضاً بأصول التربية ولم تتحل بمكارم الأخلاق يشب طفلها عديم المنفعة ساقط المنزلة ويعيش طول عمره ككرة يلعب بها من

هو أقوي منه ويموت غير مأسوف عليه وليس من ينكر أنه وإن كان الأب هو صاحب التأثير المهم والأولي في التربية فإن الأم كذلك هي الحجر الأساسي للعائلة ففي إمكانها أن تضم أفرادها أو تشتتهم وذلك تبعا لأميالها التي اكتسبتها من معلوماتها أثناء صغرها.

التربية الثالثة "التعليم"

لا أظن أنه يوجد أحد يكره أن تحسُّن حالة بيته ولا أن لا يساعد ويعين على ما يوجب هذا التحسين. ولكن كل من يشاهد ما نحن عليه من الآداب وكيفية التعليم الناقص الغير ملائم لمصلحة الأمة الذي يتعلمه البنون والبنات الآن فإنه ولا شك يفضل الجهالة التامة على ذلك التعليم الصوري الكثيرة مضاره المعدوم المنافع.

فإذا تهذبت أخلاق الأولاد بالآداب الصحيحة – كما قدمنا – فليس من يقول بعدم تعليم البنت ما يساعدها على زيادة تحسين حال بيتها وتوسيع نطاق معارفها فيما يتعلق بواجباتها من مواد العلم الأموي حتى تصير كمعلمة صحية وعملية من غير إخراجها عن وظيفتها حيث أنها ستصير أما والأم هي الحجر الأساسي للعائلة كما قدمنا. والدين لم يمنع مطلقا من ذلك فحسبنا قول النبي صلى الله عليه وسلم: "**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**". وقد كان في زمنه صلى الله عليه وسلم من يعلم القراءة والكتابة من النساء للنساء فالتعليم الذي لا بأس من أن يشترك البنات بالاشتغال فيه والانتفاع به متي آنس الإنسان منهن رشدا واستعدادا له هو عبارة عن تعليم القراءة والكتابة في ضمن تعليم القرآن الشريف وأمور الدين – لتعرف البنت ما يجب عليها وما

يجب لها من الحقوق والواجبات – ومبادئ الحساب والهندسة والجغرافية ومختصر تاريخ بلادهن فإن هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ويصلحن به لمشاركة الرجل في الكلام والرأي فيعظمن في قلوبهم ويعظم مقامهن لديهم. ويجدر بنا أن ننبه هنا بوجه عام بأنه ينبغي للمرشد أو المعلم أن يرغِّب الأولاد في التحصيل ويدلهم على مكانته ويصرف عنهم الهموم الشاغلة لهم ويهون عليهم مؤنته ويذاكرهم بما حصله من الفوائد والغرائب وينصحهم في الدين فبذلك تطهر قلوبهم ويزكوا علمهم ويجب عليه أيضاً أن يأذن في بعض الأوقات للأولاد باللعب، ويكون لعباً جميلاً غير متعب لهم ليستريحوا من كلفة الأدب. وهذه الرياضة تروِّح النفس وتحرك الحرارة الغريزية وتحفظ الصحة وتنفي الكسل وتطرد البلادة وتبعث النشاط وتزكي النفس فإن النفس تمل من الدؤوب في الجد وترتاح إلي بعض المباح من اللهو. قال نبينا صلى الله عليه وسلم لحنظلة: "**ساعة وساعة**". وقال عليّ رضي الله عنه: "**روحوا القلوب فإنها تمل كما تمل الأبدان**". وقال أيضا: "**سلوا هذه النفوس ساعة بعد ساعة فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد**". وكان صلى الله عليه وسلم يقول: "**يا بلال روحنا**".

وينبغي أن يكون لنساء هذ الأعصر في خدمتهن لمنزلهن اقتداء بنساء النبي صلى الله عليه وسلم: فإن نساء النبي كن يسعين على عيالهن ويخدمن زوجهن ويمتهن أنفسهن. ولذلك يلزم أن يتعلمن شيئاً من فن تدبير المنزل ومن مبادئ القوانين الصحية وما يلزم النساء من الخياطة والتطريز والطبخ... إلخ. قال النبي صلى الله عليه وسلم لأم سلمه: "**إذا أدت المرأة فريضة ربها وأطاعت زوجها بعلها وحركت المغزل كانت كأنها**

تسبح ومات دام المغزل في يدها كانت كأنها تصلي جماعة وإذا طبخت القدر لأجل أطفالها تساقطت ذنوبها".

هذا ما يمكن تعليمه لهن وأظن أن فيه الكفاية للقيام بوظيفتهن أحسن قيام وهذه التربية هي المناسبة لوظيفتهن، فإننا لو أخذنا بنتاً وعلمناها القراءة والكتابة والعقائد والآداب الدينية والعبادات، وطرفاً من قانون الصحة وكيفية تدبير المنزل وتربية الأولاد والأشغال اليدوية... إلخ. ثم قصرناها في بيتها فيكون منزلها هو المدرسة الثانوية لهذا التعليم الابتدائي تجري تطبيق ما تعلمته بالعمل فيه لأن وظيفتها التي بيناها تقتضي جميع هذه المعارف كما لا ينكره أحد وبذلك لا تنسى ما تعلمته ولا تتغير أخلاقها. وما الفائدة من تعليمها ما تنساه ولا يمكنها أن تمارسه ولا أن تعمل به في منزلها الخروجة عن حدود وظيفتها؟ على أن لا شيء يمنع المرأة من التوسع في العلوم والمعارف إذا وجدت عندها قابلية من نفسها وكان وقتها يسمح لها به. كما أن لا شيء يمنعها عند اقتضاء الحاجة من أن تتعاطي من الأعمال بعض ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها.

ومما يلزم تعويدهن عليه وتأديبهن على تركه الصلاة والصوم وأنواع العبادات التي يأمرنا بها الدين إذ بخلافها يكون العلم ناقصا ولا فائدة منه ما دام غير مقرون بالعمل. فإذا ربينا البنت الناشئة على هذه المبادئ وحليناها بهذه الكمالات ومنعناها من الابتذال وقوينا فيها فضيلة الحياء بالاحتجاب الذي به تمام التربية كما ستري أمكنها أن تنفع وتفيد واستطاعت أن تنصح والدتها التي لم يسبق لها دراسة وقامت بوظيفتها أحسن قيام وامتنعت أسباب الشكاية والبلاء.

أما ما يذهب إليه بعضنا من وجوب تعليم المرأة المسلمة على الطريقة الأوروبية واتخاذ حالة المرأة الغربية مثالاً، لذلك فيما يزيد أحوالنا فساداً وليس ذلك لكون طبيعتنا مضادة لطبيعة الغربي، ولا لأننا نحب أن نبقي على جهالتنا، ولكن لأن علماء العمران في العالمين القديم والجديد "**في أوروبا وأمريكا**" يرفعون عقيرتهم كل يوم منذرين قومهم كما علمنا مما اقتطفناه، ومما سنورده في الفصل الآتي من أقوال بعضهم – بسوء العاقبة من غلواء النساء في الحرية وخروجهن عن الدائرة التي أراد الله أن يشتغلها وما على الشرقي الذي يعتبر أن المرأة الأوروبية والأمريكية ملكان نزلا من سماء المدنية على أرض الحرية إلا أن يقرأ ما قاله وما يقوله علماء بلادهم عنهما حتى تنشأ لديه فكرة عامة على وظيفة المرأة ومستقبلها والعاقل من اعتبر واتعظ بغيره. قال العلامة جول سيمون : "**كان الناس في سنة 1848 يشكون من عدم الاعتناء بتعذيب النساء وتربيتهن ولكنهم بالعكس يشكون اليوم من أن ذلك التهذيب قد بلغ حد الإفراط. نعم لا شك أنا خرجنا من تفريط إلي إفراط هائل**". فلنتق الله في أنفسنا وأهلينا ولنقلد بروية وتدبير. والله تعالي أعظم مسئول في توفيق الأمور وإصلاح الحال.

الفصل الثالث
الحجاب

العفة والأمانة والحياء – الحجاب أعظم فائد للعفة – الحجاب شرعي يأمر به الدين – دفع اعتراضات – الحجاب الحالي وما يتهددنا به
ما هو الأصلح في حالة المرأة التحجب أم الابتذال؟

العفة والأمانة والحياة:

كل من تأمل في أحكام الشرع الشريف ومبادئه وجدها تحث على الفضائل ومكارم الأخلاق وتنهى عن الرذائل ومن ضمن ما تحض عليه العفة التي هي أمانة كل من الزوجين لصاحبه وهي فضيلة دقيقة تفيد أن لا يصدر من أحد الزوجين ما يخدش صداقته للآخر وهي لذلك ينبغي أن يحرص عليها ولو كانت عزيزة وقلَّ من اتصف بها في أعلي

obeikandl.com

درجات كمالها فهي عصمة معنوية وهي أساس روابط الجمعية البشرية لأن عقد الزواج بمجرد انتهائه رابط أحد الطرفين بالآخر ومشروط فيه الأمانة ضمنا على الوجه الذي قضته الحكمة الألهية فتقصير أحد الزوجين في تأدية حقوق الزوجية يعد مضاداً للأمانة الواجبة على كل من الزوجين على حد سواء. وبالنظر للعرف يقتضي أن تكون الأمانة في المرأة أوكد وإن كانا مشتركين فيها وسبب ذلك أن جميع الأمم على اختلاف مشاربها ونحلها قد اتفقت على أن تطالب المرأة بالصيانة والعفة وسلوك سبيل الحياة أكثر مما تطالب به الرجل. قال عليه الصلاة والسلام: "**الحياء حسن ولكنه من النساء أحسن**". وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: "**إن الله إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء**"، وقال صلى الله عليه وسلم: "**إن لكل دين خلقا وخلق هذا الدين الحياء**"، وقال أيضاً صلوات الله عليه: "**إن الله يحب الحيي الحليم ويبغض الفاجر البذي**"، فلذلك وجب أن تتعود البنت من صغرها على الحياء والتخلق بهذا الخلق الذي اختاره الله سبحانه وتعالى لدينه القويم كما قدمنا لأن المرأة متى خلعت ثوب الحياء فكأنها تنازلت عن سلوك سبيل العفاف والصون حيث إن خلع ثوب الحياء منها علامة قوية على نية خدش الأمانة التي يترتب عليها من العواقب الوخيمة ما لا نهاية له. فإن الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته الربانية وضع النسل في بطون الأمهات فلا يباح للنساء هتك حرمة هذا النسب فإذا تخلت المرأة عن العصمة ربما دست في العائلة ما ليس منها. وناهيك بما يترتب على ذلك من المضار والفساد. فأوجب العقل والنقل والشرع والطبع على الزوجين في كل مكان وفي كل زمان أن يعيشا على الأمانة التامة كما يقتضيه عقد الزواج، فلذلك وجب أن يتمسك كل منهما مع غاية في الدقة والانتباه بهذه الفضيلة التي

يترتب عليها صون النسب فتمتنع الوساوس والشكوك والريبة في طهارة الأنساب التي حفظها من ضروريات الدين والملك والعمران كما هو معلوم للعموم ولا يختلف فيه اثنان.

الحجاب أعظم فائد للعفة

فنظراً لما تقدَّم ولكون الغيرة من الايمان وما من امرئ لا يغار إلا منكوس القلب كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم اهتم كل الأمم بما يدفع الارتياب ويريح القلب والفؤاد من الوساوس والأوهام ولم يكن ديننا القويم بالمقصر في تبيين أنجح دواء لهذه الأدواء فأمر بالحجاب بمعنييه[105] وتمسَّك به المسلمون في كل عصورهم وبلدانهم لأنه الطريق المغني عن الغيرة ومما يوجب زيادة ائتلاف المرأة بأهلها ويؤكد ارتباطها بزوجها وأمنه عليها ورضاها بحاله. كيف لا وهو بلا شك أحسن وأفيد ما جرب الأقوام من طرق الاحتراس للصون والعفة ولإراحة النفس من الشكوك والارتياب فلقد دلت التجاريب على أن لا نطاق عفة يفيد ولا تربية تقوى على صد تيار القوة الشهوانية الغريزية في الإنسان ولا على رد جماحها عند الثوران مهما بلغ تهذيب المرأة فإن كثرة علومها تصل إلي حد

([105]) جاء في كتاب "صناجة الطرب في تقدمات العرب" تاليف نوفل أفندي بن نعمة الله جرجس نوفل الطرابلسي ما يأتي لدي كلامه على العشق في الأعراب: "لا يخفي بأن أصل دواعي العشق في البادية هو لكون نساء العرب في الجاهلية لم يتبرقعن أصلا لأن لبس البراقع للنساء هو أمر حادث في نساء الحضر أوجبته الشريعة الإسلامية منذ أنزلت آية الحجاب ومن ثم أمرت بعدم تمكن الرجال من رؤية النساء. (من هوامش الأصل).

التلطف والتحايل على أداء الغرض بصورة لا تنكر عليها – متي تهيأت لذلك الأسباب – لا إلي مغالبة الفطريات والغرائز.[106]

قال حضرة أحمد ذكي بك سكرتير ثاني **مجلس النظار** في كتابه: "**السفر إلي المؤتمر**" بعد أن أورد شواهد عديدة على ما يقول: "**إن المرأة بعد كل تهذيب أراها ضعيفة ميالة أكثر من الرجل لداعي الشهوات والتفاني في الملاذ. فالواجب أن تكون لهن الحرية كالملح في الطعام. فإن التعليم ليس بقادر إن نزع منهن هذه الأميال وأن نزع منهن الخرافات التي يبثها في عقول الأطفال**".

وقال أيضاً بعد أن أورد نقلاً عن بعض العلماء الألمانيين في الفرق الفاحش بين خيانة المرأة الغربية والمرأة الشرقية لزوجها في عرضه: "**فإذا سلمنا بهذا الحساب الذي استنتجه ذلك الألماني**[107] **رأينا أن في التحجب وفيما يقرب منه فائدة عظيمة في**

([106]) جاء في جرنال فرنسا الرسمي من سنوات أن عدد الزناة في فرنسا من الرجال واحد وسبعون من المائة. ولابد وأن يكون العدد قد ازداد لتقدم الفساد. وجاء في تاريخ موسهيم كيف أن كثيرين ممن بلغوا في مجرد التربية أقصاها وفي المعارف منتهاها من أعيان الرجال والنساء استعصي جموح نفوسهم الشهوية عن الانقياد لمقتضى التربية وهو بها إلي الحضيض فيما تنزه الاسماع عن ذكره فليراجعه من أراد. (من هوامش الأصل).

([107]) جاء في "تقويم ترويج النفوس" المكتوب باللغة الفرنساوية عن سنة **1983** ما خلاصته أن العلامة الألماني (كستنر) أحد أساتذة (ليبسيك) وصاحب التصانيف العديدة المشهورة نشر كتاباً فيه أبحاث علمية دقيقة مستوفاة تكلم فيه على حركة ازدياد المواليد ونقصها في البلدان المختلفة مستندا على الأرقام وقد أدته ملحوظاته وحساباته إلي إثبات النتائج الآتية بحسب التعديل المتوسط وهي:

صيانة الأعراض". وفي الواقع فليس من ينكر أن اجتماع النساء والرجال في مكان واحد – خصوصا بلباس الزينة الذي يستحيل أن تخرج أو تختلط المرأة بدونه – يحدث تيار غرام كهربائي لا يقطعه إلا الوصال: فإن الإنسان ليس في سعته مغالبة شهواته بالوازع العقلي ولا بالوازع الديني إذا أبيح الابتذال كما اعترف بذلك كثيرون، وذهبت أقوال بعضهم مجري الأمثال. وناهيك بالمثل الألماني القائل: **"يلزم أن تحفظ البنت وسط الأربعة أناجيل أو وسط أربعة جدران"** إشارة إلي أن لا شيء يفيد سوي الحجاب لاستحالة العمل بالشق الأول.

لذلك حافظ المسلمون على الحجاب كما قلنا وحذروا من تركه: فكان الصحابة رضي الله عنهم يسدون المنافذ والثقوب التي في الجدران لئلا يطَّلِع منها النساء علي الرجال أو الرجال على النساء. ورأى معاذ امرأته تطلع في الكوة فضربها. وكان علي كرم الله وجهه يقول: **"اكفف أبصارهن بالحجاب فإن شدة الحجاب خير لهن من الارتياب"**، وليس خروجهن بأضر من دخول من لا يوثق به عليهن فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل. **وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة عليها السلام:**

أن المرأة الألمانية تخون زوجها في عرضه 7 مرات والبلجيكية ست مرات وأربعة أخماس مرة (بحسب التعديل المتوسط) والإنكليزية خمس مرات والنمساوية أربع مرات ونصف مرة والهولاندية أربع مرات والسويدية أو الدانيمركية مرتين والطليانية مرة وخمسة أسداس المرة والفرنساوية مرة واحدة والأسبانية سبعة أثمان المرة والبرتغالية واليونانية خمسة أسداس المرة. والصربية والبشناقية والتي من الجبل الأسود والبلغارية ثلثي مرة. والتركية (ويعنون بهذه اللفظة المسلمة وغير المسلمة من الشرقيات) عشر المرة الواحدة." أ هـ من كتاب السفر إلي المؤتمر. (من هوامش الأصل).

أي شيء خير للمرأة ؟ فقالت : "إن لا تري رجلا ولا يراها رجل"، أي من الأجانب فضمها إليه وقال: "ذرية بعضها من بعض". وقال الحسن رضي الله عنه: "لا تدعوا نساءكم فيزاحمن العلوج في الأسواق قبح الله تعالى من لا يغار". وقال عمر رضي الله عنه: "أعروا النساء يلزمن من الحجاب"، إشارة إلي أنهن لا يرغبن الخروج في الهيئة الرثة. ولقد بلغ حرص الصحابة على تشديد الحجاب إلي أن اجتهد بعضهم في منع النساء حتى من الخروج إلي المساجد، فأتوا حيلاً حيت النساء في القعود في منازلهن. يدل على ذلك ما روي عن عمر وعن الزبير بن العوام رضي الله عنهما فإنهما لما شق عليهما خروج زوجتيهما إلي المسجد للصلاة ولم يكن في استطاعتهما منعهما عن ذلك لحديث: **"إذا استأذنت امرأة أحدكم إلي المسجد فلا يمنعها" فتعرَّض كل منهما لزوجته ليلة في ظهر المسجد وهي لا تراه وضربها على عجيزتها فرجعت امرأة عمر قائلة: "نعم ما رأيت فقد فسد الزمان" وقالت عاتكة امرأة الزبير لما قعدت عن الخروج وسألها زوجها ألا تخرجين يا عاتكة: "كنا نخرج إذ الناس ناس وما بهم باس وأما الآن فلا."**

فهل بعد هذا دليل وإثبات على أن الحجاب دافع أوهاماً وارتياباً وشكوكاً، وحصن حصين للعفة والصيانة؟ وهل بعد ذلك دليل وإثبات على أن الصحابة كانوا يحجبون نساءهم وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستحسن ذلك ويعجب به؟ وسنورد طرفا من أحاديثه الشريفة في هذا المعني. فهلا يكون لنا أسوة حسنة بهم جميعا وهم هداة الأنام؟ أليست هذه السنة سنة مثلى يجب أن نسير عليها ما دام في الدنيا رجال ونساء؟

الحجاب شرعي يأمر به الدين

إذا تقرَّر ذلك وعلمنا أن الحجاب من لوازم العفة والأمانة والصون وأن الصحابة كانون متمسكين به ويتفانون في تشديده لأنه أصل من أصول الأدب ولأن المحافظة على العرض من أهم أركان مكارم الأخلاق التي بُعِث النبي صلى الله عليه وسلم لتتميمها وثبت أن الحجاب أحصن حصن لهذه المحافظة وجب أن يكون القرآن الكريم والسنة الشريفة حاثين عليه آمرين به. ولو كان القرآن والسنة لم يأمرا بالحجاب لما تمسك به الصحابة ورضوا بمخالفتهما ولما أقر رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه المخالفة لأمر الله بل لما حض على استعمال الحجاب بمعنييه وهما القصر في البيت وستر الوجه كما سنري. فلنورد إذا بعض النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والواردة في هذا الشأن ولننظر أمر الله بالحجاب وحث عليه رسوله أم لا. فنقول:

قال حضرة صاحب كتاب "**تحرير المرأة**":

"لو أن في الشريعة الإسلامية نصوصاً تقضي بالحجاب على ما هو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب على اجتناب البحث فيه ولما كتبت حرفاً يخالف تلك النصوص مهما كانت مضرة في ظاهر الأمر لأن الأوامر الإلهية يجب الإذعان لها بدون بحث ولا مناقشة. لكننا لا نجد نصا في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة. وإنما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين والدين براء منها ولذلك لا نرى مانعا من البحث

فيها بل نرى من الواجب أن نلم بها ونبين حكم الشريعة في شأنها وحاجة الناس إلي تغييرها"([108]) أ. هـ.

ونحن لا نلام إذا كنا نخالفه في هذا الفكر وقلنا إن في الشريعة نصوصاً تقضي بالحجاب الشرعي ونعني به ستر البدن بأكمله وملازمة المرأة خدرها إلا لضرورة. أما الحجاب الحالي فلا شك أنه بدعة لم يأمر بها دين ولم يقل بها شرع ولذلك لا نري مانعاً من البحث في تلك النصوص: جاء في الكتاب العزيز: "**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ**"([109]).

هذه آية جمعت فأوعت إذ أمرت الرجل والمرأة مما يغض النظر وحفظ العرض وأمرت النساء زيادة على ذلك بأن لا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها أي من الزينة لأن لست أدري ما الداعية للتكلف في التأويل والقول كما قال حضرة صاحب تحرير المرأة من

([108]) **تحرير المرأة – قاسم أمين – المستشار بمحكمة استئناف مصر – ملتزم الطبع محمد كامل علي صاحب مطبعة الترقي ومطبعتها – 1899 – طبعة حديثة مصورة عن هذه الطبعة – نشر: مكتبة الآداب – مصر – 2003 – صفحة 56.**

([109]) **سورة النور: 30 – 31.**

أن الشريعة أباحت في هذه الآية أن تظهر المرأة بعض أعضاء من جسمها أمام الأجنبي عنها ما دام المعنى ظاهراً لا يحتاج لهذا التعسف.

ولقد حلت لنا هذا الأشكال السيدة عائشة رضي الله عنها وناهيك بالسيدة عائشة فإنها هي التي قال في شأنها النبي صلى الله عليه وسلم –كما يعترف به حضرة صاحب كتاب **تحرير المرأة** نفسه – "**خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء**"([110]) فقد سئلت عن الزينة الظاهرة فقالت: "**هي الكحل والخضاب**"([111]) أفليس هذا القول هو الفصل والحاسم لكل نزاع في هذا الموضوع؟

([110]) **قال ابن القيم: "كل حديث فيه "يا حميراء" أو ذكر الحميراء فهو كذب مختلق". (المنار المنيف ونقله العجلوني في كشف الخفاء). وقال الإمام الذهبي: "وقد قيل إن كل حديث فيه يا حميراء لم يصح"(سير أعلام النبلاء). وقال ابن كثير: "وأما الحديث الثاني وهو (خذوا شطر دينكم عن الحميراء) فهو حديث غريب جدا بل هو منكر سألت عنه شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي وقال: لم أقف له على سند إلى الآن. وقال شيخنا أبو عبد الله الذهبي: هو من الأحاديث الواهية التي لا يعرف لها إسناد. (تحفة الطالب). وقال الحافظ ابن حجر: "لا أعرف له إسنادا ولا رأيته في شيء من كتب الحديث إلا في النهاية لابن الأثير ذكره في مادة ح م ر ولم يذكر من خرَّجه ورأيته في الفردوس بغير لفظه وذكره عن أنس بغير إسناد بلفظ: "خذوا ثلث دينكم من بيت الحميراء". (كشف الخفاء). ولا يفهم من ذلك انتقاص منزلة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقد قال مسروق: "رأيت مشيخة أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الأكابر يسألونها عن الفرائض"، وقال عطاء بن أبي رباح: "كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس".**

([111]) **الخضاب: الحناء.**

وإلا فما معني أن نمنع المرأة من إبداء زينتها ويرخص لها بكشف الوجه؟ وإذا لم يكن الوجه هو عين الفتنة وأعظم زينة يجب عدم إبدائها فما هي إذا الزينة التي أشار إليها القرآن الكريم؟ جاء في "**البحر**": "**والأقرب دخول الخلقة في الزينة. وأي زينة أحسن من الخلقة المعتدلة**".

ولم يختلف أحد من الصحابة في ذلك ولا في أن المقصود من هذه الآتية منع كشف الوجه بحضرة الأجانب بدليل استعمالهم الحجاب وحثهم على تشديده كما أسلفنا وبدليل فهم الآية على هذا الوجه كما ستري: روي عن ميسون الكلابية أن معاوية دخل عليها – لأنه كان زوجها – ومعه خصي فتَقنَّعَت([112]) منه. فقال: هو خصيٌّ فقالت: "**يا معاوية أتري أن المثلة به تحلِّل ما حرَّم الله تعالى؟**". فلو كان كشف الوجه مباحا ما تقنعت وما عدته حراما حرمة الله. بل ولما اعتذر لها معاوية بأنه خصي أي داخل في ظنه ضمن أولي الإربة([113]) الذين قد يباح التكشف بحضرتهم ولما أقرها على ما فعلت[114] وكان عمر يقول: القناع للحرائر: ويمنع الإماء من التشبه بهن في ذلك وأخرج

([112]) **تَقنَّعَت: سترت وجهها من ارتداء قناع على الوجه.**

([113]) **النص هكذا في الطبعة الثانية التي اعتمدنا عليها وأشرنا إليها سلفا، وبالرجوع للطبعة الأولى المصورة الصادرة حديثا عن مكتبة الآداب بمصر (2003) وجدنا النص مطابقا، لكن الأرجح أن كلمة "غير" سقطت من الطبعتين، فالسياق هو عن: "غير أولي الإربة" وليس عن "أولي الأربة".**

([114]) **كان العرب لا يعرفون خصاية الإنسان أصلا. وكان ذلك شائعا في الروم فلم يرد في الشرح نص في استعمال الخصيان الاستعمال الذي كان عليه بعض العائلات الكبيرة لعهد غير بعيد إنما كان أمر استعمال الخصيان من الأمور الاجتهادية قياسا على غير أولي الإربه الذين أباح الله في الآية**

أو داود والنسائي عن عائشة أنها قالت: "**أومات امرأة من وراء ستر بيدها كتاب إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبض صلى الله عليه وسلم يده فقال ما أدري أيد رجل أم يد امرأة فقالت بل يد امرأة فقال: لو كنت امراة لغيرت أظفارك**" يعني بالحناء. فهلا يؤخذ من هذا أن النساء كن يتبرقعن وكن يستترن حتى عن النبي؟ وهلا كان قول علي: "**اكفف أبصارهن بالحجاب**" أعظم دليل عن أن المراد بغض الأبصار لزوم الحجاب؟

وهل يفهم لذلك معني سوي أن جميع الصحابة كانوا فاهمين أن النساء مأمورات بالتقنع وأنهم كانوا حريصين على تنفيذ ذلك الأمر؟ أليس إذا أشكل أمر يرجع إلي القرآن والسنة أو الإجماع؟ وهذا هو القرآن أمر بالحجاب بهذه الآية وبما ستري من الآيات. وهذه هي السنة حاثة عليه كما رأيت وكما ستري. واجماع الصحابة متفق عليه كما رأيت. وإذا نظرنا إلي العادة التي كانت جارية وقت نزول هذه الآية وجدنا حضرة محرر المرأة نفسه

السابقة إبداء الزينة أمامهم. والإربة هي حاجة الرجال إلي النساء. وكان معاوية في عهد خلافته أول من رأى هذا وجعله مذهباً اجتهاديا فلما اقتنى خصياً وأراد أن يدخله على بعض نسائه كما تقدَّم امتنعت من ذلك فاحتج بكونه خصياً فقالت له أن المثلة به لم تحل منه ما حرم الله. ولم ير غيره من أهل الاجتهاد جواز ذلك فكان استعمال الناس للخصيان تقليدا لمذهب معاوية الذي هو من الشرعيات الاجتهادية دون النصية. ولقد ترتَّب على ذلك من الآثار المذمومة ما لو اطلع عليه معاوية لكان عساه أن يحكم بتحريمه: وليس ما نتج من استعمال الأغاوات سببا للحط من الدين فهو بدعة دخلت بلادنا كغيرها من البدع ولم تكن من عوائد المسلمين السابقة ولا اللاحقة ولم يرد بها شرع فلا ينسب إلي الشرع ما خرج عن حدوده ولا يصح أن ينسب إلي الدين ما حدث بالبدعة. (من هوامش الأصل).

يقول:"**إن الانتقاب والتبرقع هما من العادات القديمة السابقة على الإسلام والباقية بعده**"([115])، فما هو وجه الأشكال إذا؟ هل قال أئمة الدين وعلماء المسلمين بما يخالف ذلك الإجماع وبكشف الوجه واليدين مطلقاً كما يدعون عليهم؟ أين الدليل على هذا القول وهاكم الأئمة كلهم تابعون لقول الله العظيم وسنة نبيه الكريم ولم يقل أحد منهم برفع الحجاب؟ غاية ما قالوه جواز كشف الوجه والكفين إذا حلت ضرورة تبيح ذلك المحظور وأمنت الفتنة. فيا بُعد هذا القول مما يتقولون عليهم!!

ولزيادة الإيضاح نقول إنه لم يختلف كذلك أحد من الصحابة في أن المراد من قوله تعالى: "**إلا ما ظهر منها**" ليس هو إلا الزينة بدليل أنهم لم يسألوا عائشة إلا عن الزينة الظاهرة ولو كان الأمر بخلاف ذلك وكان القصد استثناء بعض أعضاء كما يزعمون لسألوها عن الأعضاء التي لا تدخل تحت حكم عدم الإبداء.

وجاء في تفسير "**روح المعاني**" للعلامة الشيخ الألوسي: "**ولا يبدين من زينتهن إلا ما ظهر منها" أي إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره والأصل فيه الظهور كالخاتم والفتخة والكحل والخضاب فلا مؤاخذة في إبدائه للأجانب وإنما المؤاخذة في إبداء ما خفي من الزينة كالسوار والدملج والقلادة والخلخال والإكليل والوشاح والقرط. وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتستر لأن هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها إلا لمن استثني في الآية بعد**"، وقال ابن المنير وهو مالكي مشهور. "**الزينة على حقيقتها وما يأتي إنشاء الله تعالى من**

([115]) **تحرير المرأة – قاسم أمين – مصدر سبق ذكره – صفحة 65.**

قوله عز وجل. "**ولا يضربن بأرجلهن**" الآية. يحقق أن إبداء الزينة مقصود بالنهي. وأيضاً لو كان المراد من الزينة موقعها للزم أن يحل للأجانب النظر إلي ما ظهر من مواقع الزينة الظاهرة وهذا باطل: "**لأن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلي شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمَل الشهادة**".

وروي الطبراني والحاكم وصححه ابن المنذر وجمع آخرون عن ابن مسعود أن "**ما ظهر**" الثياب والجلباب، وفي رواية الاقتصار علي الثياب وعليها اقتصر الإمام أحمد. وقد جاء إطلاق الزينة عليها في قوله تعالى: "**خذوا زينتكم عند كل مسجد**"([116]) على ما في "**البحر**". وروي عن ابن عباس أن ما ظهر الكحل والخاتم القرط والقلادة. وعن الحسن أنه الخاتم والسوار وقال ابن بحر: "**الزينة تقع على محاسن الخلق التي فعلها الله تعالى وعلى ما يتزين به من فضل لباس والمراد في الآية النهي عن إبداء ذلك لمن ليس بمحرم واستثني ما لم يمكن اخفاؤه في بعض الأوقات**"، وقال بعض المفسرين: إن قوله تعالى "**ما ظهر منها**" أي من غير إظهار إن كشفته ريح أو لضرورة.

هذا وهل يمكن باختلاط الرجال مع النساء وكشف وجوههن غض بصر الرجل عن المرأة وبالعكس كما هو صريح هذه الآية الشريفة؟ أليست مبادئ ميل الإنسان إلي الشهوات إنما هي الاجتماع. والميل للشيء لا يكون إلا بعد رؤيته والرؤية كما أجمع العقلاء سبب التعلق والفتنة؟ أليس وجوب الغض المأمور به في هذه الآية يوجب حرمة الاختلاط لاستحالة الاختلاط مع غض النظر؟ أما تدل هذه الآية على طلب المبالغة في

([116]) **سورة الأعراف: 31.**

الاحتياط في أمر النساء وعلى أن الأحوط لهن لزوم البيت الذي هو محل شغلهن والتباعد عن الرجال وعدم اختلاطهن بهم لعدم الضرورة لذلك وتباعدهن عن الحضور في المجتمعات والهيئات؟ ألم تدل التجاريب على أنه متي تأثرت العين بنقل الصورة وصلت الحركة الاستحسانية إلي المخ في أسرع وقت وهو يردها إلي الأعضاء هياما وثورة غرام؟ جاء في بعض الآثار: أن "**النظر سهم مسموم من سهام إبليس**". وقال الألوسي في تفسير قوله تعالى "**ذلك أزكى لهم**": "**أي أطهر من دنس الريبة وأنفع من حيث الدين والدنيا فإن النظر بريد الزنا وفيه المضار الدينية والدنيوية ما لا يخفى**".

قال الشاعر:

والمرء ما دام ذا عين يقلبها

في أعين الغيد . موقوف على الخطر([117])

يسر مقلته ما ساء مهجته

لا مرحبا بانتفاع جاء بالضرر

ولسنا نتكلف إيراد دليل على ذلك أعظم مما ذكر في أسباب نزول هذه الآية فإن سبب الواقعة التي ترتب عليها نزولها كان الفتنة من النظر إلي محاسن امرأة في الطريق فافتتن الرجل واختبل في فكره وعقله وسيره حتى اختبط في حائط وهو لا يدري ماذا يفعل ولا يعي وسال دمه كما ترى:

([117]) **الغيد: جمع غادة وهي الحسناء.**

أخرج ابن مردوية عن على كرم الله وجه قال: "**مر رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق من طرقات المدينة فنظر إلي امرأة ونظرت إليه فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما للآخر إلا إعجابا به فبينما الرجل يمشي إلي جنب حائط وهو ينظر إليها إذ استقبله الحائط فشق أنفه فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أمري. فأتاه فقص عليه قصته فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: هذا عقوبة ذنبك. وأنزل الله تعالى هذه الآية.**

فأمر الرجال بغض الأبصار وبحفظ فروجهم وأمر النساء بذلك وبشيء آخر أزيد منه: وهو ستر الزينة والمحاسن وعدم إبدائها حتى لا يعود أحد يفتتن بهن. ومن هذا لزم ستر وجه المرأة لأنه داعية الفتنة كما قدمنا.

ولو كان المراد من هذه الآية إظهار بعض أعضاء وهي الوجه والكفان بدون قيد ولا لضرورة فبم نفسر قوله تعالى: "**وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**"([118]) جاء في تفسير "**روح المعاني**": "**أي أن استعفافهن خير لهن من الوضع لبعده من التهمة فلكل ساقطة لاقطة، وجاء فيه أيضاً أن المراد بثيابهن الثياب الظاهرة كالجلباب والرداء والقناع الذي فوق الخمار**"[119].

([118]) سورة النور: **60**.

([119]) **أخرج ابن المنذر عن ميمون بن بهرام أنه قال في مصحف أبي بن كعب ومصحف ابن مسعود: "فليس عليهن جناح أن يضعن جلابيبهن". وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود وابن عباس رضي**

فهذه آية دلت على وجوب الستر والاحتجاب على الكواعب وأباحت للقواعد أن يرفعن قناعهن إن أردن وإن يكن التستر وعدم رفع ذلك خيرا لهن وأسلم وأبعد عن التهمة.

على أنه إذا كانت وجوههن وأيديهن مكشوفة من الأصل فماذا يمكن أن يباح لهن أزيد من ذلك؟ هل يمكن أن يقال أن الله أمرهن بإبداء باقي بدنهن وجسمهن؟ اللهم إن هذا تضليل ومغالطة لا يرضيانك!

هذا وحرصا على الحجاب وحثا على وجوبه وتشديده قال الله تعالى: "**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم. وإذا سألتموهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن**"([120])، أي أكثر تطهيراً من الخواطر الشيطانية التي تخطر للرجال في أمر النساء والنساء في أمر الرجال لما يترتب على الرؤية من التعلق والفتنة كما أسلفنا القول. وقال أيضا: "**يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَد مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلا مَّعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى**"([121]) فهذه آيات تفيد جميعها أن الله سبحانه وتعالى أمر بالحجاب بمعانيه كلها وأنها وإن كان المخاطب بها نساء النبي لكن المقصود منها بلا

الله عنهما أنهما كانا يقرآن كذلك ولعله لذلك اقتصر البعض في تفسير الثياب على الجلباب. (من هوامش الأصل).

([120]) **سورة الأحزاب 53.**

([121]) **سورة الأحزاب 32 – 33.**

شك أمر نساء المؤمنين كلهن بهذا الحكم تبعا لهن. لأنها إنما تأمر بآداب والأدب مطلوب للجميع. قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات. هذه آداب أمر الله بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم ونساء الأمة تبع لهن في ذلك ولا شك أن هذا من باب الخصوص الذي يقصد منه العموم وهي قاعدة أصولية اتفق عليها فحول علماء الأصول فقالوا: "**إن العبرة في آي الكتاب وأخبار السنة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**" ولا يعتد بقول من يقول أن هذه الآيات خاصة بنساء النبي ولا تنطبق على غيرهن بدليل قوله تعالى: "**لَسْتُنَّ كَأَحَد مِّنَ النِّسَاء**" إذ لماذا لا نقول إن الحجاب كان معروفاً مستعملاً عند جميع نساء المسلمين كما ثبت مما قدمنا، ولم يكن غير محتجب إلا نساء النبي صلى الله عليه وسلم لأنهن معتبرات "**أمهات المؤمنين**" بقوله تعالى: "**وأزواجه أمهاتهم**"([122]) ولا موجب للأم أن تحتجب على ابنها فظنن أنهن لذلك غير داخلات في حكم ذلك المنع والاحتجاب. فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين لهن أن الحجاب واجب عليهن أيضاً لأنهن لسن كأحد من النساء في الثواب والعقاب بل يضاعف لهن كل من ذلك لعلو مقامهن ومكانتهن: قال الله تعالى: "**يٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً** "([123])، قال في ذلك ابن عباس

([122]) **سورة الأحزاب 6.**

([123]) **سورة الأحزاب 30 – 31.**

رضي الله عنه: "**يريد ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات: أنتن أكرم عليّ وثوابكن أعظم لدي أن اتقيتن الله فأطعنه فإن الأكرم عند الله الأتقي**".

ولعمري ليس في ذلك شيء من الغرابة. أليس العمل الواحد يعمله شخص فيعاقب عليه عقوبة خفيفة ويعمله الآخر فيضاعف عقابه؟ أليس من أصول التشريع أن التعزير يختلف باختلاف درجات الإنسان؟ أليس البعض يضرب بالعصا والبعض تكفيه الإشارة؟ وإلا فما معني أن نساء النبي المعتبرات كما قلنا أمهات المؤمنين فلا يجوز النظر إليهن ولا التطلع لهن يؤمرن بالاحتجاب عن أولادهن وغيرهن ممن يطمع فيهن لا يؤمرن به؟

ولو أضفنا إلي ما تقدَّم إيراده من الأحاديث وأخبار الصحابة وأقوالهم قول عائشة رضي الله عنها: "**رحم الله نساء الأنصار لم يكن الحجاب يمنعهن أن يتفقهن في الدين**" لزال كل شك وارتفع كل التباس وعلمنا أن جميع النساء كن مأمورات بالحجاب عاملات به: وهذا ما يسفاد أيضاً من أسباب نزول آية الحجاب. أخرج البخاري وابن جرير وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال: "**قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله يدخل عليك البار والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب. فأنزل الله تعالى آية الحجاب**. وأخرج ابن جرير عن عائشة: أن أزواج النبي عليه الصلاة والسلام كن يخرجن بالليل إذا برزن إلي المناصع وهو صعيد أفيح. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول للنبي أحجب نساءك فلم يكن رسول الله يفعل انتظاراً لأمر ربه — وإلا فهو كان أشد غيرة كما تدل على ذلك أحاديثه الشريفة — فخرجت سودة بنت

زمعة رضي الله تعالى عنها ليلة من الليالي عشاء وكانت امرأة طويلة فناداها عمر رضي الله تعالى عنه بصوته الأعلى: "**قد عرفناك يا سودة**"، حرصاً على أن ينزل الحجاب فأنزل الله تعالى آية الحجاب وفي "**مجمع البيان**" للطبري: "**أن مجاهدا روى عن عائشة أنها كانت تأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيسا في قعب فمر عمر فدعاه عليه الصلاة والسلام فأكل فأصابت أصبعه أصبع عائشة فقال لو أطاع فيكن ما رأتكن عين. فنزلت آية الحجاب**".

ولا يبعد أن يكون مجموع ما ذكر سببا لنزوله: ومنه يستفاد أن الحجاب كان معهوداً واجباً على نساء المؤمنين ولم يكن ينقص إلا أن تحجُّب نساء النبي. فلماذا كان حرص عمر لهذا الحد بخصوص أمهات المؤمنين وترك نسائه وباقي النساء؟ أما كان الأولى به أن يبدأ بنفسه خصوصاً وشدة غيرته مشهورة معلومة؟

وفضلاً على ذلك فإن في قوله تعالى: " **وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى**"([124]) إشارة لطيفة إلى أن هذه العادة. عادة التبرج وهو الظهور وعدم التستر إنما كانت عادة الجاهلية الأولى التي لا شرع لها واندثرت بزوال تلك العصور – عصور الجاهلية والهمجية والتوحش – لم يعد يليق الرجوع إليها في زمن التمدن الحقيقي وقد بزغ نور الإسلام. ولو كان المقصود احتجاب نساء النبي فقط دون باقي النساء لكان التبرج باقيا ولما صح أن يقال عنه : "**تبرج الجاهلية الأولى**" بل كان الأقرب أن يقال: "**ولا تبرجن تبرج باقي النساء لأنكن لستن كأحد منهن**".

([124]) **سورة الأحزاب: 59.**

هذا وقوله تعالى: "**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**"([125]) قد أزال كل التباس أن كان هناك وجه للالتباس، وجاء متمماً للحكم بستر المرأة جميع بدنها، وتعميم هذا الحكم على جميع النساء، في جميع الأوقات ليلاً ونهاراً.

وفي الواقع أليس معني ذلك أن نساء المؤمنين عامة أمرن بأن يغطين وجوههن التي يعرفن بها. وأي شيء يعرف الإنسان به غير وجهه قال عمر رضي الله عنه: "**القناع للحرائر لكيلا يؤذين**" وقال السدي في "**أسباب النزول**": "**كانت المدينة ضيقة المنازل وكان النساء إذا كان الليل خرجن فقضين الحاجة وكان فساق المدينة يخرجون فإذا رأوا المرأة عليها قناع قالوا هذه حرة فتركوها وإذا رأوا المرأة بغير قناع قالوا هذه أمة فكانوا يراودونها فأنزل الله تعالى هذه الآية ألا يفهم من ذلك أن القناع كان مستعملا لدي الخروج نهارا وأن بعضهن كن يخرجن بدونه في جنح الظلام لقضاء حاجتهن ظنا منهن أن لهن من ظلام الليل وحلكته حجابا آخر يغنيهن عنه فخاب ظنهن وتطاول الأشرار عليهن فشدد الله تعالى في الأمر بالتستر وبأن لا يرفعن الحجاب متي برزن من خدورهن ليلاً كان أو نهاراً لما في ذلك من زيادة الصون والحرص على الآداب**".

ولقد اتفق أغلب المفسرين على أن المراد من ذلك وجوب ستر المرأة رأسها ووجهها وجميع بدنها بحيث لا يظهر منها إلا عينا واحدة وقيل عيناها. قال ابن عباس في

([125]) **سورة الأحزاب 59**.

ذلك: "**أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عينا واحدة**". وقال أبو حيان: "**أي ذلك أولي أن يعرفن لتسترهن بالعفة فلا يتعرضن لهن أحد ولا يلقين بما يكرههن لأن المرأة إذا كانت في غاية التستر والانضمام لم يقدم عليها أحد بخلاف المتبرجة فإنه مطموع فيها**". وعن أم سلمة قالت: "**لما نزلت هذه الآية – يدنين عليهن من جلابيبهن – خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن ألبسه سود يلبسنها**".

والأحاديث الشريفة على وجوب الحجاب بمعنييه كثيرة منها ما تقدَّم ومنها ما يأتي: أخرج أبو داود والترمذي وصححه والنسائي والبيهقي في سننه عن أم سلمة: "**أنها بينما كانت هي وميمونة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ابن أم كلثوم فدخل عليه الصلاة والسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجبا منه فقالت أم سلمة. يا رسول الله هو أعمى لا يبصر فقال: أفعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه؟**"([126]) واستدل به من قال بحرمة نظر المرأة إلي شيء من الرجل الأجنبي مطلقا.

([126]) **هناك خطأ في اسم الصحابي المشار إليه في الطبعتين الأولى والثانية من الكتاب، فهو عبد الله بن أم مكتوم وليس عبد الله بن أم كلثوم، والحديث في مسند أحمد: روى الإمام أحمد في مسنده عَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ نَبْهَانَ حَدَّثَهُ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ حَدَّثَتْهُ قَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَيْمُونَةُ فَأَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَنَا بِالْحِجَابِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: احْتَجِبَا مِنْهُ. فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ أَعْمَى لَا يُبْصِرُنَا وَلَا يَعْرِفُنَا؟ قَالَ: أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا، أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ؟! والحديث: أخرجه أبو داود (4112)، والترمذي (2778)، وقال الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.**

وأخرج الترمذي والبزار عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**إن المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قعر بيتها**". وأخرج البزار عن أنس قال: "**جئن النساء إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن يا رسول الله ذهبت الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله فهل لنا من عمل ندرك به فضل المجاهدين؟ فقال عليه الصلاة والسلام: من قعدت منكن في بيتها فإنها تدرك المجاهدين في سبيل الله تعالى**".

على أن الشرع قد صرح للنساء بالخروج في أحوال مخصوصة عند الضرورة كخروجهن للمسجد والحج وزيادة الوالدين وعيادة المرضي وتعزيه الأقارب وغير ذلك بشروط مذكورة في محلها. والمراد أن لا يكن خراجات ولاجات طوافات([127]) في الطرق والأسواق وبيوت الناس بدون ضرورة ولا حاجة وبيتهن أولي بهن وأحوج لهن. وهذا لا ينافي خروجهن لما فيه مصلحة دينية ولا أن يخرجن لحاجتهن مع التستر وعدم الابتذال برضا أزواجهن وأن يكن القعود أسلم. قال عليه الصلاة والسلام: "**ليس للنساء نصيب في الخروج إلا مضطرة**". وقالت عائشة: "**لو علم النبي صلى الله عليه وسلم ما أحدثت النساء بعده لمنعهن من الخروج**"، فإذا كان هذه حال النساء في ذلك الوقت فكيف حالهن اليوم الذي كثرت فيه المفاسد بفضل الحرية الواسعة والابتذال ولا ردع من حاكم ولا من دين؟

([127]) **أي يكثرن من الدخول والخروج والطواف.**

والأحاديث كثيرة على أن صلاة المرأة في بيتها خير من صلاتها في المسجد مبالغة في سترها وعلى أن الأجدر بها ملازمة البيوت وعدم الخروج منها خصوصا والرجل متكفل بقوتها ونفقتها. وكذلك الشرع أباح للمرأة الاختلاط مع محارمها وهم غير قليلين وحرم عليها الاختلاط مع أجنبي والخلوة به. روي البخاري عن ابن عباس رضوان الله عليهما قال: "**قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم وقال: "والذي نفسي بيده ما خلا رجل بامراة إلا دخل الشيطان بينهما**". و"**لأن يزحم رجلا خنزير متلطخ بطين وحمأة خير له من أن يزحم منكبية منكب امرأة لا تحل له**".

دفع اعتراضات

يقول حضرة محرر المرأة أن في كتاب "**الروض**" في الذهب الشافعي نظر الوجه والكفين عند أمن الفتنة([128]) من الرجل للمرأة وعكسه جائز، وهو قول مرجوح كما يظهر مما يأتي.

جاء في "**الزواجر**" في مذهب الشافعي: "**الوجه والكفان ظهرهما وبطنهما إلي الكوعين عورة في النظر من المرأة ولو أمة على الأصح وأن كانا ليسا عورة من الحرة في الصلاة**".

([128]) **تحرير المرأة – قاسم أمين – مصدر سبق ذكره – صفحة 58.**

openkanal.com

وذكرة في "**الزواجر**" أيضا: "**حرمة سائر ما انفصل من المرأة لأن رؤية البعض ربما جر إلي رؤية الكل فكان اللائق حرمة نظره أيضاً بل قال: حرم أئمتنا النظر لقلامة ظفر المرأة المنفصلة ولو من يدها**".

وجاء في تفسير روح المعاني ما يأتي:

"**وذهب بعض الشافعية إلي حل النظر إلي الوجه والكف إن أمنت الفتنة وليس بمعوَّل عليه عندهم. وفسر بعض أجلتهم "ما ظهر" بالوجه والكفين بعد أن ساق الآية دليلا على أن عورة الحرة ما سواهما وعلل حرمه نظرهما بمظنه الفتنة فدل ذلك على أنه ليس كل ما يحرم نظره عورة وأنت تعلم أن إباحة إبداء الوجه والكفين حسبما تقتضيه الآية عندهم مع القول بحرمة النظر إليهما مطلقاً في غاية البعد فتأمل**".

وجاء في "**المنهج**" ما ملخصه أنه يحرم نظر نحو فحل ولو مراهقاً شيئاً من كبيرة أجنبية ولوامة وأمن الفتنة إلا لحاجة مع أمن الفتنة.

ولسنا ندري لماذا أخذ حضرة صاحب تحرير المرأة بالقول المرجوح من مذهب الشافعي وترك القول الراجح الذي عليه المعول عندهم. بل ولماذا نسب إلي ابن عابدين إباحة كشف الوجه والكفين أمام الأجنبي مطلقا بلا قيد مع أن ما ذكره ابن عابدين يفيد

الإباحة عند الضرورات ومع أمن الفتنة والكل مسلم بأن الضرورات تبيح المحضورات.([129])

وكذلك ما جاء في "**شرح الدليل**" لمذهب الحنابلة يفيد أن نظر الرجل البالغ ولو مجبوباً([130]) لشيء ما من الحرة التي تشتهي لا يجوز إلا لضرورة. ويدحض ما قاله حضرة محرر المرأة من أن حكم كشف الوجه والكفين معروف كذلك عند المالكية والحنابلة. وكذلك ما نقله حضرته عن الزيلعي فهو في حق الصلاة.

وكأني بمن يقول بجواز النظر لوجه المرأة عند أمن الفتنة قضي بتحريم ذلك على الإطلاق في قالب الإباحة لأنه علق ذلك على أمر مستحيل خصوصاً في هذه الأيام — مهما كابر نصراء الابتذال وأحسنوا الظن في أحوال هذا الزمان — وهو أمن الفتنة. فليس من ينكر أن الرؤية سبب التعلق وأن للإنسان النظرة الأولى وليس له الثانية: يدل على

([129]) جاء في كتاب: "الجليس الأنيس في التحذير عما في تحرير المرأة من التلبيس" في هذا الخصوص ما يأتي ملخصا: هذه (أي العبارة التي جاءت بكتاب تحرير المرأة عن ابن عابدين) ليست عبارة ابن عابدين وإنما هي عبارة "شرح التنوير" فإن هذه العبارة التي نقلها لا تعلُّق لها بما نحن فيه ولا مساس لها بالموضوع، فإنها متعلقة بالصلاة وشروطها والموضوع ستر المرأة عن الأجانب. نعم ما ذكره من قوله: "وتمنع الشابة من كشف الوجه" وكتب عليه ابن عابدين أي تنتهي عنه له مساس بما نحن فيه لكنه شاهد عليه لا له. لو أنصف لنقل من "الدر و"حاشية ابن عابدين" ما يناسب الموضوع المذكور في باب الحظر والإباحة. وعبارة الدر هناك: "وينظر من الأجنبية ولو كافرة إلي وجهها وكفيها فقط للضرورة قيل والقدم والذراع إذا أجرت نفسها للخبز". (من هوامش الأصل)

([130]) المجبوب في "لسان العرب": الخَصِيُّ الذي قد اسْتُؤْصِلَ ذكَره وخُصْياه.

ذلك أمر الله سبحانه وتعالى لكل من الرجل والمرأة بغض البصر اجتناباً لما يترتب على النظر من الفتنة فمن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

وأما سؤاله: لماذا اختص النساء بالاحتجاب والتبرقع ولِم لَم تتبرقع الرجال؟([131]) لأن كليهما مأمور بغض الأبصار. فهو قول مردود أيضاً لأن من تأمل بهذه الآية الشريفة وجدها كما أسلفنا القول تطالب الرجال بأمرين هما غض البصر وحفظ الفرج وتطالب النساء بذلك كله وبأمر ثالث هو عدم إبداء الزينة والمحاسن بسترها بالحجاب والبرقع كما قدمنا. وهذا أمر انفردن به ولم يشترك معهن في الرجال ومن ذلك يعلم السر في أن النساء كلفن بالحجاب والتبرقع دون الرجال ولله في أوامره حكم.

وزيادة على ذلك فإنه لما كان لكل من الزوجين وظيفة مخصوصة كما قدمنا وكانت وظيفة الرجل خارج بيته للسعي على معاشه ومعاش أهله ولعمار الدنيا بنمو الفلاحة والتجارة والصناعة الخ ووظيفة المرأة منزلية داخل البيت وخروجها استثناء لضرورة فتكليفها بالتبرقع أقل ضرراً ممن الأصل في خلقته بمقتضي الحكمة الإلهية وجوده خارج بيته. فضلا على أن أغلب الفتنة من النساء لأنه قد اقتضت حكمة الله تعالى أن خلق النساء والرجال من نفس واحدة ليسكن بعضهم إلي بعض ومع ذلك جعل النساء رأس الشهوات في قوله تعالى: "**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث**"([132]) وذلك لتقديم

([131]) **تحرير المرأة – قاسم أمين – مصدر سبق ذكره – 63.**

([132]) **سورة آل عمران 14.**

النساء في قلوب الرجال على جميعها وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: "**من شقوتنا أن الله تعالى قـدَّمنا حين ذكـر الشـهوات**" وروى البخاري عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**ما تركت فتنة بعدي أضر على الرجال من النساء**".

يقول نصراء الابتذال إن في الاختلاط فوائد ومزايا وأنه بمجرد تعليم البنت ما هي العفة ومزاياها تتعفف ويؤمن عليها من الاختلاط والخروج والدخول فنقول: هاتو برهانكم إن كنتم صادقين فإن النفس ميالة بالطبع إلي الشهوات أشد الميل ولا علم ولا تربية تقوى على صد تيار هوي الإنسان وشهواته إذا تهيأت أسبابه كما دلت عليه الشواهد العديدة فاحتجاب النساء كما تستدعيه وظيفتهن مما يجعل التربية تؤثر تأثيرها الحسن وهو أحفظ لحرمتهن وأسلم لشرف الرجل لما في الإطلاق من الذهاب بعفتهن كما دلت عليه المشاهدات وكما يستفاد من أقوال علماء التمدن الحالي.

ولا شك أن السبب في إفراط بعض النساء المتمدنات وخروجهن عن حدودهن الطبيعية وسوء نتيجة التربية عندهن هو اختلاطهن بالرجال وعدم احتجابهن. إذ لو كان الحجاب مقررا عندهن قبل هذا الغلو الذي وقعن فيه لأثرت فيهن التربية تأثيراً حسناً، كما قلنا، ولما انتهت بهن إلي هذه الحالة التي لا يستحسنها عاقل: فهذه بعض نساء الشرق الفلاحات اللاتي يجتمعن بالرجال اجتماعاً ما صدفة أو لغرض صحيح لما لم تبح لهم محادثة الشبان ومغازلة الغلمان ومخاصرة الفتيان ندر فيهن ترك العفة لعدم توفر الدواعي. فالعفيفة في نساء الغرب مع هذا الاختلاط الكلي حكيمة قاهرة لفطرتها دائمة الحرب بين لذتها وشرفها.

وزد على ذلك ما يترتب على الاختلاط من المضار التي ربما جرت إلي خراب البيت وتشتيت العائلة فإن المرأة إذا كانت تنظر لغير زوجها في جميع الأوقات وتطلع على معائش الناس مع اختلاف الحالات فإن ذلك قد يحرك عندها الشهوات ويجدد لها لوازم ربما أوقعت بينها وبين زوجها المنازعات والمخاصمات فيؤول الأمر إلي الفرقة وخراب البيت. وكذلك لا يعود من الاختلاط سوي تضررها بزوجها أو تضرر زوجها بها لأنه لو فرض أن زوجها فقير أو متقدم في السن واجتمعت بمن هو أغني منه أو أصغر لبطرت معيشة زوجها وكرهت الإقامة معه. وكذلك الزوج ربما عرضت له خواطر نفسية باجتماعها على أغني منه أو أصغر فيؤول الأمر كذلك إلي الفرقة وخراب المنزل. وكما أن الرجل لا تسمح نفسه برؤية غيره لحرمه فكذلك المرأة لا تسمح نفسها برؤية غيرها لزوجها إذ النساء أشد غيرة من الرجال كما هو معلوم. كل هذه أمور مؤيدة بالتجاريب الصادقة وبالمشاهدات الحسية وليس بعد الحس دليل. ولسنا نظن أن أحدا ممن يخالطون العائلات غير المحتجبات ينكر ذلك.

يقول حضرة محرر المرأة إن البراقع والنقاب غير معروفين في الإسلام([133]) وهذا قول يدفعه ما جاء في نفس كتاب "**تحرير المرأة**" من أن النبي صلى الله عليه وسلم نهي المحرمة عن لبس القفازين والنقاب. وهل لذلك معني سوي أن النقاب كان موجوداً ومعروفاً

([133]) **تحرير المرأة – قاسم أمين – مصدر سبق ذكره – صفحة 65 – والنص هو: "والحق أن الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الإسلامية لا للتعبد ولا للأدب بل هما من العادات القديمة السابقة على الإسلام والباقية بعده، ويدلنا على ذلك أن هذه العادة ليست معروفة في كثير من البلاد وأنها لم تزل معروفة عند أغلب الأمم الشرقية التي لم تتدين بدين الإسلام".**

وأنه كان معمولاً به وواجباً، وكان النساء يستعملنه حتى في وقت الإحرام فنهاهن النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك في هذه الحالة فقط؟ يدل على استعمال النساء إياه ما تقدم من الأخبار. وأقوال وقول عمر رضي الله عنه لجارية رآها مقنعة: "**ألقي القناع لا تتشبهي بالحرائر**" وقوله "**القناع للحرائر كيلا يؤذين**". وإذا سلمنا بأن البرقع والنقاب كانا من العوائد القديمة السابقة على الإسلام والباقية بعدها كما يقول حضرة صاحب كتاب "**تحرير المرأة**" فكيف أمكنه أن يوفق بين هذا القول وبين ما قاله عند تفسير قوله تعالى: "**إلا ما ظهر منها**"([134])، أي ما كان النساء متعودات على إظهاره وقت نزول الآية وهو الوجه والكفان؟ أليس في ذلك تناقض لا يخفى؟

يقول حضرة محرر المرأة إن بعض الأئمة قال بجواز كشف الوجه في أحوال كالتعليم ولأداء الشهادة للطبيب إلخ. أليست هذه هي أحوال الضرورة التي علق عليها الأئمة جواز رفع الحجاب؟ ألم يجارنا حضرته بهذا القول ويسلِّم معنا من حيث لا يقصد بوجوب الحجاب وبأنه الأصل في الشرع؟ أليس معني "**الجواز**" أن الأصل عدم الجواز؟

أما ما قيل عن علم عائشة فهو حجة على قائله لأنها كانت محتجبة حجاباً تاماً بالإجماع، والحجاب لم يمنعها من أن تكون بالصفة التي قالها حضرته وكذلك كان كل النساء المسلمات اللاتي نبغن وبلغن درجة من العلم والمعارف والكمال لا ينكرها أحد: فكن يعلمن الرجال ويحادثنهم من وراء حجاب وإن افتخر بعض كتاب وعلماء أوروبا

([134]) **سورة النور: 31.**

بنسائهم وجعلوا لهن نصيباً وافراً من أعمالهم فلكم فاقتهن في ذلك نساء مسلمات محتجبات.

فالحجاب لم يمنع ولن يمنع مطلقا من تحصيل العلم الصحيح النافع ولا تدريسه لمن يردن. قالت عائشة: "**رحم الله نساء الأنصار لم يكن الحجاب يمنعهن أن يتفقهن في الدين**".

وإذا قيل إن الحجاب هو المانع من التعليم ومن الترقي وأنه الباعث على الجهالة فكيف يمكننا أن نوفق بين هذا القول وبين ما نري عليه كثيرا من رجالنا من الجهالة العمياء والانحطاط الأدبي الذي ما بعده انحطاط. هل هؤلاء أيضاً سبب جهلهم الحجاب؟ وهل أفنى ثرواتهم وأضاع شرفهم الحجاب؟

ولو قيل بأن بعض سيدات مسلمات في صدر الإسلام خرجن ليتعلمن أو ليعلمن فليس معنى ذلك أنهن تركن الحجاب بمعنييه وخرجن مكشوفات الوجه بل الذي يمكن أن يقال إنهن تركن أحد شقيه وحافظن على الآخر.

وأما ما هو منسوب إلي عمر من أنه دعا زوجته للأكل مع أجنبي فضلا عن كونه ثابت فإن لنا من غيره عمر رضي الله عنه حتى على نساء غيره ومن أدب زوجته أم كلثوم بنت فاطمة بضع الرسول ومن سيره في بيته على ما يوافق الحجاب التام وحرصه عليه ما يدفع صحة هذه الرواية وكذلك ما روي عن عائشة من "**أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لا يصلح أن يري منها إلا هذا وهذا أشار إلي**

وجهه وكفيه"، فيكفينا لإثبات ضعفه إيراد ما جاء بكتاب "**حسن الأسوة**" نفسه عن هذا القول من أنه رواه أبو داود وقال: "**هذا مرسل خالد بن دريك وهو لم يدرك عائشة!**" فكيف إذا نتخذه قضية مسلمة بعد ذلك ونستشهد به خصوصا مع ما هو مشهور عن أسماء بنت أبي بكر من شدة التستر وعدم التبرج وستر الوجه حتى في وقت الاحرام؟ قالت فاطمة بنت المنذر: "**كنا نخمر وجوهنا ونحن محرمات مع أسماء بنت أبي بكر**".

أما نساء الأرياف عندنا وهن اللاتي اتخذهن حضرة صاحب "**تحرير المرأة**" حجة على مخالفة الشرع في عدم احتجابهن ففيه نظر: لأنه ليس من ينكر أن نساء الوجوه والأعيان منهن لا يخرجن من خدورهن وإذا خرجن تبرقعن. وأما نساء غيرهم من أهل القري فعدم احتجاب بعضهن لضرورة مساعدة أزواجهن على اكتساب رزقهم وهذ الضرورة مما تبيح المحظور شرعا وداخله في ما يمكن إباحته استثناء بشرط عدم الابتذال لو أن هذه الإعانة ليست بالواجبة عليهن.[135] على أن أهل القرية الواحدة يعتبرون أنفسهم كأهل بيت واحد وعائلة واحدة ولذا تري الواحدة منهن إذا أقبل أجنبي على القرية

([135]) **إن اشتراك النساء مع الرجال للضرورة لم تحظره الشريعة الغراء وله شواهد كثيرة منها أن زوجة الزبير كانت تنقل النوي لعلف فرسه من مسافة بعيدة ولقد لقيها رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو راكب فأراد أن ينيخ لحملها على ناقة رأفه عليها وهي حاملة النوي فاستحيت من ذلك. وكان من النساء في عهد النبوة وراء الجيش من يداوي الكلمى ويسقي العطاش ويجبر الكسر ويأسو الجراح. ومنهن من كن يشتغلن بالغزل والنسيج والخياطة وغير ذلك مما يناسبهن إعانة للرجال غير أن ذلك كله لا يشترط فيه الابتذال وعدم الحجاب كما أن هذه الإعانة ليست بالواجبة عليهن. (من هوامش الأصل).**

احتجبت بطرف من ثيابها أو أدارت وجهها نحو حائط أن كانت غير متبرقعة كما أن الواحدة منهن تجدها في الغالب إن لم تكن في مهنة بيتها مرافقة لزوجها أو أحد أقاربها المحارم وليس من يجترئ على التعرض لها لمحافظة الجميع هناك لعهد قريب على الآداب والدين أكثر من حالة المدن. ومع ذلك فعند فلاحي الأرياف عادة هي لجام لعدم الابتذال وهي إعلان بكارة البنت ليلة زفافها على رؤوس الأشهاد فإن البنت متي عرفت أن ليلة زفافها سيبقي والدها وأهلها مطرقي رؤوسهم واضعي أيديهم على قلوبهم حتى يتحققوا من شرف عرضهم وينتظرون بفروغ صبر إشهار بكارتها ليفهموا الناس أن عرضهم محفوظ ولم يمسسه أدني ريب بسبب المخالطة أظنها لا تقدم على أمر مطلقاً مما يثلم شرف عائلتها وأهلها ويحط بقدرهم أمام الجمهور في تلك الليلة الموعودة بل ربما أدي إلي الفتك بها تخلصا من العار.

ومع كل فإذا كان الفلاحات أو كل نساء العالم قد تركن الحجاب وابتذلهن هل هذا يحط من أصل الدين؟ كلا. فالشرع شيء والواقع شيء آخر ويسوءنا أن نذكر هنا أن الفساد الذي سري بيننا في المدن ابتداء أن يدخل ويفشوا في الأرياف بفضل الحرية وبسبب الاختلاط وبعدم غيرة الأكابر والحكام على الدين فلا يبعد أن تصبح حالة فساد الأخلاق هناك مماثلة لما نحن فيه ويصبح الأدب والكمال في خبر كان فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ولو نظرنا إلي الفرنج واختلاط النساء عندهم بالرجال لرأينا أن السبب الأعظم في ذلك في مبدأ الأمر طبيعة أرضهم وما تلزمهم به حالتهم المعاشية من الكد والنصب فلزم أن تساعد النساء الرجال في تحصيل العيش والاكتساب فبرزن من خدورهن ثم رفعهن

حجابهن واسترسلن في الابتذال وتعودَّن على الإطلاق وذُقن لذة الحرية الواسعة فلم يعد يمكن أحد أن يعيدهن لما كن عليه ولا أن يحجبهن مهما قامت الدلائل الحسية والعقلية والبراهين الساطعة على فساد هذا الحال اللهم إلا إذا كان لهن من أنفسهن وازع وهذا قليل نادر وصعب على النفوس التي ذاقت طعم الهوي ولذة الإطلاق.

وهذا ما نخافه ونخشي عقباه لو جربنا ما يشير علينا به كتاب "**تحرير المرأة**" فتكون كالغراب الذي حاول أن يقلد مشية الطاووس فاختبط في سيره ونسي مشيته الأصلية.

ولسنا ننكر أن التفريط الذي بدا منا في أمر الحجاب ومبادئ عدم الغيرة التي سرت فينا ربما أدت بنا إلي تمام التكشف والابتذال أن لم نتدارك الأمر ونتلافاه بعزيمة ولا تكل وهمة لا تعرف الملل.

أما الافتخار بأن نساء الافرنج بأوروبا يشتغلن في التجارة والصناعة و.. و..الخ فلا محل له وليس هو في الحقيقة ونفس الأمر إلا مضرة من مضار الاختلاط لأنه لما كثر الاختلاط وزاد الابتذال عدل كثير من الرجال عن الزواج اكتفاء بمن يجتمعون عليهن فكثر الزنا وأولاد الزنا الذين يسمونهم أولادا طبيعيين[136] يعيشون بلا أبٍ ولا مربٍ ولا مالٍ

([136]) **أحصي عدد الذين يولدون في ممالك أوروبا من غير زواج شرعي فوجد عددهم من كل ألف مولود كما يأتي: أيرلاندا 26 روسيا 28 هولاندا 32 انكلترا 48 إيطاليا 74 فرنسا 82 اسكتلندا 82 اسوج 100 بافاريا 140 النمسا 146 (المقتطف). وهذا العدد لمن تحقق مجيئهم بلا أب شرعي وربما كان فيمن ينسبون إلي الآباء بحكم المعاشرة وهم أدعياء في الواقع ما يزيد على هذه الأعداد ولكن للتستر بالأزواج لم يعدوا. (من هوامش الأصل)**

يسد عوزهم فيلتزمون أن يبحثوا على عيشهم بأدني الدنايا وبكل الحيل فكثر المتشردون وبليت البلاد بالاشتراكيين والإعداميين وغيرهم. والنساء منهن أصبحن يفرطن في كل مرتخصٍ وغالٍ لديهن التماسا للرزق ويستخدمن في أماكن تجارية ويشتغلن في كل ما يرينه جالبا لهن رزقاً ليتقوتن وليجمعن مهرا ربما يحصلن به على رجل: ولو أن الواحدة منهن وجدت زوجاً يكفيها أظنها تلزم بيته وتوفر عليها هذه الأتعاب.

انظر إلي بعض الفرنجيات تر الواحدة تزيد في العمر عن الأربعين والخمسين سنة وهي لا تزال بدون زواج لأنها لا تقدر على المهر ولأن الرجال مشغولون عنها بغيرها فتضطرها الحالة إلي أن تشتغل وتكد وتتعب لتأكل ولتجمع المهر. ولست أفهم مطلقاً أسباب الانتقاد على قصر الانتقاد قصر المرأة المسلمة في بيتها ومنعها من الاختلاط بغير محرم لها وها بعض نساء الفرنج العاقلات العظيمات يأنفن من عوائد بلادهن: فهن لا يستقبلن أحدا إلا في أوقات مخصوصة ولا يسمحن بمقابلتهن إلا لرجالٍ مخصوصين قد لا يزيدون عمن يجوز للمرأة المسلمة أن تقابلهم وتجتمع بهم من المحارم. أليس ذلك رجوعاً من عقلاء الفرنج واستحساناً لبعض عوائدنا التي يقبحونها لنا؟ أليس ذلك لكون تلك العادة عندهم – عادة الاختلاط والابتذال – يئن منها عقلاؤهم؟ هذا ولقد وافق على ذلك كثير من علماء الفرنج واستحسنوا الحجاب ودونوا ذلك في كتبهم وقالوا: إن المرأة لا يلزمها أن تفارق منزلها ولا أن تجتمع برجل وناهيك بالمثل الألماني الذي سبق إيراده وهو: "**يجب أن تحفظ البنت بين الأربعة أناجيل أو بين أربعة جدران**" نقول ذلك ولو غضب بعض أنصار التبذل يريدون أن نتشبه بما يعده المتمدنون أنفسهم فسادا. ولست

أقول أن ذلك منهم لسوء قصد بل لعدم التدقيق في البحث فإنهم لو دققوا البحث والتنقيب لقالوا غير ما قالوه ولعدلوا عما إليه هم الآن ذاهبون.

الحجاب الحالي وما يتهددنا به

علمنا مما تقدَّم ما نحن عليه من الجهالة وسوء الحال وفساد الأخلاق الذي جر فساد العائلات. وما أسرع سريان الفساد في شرايين العباد. أصبح كتاب الله بين أيدنينا وما من عامل به! أصبح الحق ينادينا بأننا قد خنا أنفسنا وأهلينا وبلادنا وما من سامع! أصبحنا نفتخر بتعليم اللغات وقشور من بعض العلوم وما علمنا أن تعلُّم ذلك شيء والتطبع بالمبادئ الشريفة الثابتة شيء آخر لا يوجده في الأبناء إلا حكمة الآباء والتربية الصحيحة التي جهلناها جهلنا ما علينا من الواجبات لأنفسنا ولأهلينا! أصبحنا لا همَّ لنا إلا أن نفتخر بتقليد الفرنج تقليدا أعمى في كل ما فيه ضررنا ويا ليتنا كنا نقلدهم في فضيلة تفيد وخصلة حميدة تنفع فصرنا لا نتقدم خطوة إلي المدنية الغربية ولا تترقي حاجاتنا إلا تأخرنا عما كنا عليه من الفضائل!

ولقد نال النساء نصيبهن من هذا التفريط في أمور الدين فخففن الحجاب وبرزن من خدورهن وصرن ولاجات طوافات في الشوارع والمنتزهات متبرجات متزينات يبدو منهن من الإشارات والحركات في الطرق ما يأنف منه الذوق السليم. ولعمر الحق ما هذه الأمور التي تراها إلا مخالفة كلها للدين ولصريح القرآن الكريم القاضي بغض البصر وبعدم التبرج وعدم إبداء الزينة. ولكن ماذا نقول والغيرة على الشرع قد انعدمت أو كادت

والفضيلة ذهبت وذهب رجالها والآداب اندرست ومات ذووها؟ وإلا فما معني أن يروا أشد المنكرات بأعينهم أمام محلات عبادتهم وفي طريقهم بل وفي بيوتهم ولا يعلمون على محوها كأن غض الأبصار الذي أمروا به هو صرف النظر وغض الطرف عما هو جار من تلك البدع والمنكرات. ولله في خلقه شؤون.

ولا شك أن الضرر الذي أصبحنا فيه ما هو إلا مقدمة أضرار أخرى أشد وأنكي ما دمنا على غفلتنا هذه مسترسلين وعن صوالحنا ساهين.

فيا قوم إن كان متعذرا علينا إصلاح ما تم فساده فلنحافظ على الأقل على ما بقي إن كان هناك بقية. فقد حصل الآن من النساء تساهل كبير في أمر الحجاب ولم يحصل لنا من وراء ذلك إلا كثرة الفجور منهن وانتهاكهن حرمة الآداب وكثرة الفسوق والفساد وهذا أمر لا يخفي على أحد ويعترف به حضرة صاحب كتاب تحرير المرأة نفسه حيث قال:

"**ربما يقول قائل أن ما نسمعه اليوم عن كثير من النساء أكثر مما كنا نسمعه سابقاً، وأن الإشاعات عن الفساد أشد انتشاراً، بل ربما كان الفساد في الواقع أوسع دائرة مما كان عليه قبل ثلاثين سنة مثلاً. ولا منشأ لذلك إلا رقة الحجاب. فالحالة القديمة على ما فيها كانت أصون للأعراض وأحفظ لشرف المرأة من تلك الحالة التي طرأت على النساء فنجيب عن ذلك بأننا لا ننكر أن بعض الطباع الفاسدة من الرجال والنساء معاً وجدت سبيلاً من تخفيف الحجاب إلي تعارف بعضها ببعض واتيان ما تميل إليه من المنكر بل نزيد عليه أنه لو استمر تخفيف الحجاب يتقدم**

بالسرعة التي سار بها إلي الآن – والنفوس على ما هي عليه – لعمت البلوي وازداد الفساد انتشارا"([137]) .

وقال أيضاً: "**على أن البراقع والنقاب مما يزيد في خوف الفتنة لأن هذا النقاب الأبيض الرقيق الذي تبدو من ورائه المحاسن وتختفي من خلفه العيوب – والبرقع الذي يختفي تحته طرف الأنف والفم والشدقان ويظهر منه الجبين والحواجب والعيون والخدود والأصداغ وصفحات العنق – هذان الساتران يعدان في الحقيقة من الزينة التي تحث رغبة الناظر وتحمله على اكتشاف قليل خفي بعد الافتتان بكثير ظهر. ولو أن المرأة كانت مكشوفة الوجه لكان في مجموع خلقها ما يرد في الغالب البصر عنها**"([138]).

نعم هذا هو الواقع ولكن هل هو مقتضي الشرع؟ حاشا لله وكلا. إن الدين والحياء والعقل ومكارم الأخلاق والأدب، كل ذلك بريء من هذا الحجاب ومن هذا الابتذال ومن هذه الحال. فالشرع كما علمنا يقضي بستر المرأة وجهها وبدنها وملازمتها خدرها إلا لضرورة وبإذن زوجها. ولكن قد طرأ علينا بفضل الحرية والاختلاط ورقة الحجاب وعدم الرهبة والخشية التي كنا نحسب حسابها من الله ومن الخلق ما قد يطرأ على غيرنا من الأمور المخالفة لطبائعنا المخالفة لديننا وشرائعنا فصار داء فاستحكم فينا ويتهددنا بتمام الوهن والانحلال إن لم يدركنا الله بلطف من عنده ويلهمنا التوفيق والسداد

([137]) **تحرير المرأة – قاسم أمين – مصدر سبق ذكره – صفحة 81.**

([138])**تحرير المرأة – قاسم أمين – مصدر سبق ذكره – صفحة 64.**

obeikandi.com

في قولنا وعملنا. فإن من قارن بين بلاد الشرق قبل استيطان الأجانب بها وقبل استيلاء بعض دول أوروبا على بعضها وبين حالتها الراهنة من الآداب العامة رأي فرقاً عظيماً وتبايناً كبيراً عما كانت عليه: كان المسلمون والمسيحيون والإسرائيليون في الشرق تحريم الزنا من الجهة الشرعية وقبحه من الجهة العقلية ويرون صيانة الأعراض من الواجبات ومع خروج بعض نساء الأرياف مكشوفات الوجوه فإنه ما كان يجرؤ رجل على التعرض لامرأة بشيء يمس الشرف ولو وقع شيء من ذلك لهلك في الحال بإيقاع أهلها به وربما أوقع به أجنبي منها. وكان الناس على اختلاف أديانهم يتحاشون وجود النساء معهم في المجامع واختلاطهم بهن في الأفراح ويمتنع كل الامتناع دخول امرأة في مجمع لهو. وإذا لعب الهوي بعقل امرأة تركت بلدها وإقليمها وسكنت في بلد آخر خوفا من فتك أهلها بها ولا يمكنها أن تنتسب إلي أهلها أو تخبر باسمها الأصلي بل تغيره وتدعي النسبة لغير أهلها ستراً عليهم وخوفاً من عثورهم بها. وكان لا توجد بغي في بيت متظاهرة بالبغاء بل تتستر بقدر الإمكان خوفاً من علم الحكومة بها فإن الحكومات الشرقية كانت محافظة على الآداب الشرعية والحقوق الشخصية فكانت إذا عثرت يبغي عاقبتها وأبعدتها خشة أن يسري ضررها إلي جارتها. ولذلك كانت الأعراض مصونة والرجال آمنين على بيوتهم غابوا أو حضروا لعدم اشتغال أفكارهم بشيء يشوش عليهم من جهة النساء وإذا سافر أحدهم سفراً بعيداً أو قريباً، أوصي جاره على بيته فيتعهد أهله وأولاده ويقضي حوائجهم ويغار عليهم غيرته على أهله ويحافظ عليهم محافظته على بيته وعرضه. وربما جاور الرجل أخاه من الصغر إلي الشيخوخة، ولم يتفق له أن رفع بصره لشباك أخيه مرة، فضلاً عن تعرُّضه لحرمه. وكان الرجال المسلمون أبعد خلق الله عن الخمر والنساء ما كانت تذوقها ولا كان

الرجال يدخلونها عليهن لعلمهم أن ما بعد سكر المرأة إلا الافتضاح والميل إلي البغاء. فلما حصل الاختلاط بيننا وبين الأجانب بتداخلهم في بلادنا بالتجارة والتغلب وباسفارنا في بلادهم فسدت أخلاق الرجال والنساء بما دخل من مسمي المدنية الغربية حيث دخل الشرق الكثير من نسائهم البغايا وفتحت المحلات جهاراً وتعرضن للشبان والكهول في الطرقات وتزين باحسن ما يمكنهن وخرجن يعرضن أنفسهن على المارة في الطرقات فاستلبن عقول الشبان ثم جذبن ضعفاء العقول وما زال الفساد يترقي من صورة إلي أفظع منها حتى فسدت أخلاق كثير من النساء الشرقيات فأخذ نساء الشرق على الخروج من البيوت سرا ثم تظاهرون فخرجن جهرا ثم تمادين حتى صارت المرأة تترك زوجها وتفتح لها محلا في بلدة أو حارته وانتهي الأمر بشرب النساء الخمر فزاد التهتك وضاعت أعراض كثيرة وافتضحت مخدرات وذهب مجد بيوت عالية بخروج بعض نسائها لهذا الأمر الشنيع. ثم ترقى الفجور إلي أن صار النساء يحضرون مجالس اللهو ويذهبن إلي التياترات ويشربن الخمور وهن بحضرة رجالهن. وصار الرجل لا يأمن أخاه على زوجته والجار لا يخاف إلا من جاره ووقعت الشبهة على كل مار في الطريق وأصبح أصحاب الأعراض النقية في حروب شديدة بما يقاسونه من السعي خلف الصيانة والحفظ والخوف من الانحدار في هذا التيار القبيح الذي جرف البيوت المقفلة على من فيها فهدم أسوار صيانتها وزلزل أركان عفتها وترك من كان فيها كالدر في الصدف مبتذلاً بين الناس معرضاً للفساد وقد وقف الناس بعضهم على أسرار بعض فحدَّث كلٌ صاحبه بمن يعرفها من النساء وما فعل بها من القبيح وأخذ كل يشيع ما سمعه عن امرأة غيره وهو لا يدري أن غيره يشيع على امرأته ما هو أشنع وأفظع.

وقد تهاونت بعض الحكومات الشرقية في هذا الباب تهاون الراضي بهذا الابتذال ورخص بعضها فيه بأمر رسمي وعالج البغايا للزناة بأطباء عن عنده بدعوي المحافظة على الصحة. هذه أمور لم تكن معهودة في الشرق قبل ثلاثين عاما أي قبل زيادة الاختلاط بيننا وبين الأجانب. ولا يحسب ظان أن ما نراه خاص بنا قاصر علينا بل يظهر أن ذلك مقصود كل دولة أوروبية حلت بلادا شرقية لحل عروة الدين التي هي العروة الوثقي في الجامعة العصبية والإلتئام الوطني[139] وما على من عنده أقل ارتياب فيما وصلت إليه حالة الآداب عندنا الآن إلا أن يتأمل في حوانيت المبيعات وغيرها وفي الطرق وفي

([139]) **جاء في جريدة "الزهرة التونسية" من عدة سنين أثناء كلامها على الحكومة الفرنساوية ما يأتي: وليس لها مآثره حميدة تذكر أو صنع جميل يشكر سوي تكاثر الفواحش والفساد والأضرار بالعباد فمنذ تغيرت الهيئة البلدية السابقة عظم مصاب المومسات الأوروبيات وتفاقم خطب انتشارهن بين الحرائر في معظم الشوارع المعتبرة وفي حارات الأهالي والأجانب وكثرت أسواق الفجور واشتدت وطأة انتصابهن بالشوارع وأبواب دكاكينهن وتجاذبهن أثواب العابرين واتسع خرق اعتدائهن على الجيران والعبث براحتهم بألوان المنكرات آناء الليل وأطراف النهار وما لجيرانهم من ظهير ولا نصير: يقدمون العرضحالات ولا يجاوبون ويشتكون ولا يسمعون وكيف يرجي الإصلاح من إدارة مهملة مستبدة معتدية على القوانين لا دأب لها إلا استخلاص الفرنكين ونصف معلوم الاختبار الطبي من ساكنات حوانيت مصدرة بفرش لا تبعد ذراعين عن أبوابها بدون أن تأخذها في هذا العار لومة لائمة.... وبعد كلام طويل في الإدارة وسوء أعمال الأجانب فيها قالت: وطالما كتبنا المقالات المسهبة والاستلفاتات المطولة وبينا سوء الحالة الراهنة وهتك الإدارة البلدية لحرمات النظامات والعوائد بإباحتها للمومسات السكني حيث يشأن واحداثها أسواقا للفسوق بأحسن مراكزها وأهم شوارعها مدينة توفرت فيها محاسن المدنية وحافظ أهلها على قوانين الحياء والآداب العامة فلم تكثرت بشيء من ذلك ولم يزدها إلا عنادا وكان لسان حالها يقول: إني أفعل ما أشاء وأخالف القوانين والعاجزين من لا يستبد.. نقلا بعض المجلات. (من هوامش الأصل).**

احتفالات الموالد وسواها لينظر ماذا يفعل الرجال خصوصاً المتعلمون المهذبون حسب دعواهم – ولكن على غير الدين – مع النساء والنساء مع الرجال وليحكم بعد ذلك أن كان يعطون الطريق حقه وهو غض البصر وكف الأذي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أوصاهم بذلك النبي عليه الصلاة والسلام. وأن كان النساء يستأخرون ولا يحققن الطريق ويمشين بحافاتها كما أمرهن الرسول صلى الله عليه وسلم؟ كلا ثم كلا. علم الله ما كنا نسمع قبل تخفيف الحجاب في مصر عن فعل الفواحش إلا نادراً وفي محلات مخصوصة والآن نراه قد تفشي كالوباء في كل شارع وفي كل حارة في بيوت يسمونها بيوتاً سرية تأتي إليها النساء بفضل الحرية ورقة الحجاب!!. ولا يقال أن ذلك من عدم التربية والتعليم لأنه قد دلت المشاهدات على أن الرجال المتعلمين قبل الجاهلين لا يقدرون على كبح جماع شهواتهم فيوسوسون لهن ويستميلونهن وهن لا يقوين على حفظ أنفسهن فيملن طوع الهوي رغم التعليم والتربية كما سبق بيانه.

وهذا أمر لا شك في أن حضرة محرر المرأة يصادقنا عليه فإنه لا يجهل ما يجري بكثير من نساء الغربيين من الأمور التي لا ترضاها عاطفة الحياء بسبب التكشف لأعين الرجال والاختلاط بهم وكتابه في الرد على الدوك داركور أعظم شاهد عليه وإننا إذا نظرنا إلي حال بعض العائلات التي خففت الحجاب وتعلمت العلوم واللغات وعرفت الموسيقي والبيانو وتربت التربية الغربية التي يفخر بها بعضنا واختلطت لوجدنا العجب العجاب: نري ابتذالا ما بعده ابتذال ونري الغيرة لا مسمى لها ونرى العفة عندهم أصبحت كما قال المقطم الأغر: "**أمراً حقيراً لا يرعون له حرمة ولا يجلون لصاحبه قدراً**" نري الرجل لا يبالي بمن يدخل بيته ولا بمن يخرج وهم لا يعدون ذلك إلا واجباً من واجبات الصحبة

ناسين قوله صلى الله عليه وسلم: "**ثلاثة لا يدخلون الجنة أبداً: الديوث والمترجلة من النساء ومدمن الخمر. قيل له ما الديوث فقال: الذي لا يبالي من دخل على أهله**".

وقصاري القول أن جهلنا قد أوصلنا لما نحن فيه وفسادنا جر فساد نسائنا وأبنائنا وفجورنا أدي إلى فجورهم وترتب عليه رقة الحجاب وتبرج النساء والخروج والدخول بدون موجب إلا زيادة الفساد وما دمنا على هذه الحال لابد وأن نصير إلي رفع الحجاب المرة لأن الزمن في تقدُّم وترقي في صفوف الابتذال باسم الحرية والمدنية والترقي العمراني. والتدرج سنة طبيعية للإنسان. ولابد أن ينعدم ما بقي في دمنا من الغيرة على أن العرض والشرف إن لم نعمل على درء هذه المفاسد بقدر استطاعتنا ونرجع إلي أحكام ديننا القويم ونتبع سنة نبيه الهادي إلي الصراط المستقيم.

هذه هي حالتنا الحاضرة وهذا هو المستقبل الذي يتهددنا: النساء الآن في إطلاق ليس بعده إطلاق قد أضر بهن وبأزواجهن وببلادهن إطلاق يئن منه العموم. حرية واسعة تركت بعضهن يستسهلن كل بذاء وفجور. كل ذلك حصل بسبب جهلنا وعدم اهتمامنا بأمورنا واستسلامنا لعوائد غيرنا. ولعمر الحق ما الملوم غيرنا فإن الأجانب عند اختلاطهم بنا لم يشترطوا علينا التخلي عن بعض أصول ديننا والتنازل عن عوائدنا وإنما كان ذلك بتهاون الرجال في خروج النساء والتوسع لهن في المجامع وأماكن الملاهي وابتذال الرجال في السكر والسهر في البيرات والخمارات وبيوت العاهرات وتركهم نساءهم يتقلبن على جمر الانتظار حتى وقع الملال وجر إلي الخبل والخلل ثم إلي تكاثر العلل والتعود على الزلل وأصبحت الطرقات ممتلئة بالمومسات في صور الحرائر وفتحت القهاوي لرقص الشرقيات

بين أهلهن والأجانب وأسود وجه المجد بما يسفه أحلام الشرقيين ويلحقهم بالقرود في التقليد الأعمي.

وبدلاً من أن يقوم من بيننا من يدعو إلي الحث على مداواة هذا الداء بالتربية الإسلامية الحقة وتقييد تلك الحرية نري الأمر قد انعكس وقام بعضنا – ولسنا نعني بالبعض شخصا معينا أو أشخاصا معلومين. كلا بل كلامنا عمومي – يدعو إلي التوسع فيها باسم الشفقة والمرحمة ويطلب تحرير المرأة من الظلم الذي هي فيه برفع الحجاب وبالاختلاط ويطلب تحرير المرأة من الظلم الذي هي فيه برفع الحجاب وبالاختلاط. على أن الرجل – وهو أصل كل هذا البلاء – هو أولي بالتحرير من الجهالة ومن الفساد الذي أصبح فيه. وإذا دعي ذلك البعض إلي تربية اختار تلك التربية الغربية التي أوردنا حكم بعض الأوربيين أنفسهم عليها فلا لزوم للإعادة.

ولا لوم على الفرنج إذا حاولوا الوصول إلي غاية لهم إنما اللوم كله على بعض المصريين المفتونين في تقليد الغربي: فإنهم يسعون تقاليدهم القديمة كلها ذماً وتقبيحاً بلا حق، ولا رغبة في تحسين حال في أغلب الأحيان ولكن تزلفا للأجنبي القوي. فهؤلاء دأبهم أن يثيروا خواطر الأجانب على إخوانهم في الوطنية. والمتمدنون منهم على اصطلاحهم يكرهون من هو من جنسهم إن لم يتبع خطتهم. مع أنهم لو تدبروا لوجدوا أن ما يعزى إلي الإفرنج من العوائد المستحسنة والفضائل ليس كله من مبتكراتهم بل أخذوا عن الشرقيين والمسلمين كل فضيلة اتصفوا بها – كما هو شأن من يريد الاصلاح

الحقيقي وتركوا لهم رذائلهم كالخمرة مثلاً، كانت كما قال بعضهم "**نصرانية فأسلمت**"!!!.

فيا للعجب انظر إلى الطرقات والشوارع والمنتزهات ومحلات الموبقات ترها ملائ بالنساء والبيوت أصبحت خالية خاوية وأشغال المنزل مهملة وتربية الأولاد انعدمت وفقدت ومع ذلك ندعي أن النساء محبوسات مسجونات مهيئات فيجب تحريرهن!!

وإذا اعترضن معترض على ذلك الكلام فما جزاؤه إلا السخرية والاستهزاء ممن تكلفوا بهذه الدعوة يرمونه طورا بالجهالة وعدم الفهم وتارة بحب البقاء علي قديم العوائد وعدم تتبعه لترقيات العصر والمدنية الغربية ويقولون دعوة فإنه "**أنتيكة**" ولا يفيد معه كلام ولا يفهم فوائد الاختلاط لما يستلزمه من تشارك الجنسين في الرأي وتحاورهما فيما يعود على الهيئة الاجتماعية بالفلاح والنجاح وشغلهما معظم أحاديثهما فيما يرفع شأن الوطن والدين!!

هذا قول يجرح كل ذي إحساس شريف ويسؤنا أن نراه يصدر من بعض متنوري هذه الأمة الذين ربتهم البلاد لينفعوها لا ليسنوا لها ولأهلها سنة سيئة يتبعهم وزرها الذين يوم الدين. ولو سألناهم أين تلك الأمم التي ماتت فيها الشهوات البهيمية فصار النساء فيها لا يثرن في الرجال غير عواطف الإخلاص وإحساسات الشرف ومحبة النواع غضبوا وقالوا أن ذلك موجود ولكنكم لا تفهمون!!

أما نحن فلا نتكلف الرد عليهم بل نثبت عدم وجود هذا الأمر حتى في أرقي البلاد مدنية وأدبا بلسان امرأة ليكون الكلام أكثر افحاما: كتبت "**مدام دوصون**

بروتون" إحدي رئيسات جمعية من جمعيات النساء فصلا في مجلة المجلات (مجلد 17) قالت فيه ما معناه: "**بينما تري الرجال من أهل العلم والصناعة جالسين على مائدتهم بعد الطعام يتكلمون في الشئون العمومية مما له ارتباط بترقية الصناعات وتنمية المعلومات تراهم عند دخول امرأة عليهم يدعون الأحاديث النافعة وذكر نتائج السياحات العلمية والمكتشفات الطبيعية ويأخذون في غير ذلك. تجد أولئك الرجال الذين كانوا قبل ساعة في غاية الثبات والرزانة قد صاروا خفاف العقول لا يتمالكون أنفسهم من التبسم وأخذوا يبحثون في أفكارهم على تلك العبارات التافهة والتحيات ذات المعاني المتنوعة التي كانت تستعمل بعينها في زمن لوزير لويز الخامس عشر هذه هي مقابلات النساء بالرجال في العالم المتمدن بشهادة نفس المرأة فلنتلق الله في أنفسنا ولنعتبر بأحوال غيرنا**".

وإنا ليضحكنا ما يقولونه من أننا نريد الاختلاط ولكن مع حظر الخلوة إذ ما فهمنا كيف يمكن التوفيق بين القول والفعل في ذلك. هذه نظرية دون العمل بها خرط القتاد إذ كيف تقيد حرية بعد إطلاق؟ وكيف تمنع خلوة بعد تصريح باختلاط؟ ولو كان ذلك ممكنا لوجد بعض الفرنج من الضيق الذي أصبحوا فيه مخرجاً وفرجاً.

أناشدكم الله أيها المطالبون بتحرير المرأة هلا شاهدتكم حال النساء التي قدمنا ذكرهن! ألا تزالون مصرين على رأيكم من أن بقاء المرأة في محل شغلها وهو بيتها الذي تنتهي وظيفتها عند عتبته سجن وحبس لها؟ إذا اشتغلت المرأة بأشغال بيتها ألا يتولد فيها النشاط والحركة فيجري دمها ويتقوي جسمها؟ ألا تعتقدون أن ستر المرأة جميع بدنها إذا

برزت من خدرها أحكم للرجال من مخالفة غض النظر واصون للنساء مما يترتب على هذه المخالفة من المفاسد؟ أما ترون عدم الفائدة من خروجها وبيتها أولي بها ومحتاج لها وزوجها متكفل بمصروفها ونفقتها وبالسعي على عياله؟ وأي ضرر على الهيئة الاجتماعية إذا خرجت غير متبرجة بدون ابتذال مستورة الوجه ولضرورة؟ ألم يكن الأليق طلب تشديد الحجاب والحث على زيادة الاعتكاف في البيوت والرجوع إلي الحجاب الشرعي ما دمنا جميعا مسلمين بأن الحجاب الحالي بدعة مضرة مفسدة وما دمنا كلنا متفقين على إن حالتنا الأدبية وصلت لدرجة لا تطاق؟ أما تقرون معنا بأن الرجل هو سبب كل هذه البلايا والمصائب؟ أما هو المسئول عن كل هذه المفاسد؟ هل العلم والتربية كافيان لمقاومة الميل النفساني إذا تحكَّم الدافع الشهواني متي تهيأت أسبابه؟ أظن لا. ومن يكابر فما عليه إلا أن يسأل ليسمع وإذا لم يصدق فليجرب. ولكن هل إذا تربت البنت تلك التربية الإسلامية الصحيحة التي أشرنا إليها وتهذبت أخلاقها ولزمت الحجاب الذي به تمام تربيتها ألا تنظم بيتها تنظيم غربية؟ ألا تأنف من مخالطة من هي أحط منها في الدرجة وأبعد عن التصون والعفة وألا تكون أهلا لأن تعرف حقوقها وواجباتها؟ إنا نري أغلب التبذير والإسراف والتفريط في العرض وعدم الغيرة تصدُر من الطبقة المقال بأنها تعلمت وتهذبت رجالا ونساء. فما لهذه التربية وهذا التعليم لم يدرأا هذه المفاسد؟ أليس لكونهما جاريين على النمط الغربي الذي يئن منه نفس الغربيين كما دلت عليه أقوال أعاظم علمائهم ولأن الحجاب قد خفف عند هذه الطبقة حتى كاد أن ينعدم بالمرة ويرتفع تماماً ولأنهن لم يعدن يسمعن "**هذا حرام وهذا حلال**"؟ بل وماذا أفاد الابتذال والاختلاط بالبلاد الأخرى سوي عدول الكثيرين عن الزواج وتناقص عدد المواليد فيها وعدم الاهتمام

بالشئون المنزلية وكثرة المتشردين وزيادة النفقة على التزين والتحلي لما تستلزمه من النفقات دواعي الاختلاط والحضور في الاحتفالات والجمعيات حيث كل امرأة تريد أن تتألق لتحوز الأسبقية في أعين الحاضرين: ويا لها من جناية عظمي على البلاد والعباد؟

كيف بعد ذلك يقال أن الحجاب غير لازم وأنه لم يجعل لا للتعبد ولا للأدب مع أن حضرة محرر المرأة نفسه قال في مبدأ كلامه علي الحجاب ما يأتي بالحرف الواحد: "**ربما يتوهم ناظر أنني أري الآن رفع الحجاب بالمرة. لكن الحقيقة غير ذلك. فإنني لا أزال أدافع عن الحجاب واعتبره أصلا من أصول الأدب التي يلزم التمسك بها. غير أنني أطلب أن يكون منطبقا على ما جاء في الشريعة الإسلامية**"([140]).

وإذا كان حضرته يعتبر الحجاب أصلا من أصول الأدب فكيف لا يكون الشرع أمر به؟. هل ترك الدين شيئا من أصول الأدب لم يأمر به وبحث عليه؟ وإذا كان الشرع لم ينص عليه أليست حالتنا الحاضرة تستدعي التمسك به بل وإيجاده إن لم يكن موجودا اللهم إلا إذا كان ما نراه لا يعد عند ذلك البعض فساداً ولا فجوراً؟ وإن صح أن بعض الأئمة قال بجواز التكشف مطلقا كما يقولون – على أن الأمر بالعكس – فلماذا نأخذ بقوله ونترك رأي الأغلبية الموافقة لمصلحة الأمة ولأصول الأدب وها نحن نري بعض علمائنا يطلبون عدم التقيد بمذهب دون مذهب في باقي المسائل الشرعية؟

ولسنا هنا نطلب إلا تنفيذ ما جاء في هذه العبارة: "**الحجاب أصل من أصول الأدب فيلزم التمسك به. إلا أن المطلوب أن يكون منطبقا على ما جاء في**

([140]) **تحرير المرأة – قاسم أمين – مصدر سبق ذكره – صفحة 53.**

الشرع." والشرع قضى كما علمنا بأن الحجاب بمعنييه واجب ويأمر به الدين وحسبه فخرا أن جعله الله تعالى من أحسن ما توصف به امرأة فقال: "**حور مقصورات في الخيام**"([141]) ووردت به السنة وحث عليه النبي صلى الله عليه وسلم فلا يسوغ لمتولي الأحكام ولا لأحد غيره من باب أولى أن يحكم في التحليل والتحريم بما يلائم مزاجه مما يخالف الأوضاع الشرعية ولا عبرة بالاستكراه النفساني والاستحسان الطبيعي والأخذ بالرأي من غير دليل شرعي. قال أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه: "**إياكم والأخذ في دين الله بالرأي وعليكم باتباع السنة فمن خرج عنها ضل وغوى**".

نتيجة ما تقـدَّم

ثبت مما قدمنا أن الحجاب الحالي غير الشرعي. وأن النساء لسن الآن محتجبات بل هن في الحقيقة متبرجات مفسدات. وأن النقاب الشرعي يشترط فيه أن لا تبدو منه إلا العين الواحدة أو العينان كما قرره المفسرون وكما كان الصحابة سائرين عليه. وأن الأصل في المرأة احتجابها وعدم ابتذالها فاللازم الرجوع إلي الشرع إذا أمكن أو عند عدم إمكان الوصول إلي ذلك يلزم على الأقل عدم المغالطة والتمحك في الشرع والدين لإعلاء فكر يخالفهما أو إظهار رأي يناقض ما أمر الله والله الهادي لسواء السبيل.

([141]) **سورة الرحمن 72**.

openkandil.com

وأنه ليسُرنا أن نري معظم الرأي العام مستهجنا مطالب نصراء الابتذال فقد قرأنا في "**جريدة مصر**" الغراء أنه قد ورد إلى حضرة محرر المرأة خمسة وسبعون كتابا([142]) يهنئه فيها أصحابها على طرق هذا الباب وعلى ذهابة هذا المذهب ولكن ليس من بين هؤلاء المهنئين سوى ثلاثة مسلمين!! والباقي ممن يفضلون طبعاً مساواتنا لهم فى هذا الأمر ما دام الابتذال مقدوراً عليه واحتجاب المبتذلات ضرباً من المحال.

وهذا الذى نراه من إخواننا المسلمين يقوى فينا الأمل فى تحسين الحال إذا وطدّنا النفس على العمل والسعى في إصلاح نفوسنا وتقويم ما أعوج منا، فعلى من يهمهم حفظ الأعراض وصون الشرف مما يخدشه أن يقدموا للحكومة الجليلة بطلب السعي في منع هذا الابتذال وفي إعمال حاجز بين المومسات([143]) والأحرار وتنقية الشوارع والدروب من تلك البيوت التى جلبت الضرر على كثير من الناس وبزيادة الاهتمام بأمر الآداب العامة([144]). ولئن قيل إن الحرية تقضي بعدم تعرُّض أحد لأحد في أموره الخاصة قلنا: إن الحرية عبارة عن المطالبة بالحقوق والوقوف عند الحدود وهذا الذي نسمع به ونراه

([142]) **يقصد بكتاب هنا: رسالة.**

([143]) **المومسات: العاهرات.**

([144]) **تم أول تسجيل للبغايا في مصر في القرن السابع حيث جرى التسجيل في مقر رئيس الشرطة. وأبقى محمد علي على ضريبة البغاء بعض الوقت ثم ألغاها عام 1837 ثم بدأ البغاء في الخضوع للتسجيل والتنظيم منذ تطبيق اللائحة التي سميت بتعليمات بيوت الدعارة والتي استمر العمل بها حتى ألغيت عام 1949. وصدرت لائحة التفتيش على العاهرات عام 1885 والتزمت البغايا بمقتضاها بالتسجيل وإلا عوقبن. وقد تم العثور مؤخرا في دار المحفوظات على وثائق عن تسجيل البغاء في مصر..**

رجوعاً إلى البهيمية وخروجاً عن حد الإنسانية ولئن كان ذلك سائغاً في بعض بلاد أوروبا فإن لكل أمة عادات وروابط دينية أو بيتية وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين ولا قواعدهم الدينية ولا عاداتهم والقانون الحق هو الحافظ لحقوق الأمة من غير أن يجني أو يغري بالجناية عليها بما يبيحه من الأحوال المحظورة. وإننا نسمع أنهم لا يريدون منا إلا أن نطرق باب المدنية وهذا الذي نراه هو الهمجية بل الحيوانية الصرفة. لأنه إما أن نقول عن زوجة الرجل شرعية لا يجوز تعدي الغير عليها أو قانونية عند من يعتبر الزواج قانوناً نظامياً، وعلى كلا الأمرين يلزم أخذ الطرق اللازمة لحفظها وعدم ابتذالها واتهامها حضر الزوج أو غاب. وهو بمفرده لا يمكنه ذلك فإنه فرد في مجتمع أمة عظيمة فيبقى الأمر منوطاً بالقائمين برعاية الأمم وصيانة أعراضهم. ثم إننا نقول إن واضعي القوانين غير معصومين من الخطأ فإنما هي أفكار فرد أو أفراد دوّنت بحسب استحسانهم فهي قابلة للنقض والإبرام إذا رفعت الشكوى منها للقابضين على أزمة الأمم ونُبِهوا إلى أوجه النقص فيها، وها نحن نرى كل يوم ولاة الأمور يدخلون التعديلات في اللوايح والقوانين حسب ما يرونه أزيد ملاءمة وأوفق لمصلحة البلاد. فنرجو أن يحال بيننا وبين تلك الأمور التي نراها بين ظهرانينا منعا للعبث في الأعراض النقية وحرصاً على العوائد الإسلامية، وسداً لهذا الباب الذي ما فتح بين قوم إلا تركهم فوضى لا يحفظ لهم نسب ولا يعرف لهم حسب. فليعقد أهل الشرف عزائمهم على أنهم لا يغمض لهم جفن حتى تُطهَّر المدن من هذه النجاسات التي لوثت كثيراً من طاهرات الذيل عفيفات الطباع وإلا فما ناب([145]) اليوم

([145]) **ناب: أصاب.**

هذا سينوب ذاك غداً، والآن يتكلم فلان في بيت أخيه وسيتكلم الغير في بيته، فالبدار البدار([146]) يا ذوي الغيرة وجدوا في هذا الطلب العدل الحق قبل تفاقم الخطب وفرقوا بين بيوتكم الطاهرة وبين تلك البيوت الخبيثة بحدي: "**هذا حرام وهذا حلال**" وامنعوا هذا الابتذال وقيدوا هذه الحرية واطلبو الرجوع إلى أداب دينكم القويم.

وأعظم قانون يضعه الأزواج لحفظ أعراضهم إذا عز إقفال تلك البيوت ومنع هذا الحال إلى أن يشددوا في منع خروج النساء من البيوت ويقفلوا أبوابهم فى وجه كل داخلة من غير أقاربهم وأصهارهم ومن يثقون بصيانتهن، وإلا إن بقيت الحال على ما هي عليه انجر أمر التهمة شيئا فشيئا حتى لا يبقى بيت إلا وللفسقة كلام في شأنه وافتراء على أهله. نجانا الله مما نخاف. ويجمل بنا أن نختم هذا الباب بما قاله حضرة فريد أفندي وجدى في مقالته "**نظرة فى تحرير المرأة**" بعنوان:

"**ما هو الإصلح فى حالة النساء التحجب أم الابتذال؟**"

قال: "**إذا لم تثبت فرضية التحجب فبالأولى تثبت فرضية الابتذال وعلى هذا يجب علينا أن نعمل بهذه القاعدة الأساسية العامة وهي: "كل ما زاد نفعه عن ضرره وجب أخذه وكل ما زاد ضرره عن نفعه وجب تركه وكل ما تساوى فيه الطرفان كان لنا الخيرة فيه". إذا تقرَّر هذا نقول: ما هي فوائد التبذل وما هي مضاره([147]) حتى نحكم بالأخذ به أو تركه على حسب هذه القاعدة المتقدمة؟ نقول: لا نرى فى**

([146]) البدار البدار: بادروا وأسرعوا.

([147]) الصواب أن يقول: "ما فوائد التبذل وما مضاره"، وما قاله خطأ شائع.

التبذل إلا فائدة واحدة. وهي سهولة تعامل النساء مع الرجال وهذا التعامل لا تظهر فائدة إلا باشتغال الأوليات بأشغال الآخرين. وقد سبق لنا أن برهنا على أن هذا ضد طبيعة المرأة ويجب أن يعد من الأمراض الاجتماعية اللازم اسئصالها بالطرق الحكمية كما أثبتنا ذلك علمياً. ولو اعتُرض علينا بأنه قد يستحيل محو تعامل النساء مع الرجال مهما بذلنا من الوسائل. نقول: لو سلمنا بهذا الأمر فلن يبلغ عدد المتعاملات للضرورة جزأ من عشرة من مجموع نساء الجمعية المتمدنة، وعلى هذا فلا يجوز لنا أن نراعي الأقلية فى إباحة شئ فوائده موهومة ومضاره محققة منظورة. أما مضاره هذه فكثيرة جدا ولو لم يكن منها إلا سوق نسائنا إلى الدخول فى جميع الأدوار التى دخلتها المرأة الغربية من جراء اختلاطها بالرجال لكفى بها وازعاً قوياً لرجال المشرق عن وزود هذا المورد الخطر".

"ومن الأسف أننا معشر الشرقيين الجاهليين والمتجاهلين عظمة مدنيتنا الإسلامية القديمة التي هي نموذج الكمال البشري قد اعتدنا أن نضرب بالأورباوي المثل في كل شئ. فإن دعونا إلى الاتحاد قلنا احتذوا مثال الأوروبى فيه. وإن نادينا بلزوم التعاضد أشرنا إلى اقتفاء أثر الأوربى فيه وأن سعينا فى تحسين حالة النساء استلفتنا الأنظار إلى المراة الأوروبية وضربنا بها الأمثال. وهذا الأمر منا نعده من الغلطات الكبرى فإن مدينة أوروبا مهما بلغ شأنها في الصناعة ناقصة من أوجه كثيرة نقصانا يؤذن ياستحالة ثباتها على تلك الحالة. ولسنا نقول ذلك من باب الحسد ولكن هي الحقيقة الناطقة لمن ألم بأصولها وعرف اتجاه مجراها. وقد كتب الكاتب

الروسى الشهير "تولوستوى" مقالات ضافية الذيول مثبتا فيها أن كل أنواع الوحشية الاوربية القديمة موجودة للآن فى أرجاء البلاد المتمدنة تحت حماية العلم ولكنها تطورت فى أطوار أُخر وتشكلت بأشكال تغر البسطاء ولا تخفى على الألباء([148]). وقد قرأنا مرة مقالة الكاتب في إحدى جرائدهم يقول فيها ما معناه: "إنا معشر الأوربيين قد رتعنا في حياض المدينة ولكنا بغاية الأسف لم نكتف باقتطاف زهورها النضرة وثمارها الجنية ولكنا خلطنا ذلك بما فيها من حسك وحنظل وغرتنا الأماني حتى بتنا وقد أصبحت مدنيتنا مشوبة بما كان يجب أن تتبرأ منه، ولهذا هي قد آلت إلى الانهيار على نفسها والسقوط بنا إلى اسوأ مما كنا فيه". ولا نشك أن من ضمن مساوي تلك المدنية هي الحالة النساء فيها، وقد أثبتنا ذلك من أقوال فطاحل كتابهم وعقلاء نسائهم مما لا سبيل للمكابرة فيه. ولو كان المجال أوسع من هذا لأتينا على الإحصائيات التى تشير إلى المفاسد العامة والخاصة التي سببتها المرأة الغربية بغلوائها في الحرية، يقول قائل: "نحن لم نشر بالابتذال المطلق ولكنا أشرنا بوجوب كشف الوجه واليدين فقط." نقول: "قد ثبت أن التدرج سنة عامة في كل شئ فإن كشفت المرأة وجهها اليوم فمن المؤكد أنها تتدرج منه إلى خلع العذار للنهاية غدا كما فعلت المرأة الأوروبية، وربما سبقتها فى التبرج بعد حين قصير". يقولون: "وما العمل إذا كانت المدنية الحالية تقتضي ذلك، فهل يجوز لنا أن نحافظ على تقاليدنا القديمة المضرة رغما عن مطالب الحياة العصرية؟". نقول:

([148]) الألباء: جمع لبيب وهو الذكي.

"ليس للمدينة مجرى واحد لا تتعداه: فمن يكلف بدرس أشكال المدنيات القديمة يجد من التخالف فى أصولها ما يجعله يجزم بأن طرقها كثيرة جداً وأحسنها ما كان سهل السلوك غير وعر الخطط مأمون العاقبة حاصلا على سائر مميزات الانسانية. ونحن لو قارّنا بين المدينة الإسلامية الأولى (التي كان من أصولها احتجاب النساء) وبين المدنية الأوروبية الحالية لوجدنا أن الأولى تفضل الثانية من حيثيات كثيرة: أولها أنها كانت حائزة كل الكمالات الأخلاقية الصحيحة وفي التاريخ مقنع ممن كان له قلب([149]). ثانيها: أنها كانت أكثر تأثيرا على العقول فإنها صبغت بصبغتها في مدة قصيرة أمما ظلت آلافا من الأعوام حافظة لما هي فيه بدون أدنى تدرُّج ولا أقل ترقٍ. ثالثها: أنها كانت أسرع سيرا من مدنية أوربا فإنها أبلغت ذويها في مدة عشرات من السنين أوجا من العظمة لم تزل أوروبا مقصرة عن نوالها فيه من غالب الحيثيات ولا محل لتفصيل ذلك هنا لما يستلزمه من مقالات ضافية الذيول".

"بناء على كل ذلك يلزمنا أن نعير مدنيتنا القديمة نظرة لنرى ما هي تلك الأسس التي قامت عليها؟، وما هي تلك القواعد التي ثبتت أركانها حتى يتحقق أكثرنا طموحا إلى المعالي أن السلم إليها قد تركناه وراء ظهورنا وهمنا في تيه البحث عن غيره على غير جدوى. فهل من نفوس كريمة يهزها ذكرى مجدها القديم فتلتفت إلى أصوله لفتة علمية ترى أنه هو المجد الصحيح الذى يجب أن تشد له رواحل العزائم والذي سيتضح للعالم أجمع يوما ما أنه هو نفس الكمال الذي

([149]) الصواب: لمن كان له قلب، وقد راجعنا الطبعة الأولى فوجدنا الخطأ موجودا فيها أيضا.

ينشده الإنسان ويتلمسه الوجدان. نعم: "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"([150]). أ. هـ.

هـذا وبعـد أن تهيـأ الكتـاب للطبـع وطُـبِع معظمـه قـرأت في "**المؤيــد**"([151]) الأغر[152] مقالة رائقة المعنى شائقة المبنى لحضرة صاحب الحجج الدامغة والفصاحة البالغة فريد أفندي وجدي ألمت بجميع أطراف هذا الموضوع بعبارة سلسة معقولة فإتماما للفائدة وحفظا لهذه الدرر والغرر قد رأيت أن أختم بها كتابي ليكون ختامه مسكا إن شاء الله تعالى. قال:

رأي الطبيعة في مسألة المرأة

"نشرنا بالمؤيد ثلاث مقالات في تهذيب المرأة ووعدنا فى الأخيرة منها ببذل الوسع في تمحيص حقائق هذه المسألة المهمة قياما ببعض الواجب علينا إذ إنها من أكثر المسائل ارتباطا بحاتنا الاجتماعية ولا تكفي فيها جولة قلم أو لفتة نظر. وتاريخ المرأة في البلاد المتمدنة من الأدلة الواضحة على صدق ما نقول فإن

([150]) سورة فصلت: **53**.

([151]) إشارة إلى جريدة المؤيد وكانت تصدر آنذاك.

(**12**) انظر أعداد المؤيد نمرة: **2906** و **2913** و **2914** بتواريخ: **2**و **11**و **12** نوفمبر سنة **1899**م. (من هوامش الأصل).

obeikandl.com

من يعاني درس الأحوال الاجتماعية للأمم الغربية ولا سيما من حيث علاقها بالمرأة لا يسعه إلا التسليم بأن هذه المسئلة إن لم تكن أكثر الأشياء ارتباطاً بحياة الأمم فهي من أكثرها ارتباطاً بها".

"إن مسالة هذا شأنها من الأهمية تعوز كثيراً من الدرس والتأني وتستلزم اهتماما كليا من سائر أصحاب الأفكار فى الأمة حتى يكون لنا من تزاحم الظنون عليها مجاز([153]) ممهد إلى سرها الحقيقى. وقد أوردنا في مقالاتنا السابقة أقوال علماء العمران من القارتين في هذا الموضوع مما يكفي لأن يعرفنا أن الضالة التي ننشدها لا يتوصل إليها من الطريق التى اتبعتها المرأة الأوروبية ولا الأميريكية وأن هناك طريقاً آخر أسلم خطة وآمن عاقبة. ولكن ما هو هذا الطريق وكيف يمكن الوصول إليه؟ أنعتمد على العرف والعادة في بحثنا عنه مع علمنا بأن عرف اليوم قد ينقلب فكر الغد والعادة المستحسنة فى هذه السنة قد تكون فى تاليها الرذيلة المستهجنة؟ أم نقلد فيه سوانا على غير هدى وقد أذاقتنا الحوادث علاقم تقليداتنا الأولى؟ نعم لو كان أمامنا أمة تدعى أنها بلغت قمة الكمال في هذه المسالة أو هي على وشك بلوغه لوجب علينا الاقتداء بها، عملا بقول سيد الوجود صلى الله عليه وسلم "الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها" ولكن الأمر بالعكس فلا نرى أينما وجهنا النظر في الأمم إلا تشكياً من الحال وخوفاً من المآل. إذن لم يبق أمامنا إلا طريق واحد يؤدى بنا إلى ضالتنا المنشودة من أسلم السبل وأقومها، وليس

([153]) مجاز: طريق.

ذلك إلا باستفتاء نفس الطبيعة فى هذه المسالة:"قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" ([154])، فإنها لا تضن علينا بالجواب الشافي ما دمنا نجاهد في هذا السبيل بإخلاص وصدق عزيمة: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا"([155])، ويكون حكمها في هذا الشأن غير قابل للنقض ولا التحوير كما هو شأن العرف والعادة، لأن الناس فيهما: "لا يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس" ([156]) بخلاف نواميس الكون وقوانينه فإنها ثابتة لا تتغير ولا تتبدل: "ولن تجد لسنة الله تبديلاً"([157]) وعليه فنحن سنسلك في بحثنا هذا عين الخطة التى يشير بها القرآن الشريف من درس نواميس الكون والاعتبار بحوادثها. لا جرم أن هذه هي الخطة المثلى، ومن الغريب إنها مطابقة لما اصطلح عليه البشر بالقرون الأخيرة فى الوصول إلى الحقائق الصحيحة وقد سموا هذا النوع من البحث باسم "بوزيتيفزم" أي المذهب التجريبي([158]). وقد رأينا أن نقدم بحثنا بإيراد مقدمات محسوسة لا

([154]) سورة يونس: **101**.

([155]) سورة العنكبوت: **69**.

([156]) سورة النجم: **23**.

([157]) سورة الأحزاب: **62**.

([158]) اتخذ المذهب التجريبي في نظرية المعرفة طريقًا يخالف طريق المذهب العقلي؛ إذ أكد التجريبيون أن التجربة أو الخبرة الحسية هي وحدها دون غيرها مصدر المعرفة، وبالتالي أنكروا وجود معارف أو مبادئ عقلية مُسبَّقة، فأنكروا بذلك الفطرة. ولقد جاء على رأس التجريبيين المحدثين "جون لوك".

مجال للجدال فيها حتى نصل إلى النتيجة التى نتلمسها بكل اطمئنان فيرى كل قارئ وقتئذ بطريقة محسوسة أن ما قررته الشريعة الإسلامية هو عين ما تصرح به النواميس الطبيعية وتقتضيه الحالة البشرية وسنفتتح كل مقدمة بالآية التى تناسبها فنقول: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ"([159])

"نحن لما كنا نعلم أن سعي المرأة في الغرب وراء نوال استقلالها المطلق من سلطة الرجل هو سبب كل ذلك الإفراط الذي درسنا بعض آثاره المحزنة في مقالاتنا السابقة وإن هذه النزعة ربما انتقلت إلى الشرق بطريق العدوى تحت تأثير التعاليم المضرة رأينا أن تقيم الحجة في مقدمتنا الأولى على أن ذلك الاستقلال المزعوم ضرب من ضروب المستحيلات الطبيعية وإن الساعي في تحقيقه كالساعي في تغيير أوضاع نواميس الكون وهو مسعى يساوره لإخفاق من كل جانب فنقول:"

"أثبت علم التشريح أن الرجل أرقى من المرأة جسماً من سائر الحيثيات وبدرجة محسوسة جداً حتى ذهب بعضهم إلى أن المرأة الحالية ليست أنثى الرجل الحالي بل هي أنثى كائن آخر يشبهها فلا تركيبها وضعفها وإن ذلك الكائن قد انقرض بمزاحمة الإنسان له في الحياة فتغلب على أثناه التي من نسلها المرأة الحالية. هذا الفرض وإن كان تطرُّفاً من بعض العلماء إلا أنه يدلنا على عِظَم الفرق بين هذين الكائنين كما نبينه تفصيلاً فنقول: أثبت العلم بالتجربة أن متوسط طول الرجل يزيد عن المتوسط طول المرأة باثني عشر سنتيمتراً. هذه الزيادة تشاهد عند

([159]) سورة النساء: 34.

المتوحشين كما هي عند المتمدنين وعند الأطفال من كلا النوعين أيضاً. أما من جهة ثقل الجسم فإن متوسطه عند الرجال 47 كيلو وأما عند المرأة فلا يزيد عن 42 ونصف. وأما من حيث المجموع العضلي فإنه عند المرأة أقل منه كمالاً عند الرجل بكثير. قال الدكتور "دوفاريني" فى دائرة المعارف الكبيرة عند ذكره هذا المجموع: "إنه أقل حجماً وأضعف منه عند الرجل بقدر الثلث وحركاته أقل سرعة وأقل ضبطاً". أما القلب وهو مركز القوة الحيوية فإنه عند المرأة أصغر وأخف بمقدار 60 جراماً في المتوسط. أما الجهاز التنفسي فإنه لدى الرجل أقوى منه لدى المرأة، فقد ثبت أن الرجل يحرق في الساعة 11 جراماً تقريباً من الكربون وأما المرأة فلا تحرق منه إلا ستة وكسراً، ولذلك فحرارة المرأة أقل من حرارة الرجل. أما الحواس الخمس فقد أثبت الأستاذان "نيكولس وبيليه" أنها أضعف عند المرأة منها عند الرجل، فهي لا تستطيع أن تدرك رائحة عطر الليمون على بعد مخصوص إلا إذا كان ضعف المقدار الذى يدركه الرجل فيه وشوهد بالامتحان أن المرأة لا تدرك رائحة حمض البروسيك المخفف إلا على نسبة 1/ 20000، أما الرجل فيدركها على نسبة 1/ 10000. "أما حاسة الذوق والسمع فإن الرجل أدق من المرأة فيها بكثير، ويكفيك دليلا على ذلك أن أهل الخبرة في تميز الطعوم ونقد الأصوات وتوفيق نغمات البيانو كلهم من الرجال كما جاء في "دائرة المعارف الكبيرة". أما حاسة اللمس فقد شوهد أن الرجل أدق من المرأة فيها. وقد برهن الأستاذان "لومبروزو وسيرجى" وغيرهما بأن المرأة تحتمل الألم أكثر من الرجل، مما يدل على

قلة إحساسها به، قال لومبروزو: وهذا من حسن حظ النوع الإنسانى فأن المرأة معرضة لكثير من الآلام كالحمل والوضع وغيرها ولو كانت حساسة كالرجل لما استطاعت تحمُّل ذلك كله".

"يُرى مما مر كله أن المرأة بضعفها أكثر تعرضاً لمصائب الحياة من الرجل وأشد استهدافا لأنواع الأمراض منه. قال العلامة "تروسيه" في دائرة معارفه: "إنه بالنسبة لضعف دم المراة ونمو مجموعها العصبي نرى مزاجها أكثر تهيجاً من مزاج الرجل وتركيبها أقل مقاومة من تركيبه فإن تأديتها لوظائفها من الحمل والأمومة والإرضاع يسبب لديها أحوالا مرضية قليلة أو كثيرة الخطر. فإن الهستريا من أمراضها الخاصة وهى عرضة للخور والحمى النفاسية والسل والسرطان ولجملة عوارض محزنة هي من لوازم جنسها".

"هنا يمكن أن يقول قائل: إن ذلك الضعف التشريحي الذي أثبته نتيجة ضغط الرجل على حريتها وإجبارها على ملازمة ما يفسد صحتها. نقول: هب أن ذلك صحيح فما سبب رخامة صوتها؟ على أن من الثابت علمياً أن سكان البلاد الحارة من المتوحشين يكلفون نسائهم بأعمال الحراثة والزراعة وغيرهما من أول الخلقة إلى الآن، ومع ذلك فإن تلك الفروق تشاهد بعينها بين رجالهم ونسائهم. قال الأستاذ "دوفارينى" في "دائرة المعارف الكبيرة" إن هذا الفرق يشاهد عند البتاجونيين "بعض متوحشي أمريكا" كما يشاهد عند الباريزيين وعليه فلا سبيل للجدل في هذه القضية".

"أما من جهة أفضلية الرجل على المرأة فى الإدراك فمما لا مشاحة فيه حيث أثبتتها البسيكولوجيا "علم النفس" بالتجربة: فقد شوهد أنه يوجد فارق جسيم بين مخي الرجل والمرأة مادةً وشكلاً. وكل من يعرف أن المخ هو مركز الإدراك يعرف تبعا لذلك أن من كان مخه أرقى كان إدراكه أفضل. أثبت العلم أن مخ الرجل يزيد عن مخ المرأة بمقدار **100** جرام في المتوسط ولا يعترض علينا بأن ذلك الفرق منشؤه حجم الاختلاف بين حجمي الجسمين لأنه شوهد أن نسبة مخ الرجل إلى جسمه هي كنسبة **1/ 40** أما نسبة مخ المرأة إلى جسمها فكنسبة **1/ 44** وفرق بين النسبتين. وغير هذا فإن مخ المرأة أقل ثنيات وتلافيفه أقل نظاماً. وهذه المشاهدة يعدها العلماء من أكبر مميزات الجنسين وكذلك يوجد اختلاف بين المخين فى المادة السنجابية التي هي النقطة المذكورة من المخ: فهي عند النساء أقل منها عند الرجال بدرجة محسوسة جدا. ولكن في مقابلة ذلك نجد مراكز الإحساس والتهيج عند المرأة أحسن تركيباً منها عند الرجل. قال الأستاذ "دوفاريني" وهذا مطابق لمميزات الجنسين من الحيثية النفسية فإن الرجل أكثر ذكاءً وإدراكاً وأما المرأة فأكثر انفعالاً وتهيجاً".

"لا شك أن كل هذه الاختلافات المخية تدلنا بأوضح برهان على أن مركز الإدراك في الرجل أرقى منه فى المرأة فيكون هو أفضل منها عقلاً. ولا يمكن أن يُعترَض علينا بأن ذلك نتيجة حرمان المرأة من التهذيب طول تلك القرون الخالية وأن بمرور الزمن قد ينمو مخها حتى يساوي مخ الرجل لأن تلك الفوق تشاهد

بعينها فى الشعوب العريقة في الوحشية التي لا حظ لكلا الجنسين فيها من التعلم، فلو كان السبب الذي رقى مخ الرجل عن المرأة هو التعلم فلماذا نشاهد تلك الفروق بنفسها عندهما وهما فى حالة السذاجة الطبيعية الأولى التي لا يفضل أحدهما الآخر في مزية عقلية ما. ولكن ليهدأ أنصار المدنية الغربية فقد أثبت القوم انهم كلما ازدادوا تمدنا كلما ازداد الاختلاف بين الرجل والمرأة فقد جاء في دائرة المعارف الكبيرة ما نصه :"الاختلاف الطبيعي يزداد وضوحاً بازدياد التمدن بحيث قد أصبح الفرق بين الأبيض والبيضاء أكبر بكثير من الفرق بين الأسود والسوداء. .. إلخ".

"إذا تقرَّر هذا كله وثبت لنا بالبرهين المحسوسة أن الرجل أفضل من المرأة جسما وعقلا نقول: إن طلب مساواة الجنسين في سائر الحقوق هو عبث محض والساعي في تأسيسها كالساعي في جعل الأرض تجذب الجسمين المختلفين في الوزن بدرجة واحدة وهو مما لا يتصور حصوله ولو حصل لاختل الكون ولأصبح أثرا بعد عين. فلتسامحني حضرات السيدات في خشونة مقدمتي هذه فإن الابحاث العلمية لا محاباة فيها، ولتمسحن لي باختتام ما قدمته بأنهن سبيقين دائماً تحت سلطة الرجال وسيطرتهم ولا عار عليهن من تحمُّل تلك السلطة الطبيعية بل يعار عليهن بما أتوا من الذكاء أن يسعين في نبذها: فذلك جهد يذهب أدراج الرياح ونحن بعد أن أزلنا هذه العقبة الكؤود من طريق بحثيا ندخل فى الموضوع على

النسق الذى توخيناه هنا من استجواب الطبيعة واستفتائها جرياً على أمر القرآن الكريم والله المستعان".

***

"إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ"([160])

"لكل كائن فى هذا الوجود "كمال" مُسيَّر إليه بقوة الإرادة الإلهية ليتم الإبداع الذي قدره الصانع جل وعلا لمجموع هذا الكون البديع. فلكل شخص من أشخاص المواليد الثلاثة من جماد ونبات وحيوان "كمال" خاص به قد تكفلت العناية الإلهية بسوقه إليه رغم أنفه، إما بواسطة النواميس الطبيعية كما فى الجماد والنبات وإما بواسطة الإلهام الفطرى كما في الحيوان. أما الإنسان وهو ذلك الكائن السامي فقد اقتضت حكمة الباري عز وجل لغرض قد لا يدركه إلا الراسخون في العلم أن لا يخلقه مطبوعا على عمل خاص وانما يهبه مقابل ذلك قوة إدراكية تصلح لأن يتناول سائر ما يتصور من المعلومات الغير متناهية من طرق غير متناهية وبوسائل لا يحصرها حد".

([160]) سورة القمر: 49.

"ومن يدقق النظر في أجزاء هذا الكون البديع يرى أن الخالق تقدست أسماؤه قد وهب كلا منها خصائص يباين بها سواه لتسوقه بقواها الكامنة الى أداء عمل خاص يخالف سائر أعمال الأجزاء الأخرى ليتكون من محموعة تلك المتباينات الكونية هذا الوجود الذي تحار العقول والأبصار في جماله وكماله. على أننا لا نسطيع أن ندرك كمال جزء من أجزائه إلا إذا علمنا "ماهية الوظيفة" التى خلق لأجلها فيكون كماله على قدر إحسانه القيام بتلك الوظيفة".

"سبحان الذي "أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى"([161]). قضت حكمته تعالى أن يكون شأن الإنسان في كل شئ مبايناً([162]) لشؤون سائر الأنواع الحية لحكمة لا يفقه كنهها إلا هو. فبينما ترى كلا من الكائنات قد سيق رغم أنفه إلى أداء وظيفته وطُبِع على التزام حدودها ترى هذا الإنسان لم يزل يتساءل "إلا من احياه الله بالعلم اليقين" لماذا خُلِقت ومن أين أتيت وإلى أين أذهب؟ ولكن لا نظن أن الخالق العظيم قضى على الإنسان بالبقاء أبديا في هذه الحيرة فلابد أن يكون قد أحاط وجوده بعوالم تتقاسم أحواله وأطواره حتى تؤديه ولكن بعد هنا وهنات([163]) إلى الطريق الأقوم والصراط المستقيم: "سأريهم آياتي فلا يستعجلون"، ونحن لو أردنا أن ندرك سر تدرج الإنسان من البهيمية إلى الإنسانية الكاملة نجده في اكتشافاته

([161]) سورة طه: 50.

([162]) مبايناً: مخالفاً.

([163]) هنات: سقطات.

المتوالية لنواميس الطبيعة وعدم معارضته لسيرها واستخدامه قواها لمنافعه الخاصة حتى يمكننا أن نقول إن نهاية الكمال المدني الذي سيدركه الانسان يوما ما "وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ"([164]) هو اكتشافه لسائر نواميس الكون السائدة على وجوده".

"ولكن يجب علينا هنا أن ننبه بأن الإنسان ليس بمفطور على أن يعمل بما يعلم فهو كثير المحاولة شديد المراوغة والتلاعب يلوح له الخيال والحقيقة في أمر فيغره الأول بظاهره المموه وروائه المزخرف فيميل إليه وهو عالم بما يسوقه من النتائج الوخيمة عليه على أمل أن يقضى منه وطراً ثم يعود إلى الحق عود التائب المنيب، وقد يُشكِل([165]) عليه كلا الأمرين أحيانا فيختار أكثرهما تأثيرا على هواه ظانا أن فيه دواه وهو مثار جواه. ومنبعث بلواه. ولكن الطبيعة واقفة بالمرصاد تنترل على العابث بنظام مبدعها عقاب ما اجترحت يداه مصداقا لقول الله "وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه"([166]) ليفئ الناس إلى رشادهم وليتبينوا بتأثير المصائب طريق إسعادهم "لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ".([167])

([164]) سورة الحج: 47.

([165]) يشكل: يختلط عليه فلا يميزه.

([166]) سورة الزلزلة: 8.

([167]) سورة الروم: 41.

"كل هذه المقدمة لا تعد شرودا منا عن موضوع البحث فقد اقتضاها المقام كما يلوح لكل متأمل فلندخل الأن إلى سر مسئلتنا، ولكن بعد أن نرجو القارئ أن يستحضر في فكره كل خرافات المتغاليات من النساء في المطالبة بالمراكز السياسية ومشاركة الرجال في إدارة الشؤون العمومية وفي الاشتغال بسائر الأعمال الصناعية ليطبقه على ما سنتلوه عليه من وظيفتها الطبيعية ليرى أن تلك المطالب يستحيل تحققها اللهم إلا إذا تغيَّر شكل جسمهن وزايلتهن([168]) لوازم جنسهن، فنقول:

"ما هي وظيفة المرأة الطبيعية"

"للمرأة في الحياة الإنسانية وظيفة سامية للغاية وهي حفظ النوع البشري واستدامته مما لا يتأتى للرجل أن يشاركها فيه لأنه يتعلق بشكل التركيب الجسمي الأمر الذي لا يمكن الحصول عليه بالتصنع ولا التقليد فمن يكون على بينة من علم التشريح يرى أن هذين الكائنين اللذين لا يفترقان في ظاهرهما إلا بفروق صغيرة مختلفان في تركيبهما الداخلي اختلافاً كلياً مما لا سبيل للمقارنة بينهما. هذه الوظيفة الخاصة بالمرأة لها جملة أدوار تتعاقب عليها ولكل دور منها لوازم تزايلها يجب الإلمام بها لندرك أهمية هذه الوظيفة وخطرها. فهي تستلزم الحمل والوضع

([168]) زايلتهن: فارقتهن.

والإرضاع والتربية. ومن يتأمل في مقدمة مقالتنا هذه ويتحقق أن لكل كائن وظيفة يتوقف "كماله الشخصي" على حسن أدائها وجب أن يتساءل معنا عن ماهية حدود وظيفة المراة وعن كيفية حسن أدائها لها لنعلم لهذه البديهة العلمية على أي شئ تتوقف سعادة الجنس اللطيف فنقول":

ما هي حدود وظيفة المرأة واختصاصتها؟

"قلنا إن وظيفة المرأة تستلزم أربعة أدوار: حمل ووضع وإرضاع وتربية. ولكن ماذا يفيد هذا الإجمال بالنسبة لهذه الأحوال الأربع التي وضع العلماء في شرحها قديماً وحديثاً ما لا تكفي عدة صحف لسرد أساميها فضلاً عن التعمق فيها؟ فمن يبلغ عني تلك المرأة الحامل التي تحشر نفسها في زمرة المضربين عن العمل بأنها إنما تعرِّض نفسها باستهدافها للوكز والدفع إلى أشد الأخطار على حياتها وحياة جنينها!!".

"ومن يبلغ عني تلك المرضع التي تصيح وتنفعل انتصاراً لرأيها السياسي أنها بذلك الانفعال النفسي تفسد لبنها فتسقي ولدها منه سماً زعافاً ربما قضى على حياته القضاء المبرم!! ومن يبلغ عني تلك المحامية التي تقضي طوال نهارها في المدافعة عن مجرم لتخفف ويلات العقاب عنه ومعظم ليلها في جمع المستندات وتنقيب شروح الشريعة أنها بإهمالها التعمق في علم التربية تسئ آداب ولدها من

حيث تظن إنها تحسنها فيشب شريراً عتلاً زنيماً، ثم لا تستطيع أن تبرئه عند المحاكمة بفنونها الجدلية. أليست هذه الاشياء كلها تمرداً على نواميس الطبيعة وعصيانا لأحكام مكونها".

"أليست إهمالا من المرأة لشؤون وظيفتها الطبيعية التي يتوقف عليها كمالها وسعادتها واشتغالا بما يضرها هي ومجتمعها لإبعاده إياها عن كمالها الذي لا يتم كمال المحتمع إلا به؟".

"يقول قائل: وماذا يضرنا لو أحسنت المرأة عملها الخاص بها ثم التفتت إلى عمل غيرها فساعدته فيه؟ نقول لهذا المعترض لا يفصل هذه القضية بيننا بحكم لا يقبل استئنافا إلا الطبيعة البشرية نفسها فلنوجه اليها هذا السؤال:

"هل تستطيع المرأة أن تبلغ الكمال في وظيفتها الخاصة بها مع مشاركتها للرجل في وظيفته الخارجة؟ أنَّا لنسمع الطبيعة تصيح بيننا بلسان فصيح قائلة: كلا ثم كلا. وإليك التفصيل: أما فى مدة التسعة أشهر للحمل فلا تستطيع المرأة إحسان عمل من الأعمال مطلقا لأن جنينها في تلك المدة يدخل في أدوار مختلفة ولكل دور منها آثار تبدو عليها وأعراض لا تفترق عن أعرض الأمراض فى شئ لأنها نتيجة تفاعلات باطنية تؤثر على مجموع البنية تأثيراً يختلف باختلاف طبيعة الجسم نفسه من قوة وضعف. ولهذا الدور من أدوار حياة المرأة شرائط صحية كثيرة اكتشفها الأطباء من تجاربهم العديدة ويجب على الحامل ملاحظتها بالدقة وتطبيقها

على سائر أطوار الحمل المختلفة لتخرج منه هي ولدها سليمين وإلا فتكون قد عرضت نفسها لأخطار قد تذهب بحياتها هي وفلذه كبدها دفعة واحدة".

"يقول الأطباء: ولما كانت مدة الحمل في الحقيقة حالة مرضية وجب على أهل الحامل أن يعاملوها بمزيد الرعاية مع إبعادهم عنها كل ما يكدر أفكارها أو يعارض مزاجها لتأثير كل ذلك على صحتها وصحة جنينها وأن يحتملوا ما يبدو منها من حدة الخلق وشدة الانفعال لأنها تكون مكرهة على ذلك من جراء الاضطراب العصبي الذي يلازم تلك الحالة".

"أما دور الوضع فهو دور شديد الهول كثير المخاوف تتعرض الحامل فيه لالآم حادة وتقع بعده في مرض حقيقي وضعف شديد وقد أفرد الأطباء لهذا الدور كتبا ضخمة ملآى بما يجب مراعاته نحو الوالدة من القواعد الصحية التي تكفل نجاتها من الحميات الكثيرة الأنواع التي تتهددها في ذلك الحين".

"أما دور الإرضاع فهو وإن كان أقل خطرا من الدورين السابقين بالنسبة للأم إلا أنه أشد خطرا بالنسبة للطفل فإن له قواعد مخصوصة وقانونا يجب مراعاته تمام المراعاة لأن إسراف الأم في أكلة متبلة ربما جرت على طفلها نزلة معدية أوردته حتفه أو ربما أكثرت من إرضاعه بغير تدبير فسببت لديه تخمة تنكد عليها حياتها وحياه أهل بيتها أجمعين. وليس الأمر قاصرا على هذا فإن الطفل يجتاج من يوم ولادته إلى يوم فطامه لملاحظة شروط جمة بالنسبة لتغذيته وكسوته وتنظيفة لو أهمل

منها واحدة أثر على المولود تأثيراً سيئاً ولو كان في بلادنا إحصائيات كاملة لعلمنا منها أن أكثر الأطفال يموتون من جهل الأمهات بشروط التربية الطفلية".

"أما وظيفة التربية فهي من أقدس الوظائف وأدعاها للعناية والاهتمام فإن الطفل عندما يخرج من ذلك العالم الغيبي تكون مرآة نفسه خالية من جميع الصور مبرأة من جميع النوائب الأخلاقية والمعائب النفسية وقابلة لأن ترتسم فيها كل صورة عرضت إليها على علاتها ولكل من هذه الصور لوازم وآثار تؤثر على وجدان الطفل عند ما يشب وتسوقه رغم أنفه إلى الوجهة التي تهيئها له. فما الجبن والشجاعة وما المكرم والبخل وما البشاشة والعبوس إلى غير ذلك من الرذائل والفضائل في الإنسان إلا آثار تلك الصور التي ارتسمت في مخه وهو خالي الذهن من كل شئ.. فإذا كان الناس قد اعتادوا أن ينظروا إلى من ورث مالا فأساء التصرف فيه بعين الأسف المتلهب، فبالأولى يجب عليهم أن ينظروا بتلك العين إلى الأم الجاهلة بشرائط تلك التربية بل شتان بين كنز يبذَّر وبين نفس كريمة تقتل قتلا أدبيا فيشب صاحبها رغم أنفه جائحة([169]) على بني جلدته ومصيبة على إخوان ملته، أو بالأقل غير نافع لقومه مع أنه لو كان ممن أسعده حظه فأحسنت أمه تربية ملكاته وتنمية مواهبة لشب وهو واحد من أولئك الافراد الذين تسعد بهم الأمم وترقى بهممهم إلى أوج الجلالة والعظم. فهل يأتي على الناس زمان يدركون فيه هذه الحقيقة الجليلة فيلقون على الأمهات هذه المسؤولية العظمى؟ وهل يأتي

([169]) الجائحة: الشدة التي تجتاح.

عليهم حينٌ يعلمون فيه أن فن تربية الأطفال ليس من الفنون البسيطة التي تُتَعلم في شهر أو شهرين بل تقتضي سنين طويلة لأنها تتناول معظم العلوم النفسية وكيفية تربية الملكات ومعالجتها بالطرق الحلمية؟ وهل يأتي عليهم وقت يعرفون فيه أن هذه العلوم لاتساع موادها وتشعب أصولها لا تدع محلاً لسواها من العلوم الأخرى إلا بما يقيم أود الفكر ويصقل مرآة البصيرة".

"إذا أتى علينا الزمان المنتظر فهل نقول وقتها بلزوم اشتغال النساء باشغال الرجال وقد أثبتنا من قول علماء العمران فى مقالاتنا السابقة إنها تسلخهن من عائلاتهن سلخا وتقوض دعائم أسرهن تفويضا؟ ثم هل نذهب إلى ضرورة نبذ الحجاب واختلاط النساء بالرجال وقد برهنا من أقوال العلماء من العالمين الأوروبي والأمريكي على أن لا نتيجة لذلك إلا التهالك على التزين والتبرج واقمنا الأدلة من قول نفس المراة أن ذلك الاختلاط الذي يدَّعون أن فيه فوائد للنوعين لا أثر له في ترقية شأن المرأة لأنهم يقصرون المقابلات على تبادل التحايا ذوات المعاني المتنوعة التي كانت تستعمل بعينها في مدة لويز الخامس عشر([170])؟ بأي صفة

([170]) لويس الخامس عشر: (1710 – 1774) ملك فرنسا (1715 – 1747) تولى الحكم وهو في الخامسة واتسم حكمه بالانحطاط فكان تمهيدا لنشوب الثورة الفرنسية (1789) وفي عهده خسرت فرنسا معظم ممتلكاتها فيما وراء البحار. (نقلا عن: معجم أعلام المورد – موسوعة تراجم لأشهر الأعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين مستقاة من "موسوعة المورد" – تأليف منير البعلبكي – إعداد: الدكتور رمزي البعلبكي – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الأولى 1992 – صفحة 395).

يلزمنا أن نصف المرأة التي تترك فلذة كبدها في حجر مرضعه أو مربيته الجاهلة لتذهب هي إلى الأندية السياسة لتلقي الخطب في تأييد وزاوة أو في تفنيد مطالب حزب من الأحزاب؟ لا شك يجب علينا أن نصفها بالمجرمة الجانية المتعدية لحدودها ويلزم منعها واستلفاتها بما يمكن من الوسائل إلى ذلك المولود الذي ألقته القدرة الإلهية إلى عهدتها لتقيم أود جسمه وعقله عوضا عن اشتغالها بما لا يتعطل بدونها لأنها بخطبها إنما تؤي وظيفة خطيب وكثير ما هم، ولكنها بإهمالها شأن مولودها تدعه لتربية الصدف وهي لا تكفي مهما كانت حسنة لأن تبرز مكنونات الفطرة أو تستخرج عجائب القوى النفسية فيشب كما يجيء لا كما يجب مع أنه كان في مكنة أمه أن تبث في روحه روح الكمالات والفضائل وتحيط نفسه بسياج من الحكمة تمنعه من مقارفة الرذائل ومداناة المقاذر([171]) فيكبر رجلاً صالحاً يخدم أمته خدماً ترفع مجدها إلى عنان السماء ويخلد لوالدته الفاضلة اسما بين فواضل هذا النوع الإنساني فيرحمها من في الأرض ويصلي عليها من فى السماء. هذه هي "المرأة الكاملة" المربية المحتجبة بحجاب العفاف والصيانة. حجاب الكمال والرزانة التي هي في لزوم بيتها وعدم تبرجها كالقلب من الجسد محتجب بين الأضلاع لعدم استعداده مثلها لمقاومة المؤثرات الخارجية، ولكنه احتجاب لم يمنعه من تأدية وظيفته السامية للبدن كله كما لم يمنع الناس من تقديره حق قدره

([171]) المقاذر: مواضع القذارة.

فهو مستودع الحياة ومنظم حركات سائر الأعضاء.. وهو المخصوص بالرعاية والملحوظ بكل العناية".

"يقول قائل إن كلامك هذا يقرب أن يكون يكون خيالياً شعرياً لبعد تحقُّقه لا سيما ونحن في زمن لعبت فيه الأهواء بألباب الرجال وصار من الصعب فيه تمييز النقص من الكمال حتى لا نجد فيه إلا غارا([172]) أوتي حيل الشياطين أو مغروراً دفعه وهمه إلى أسفل سافلين. زمن لا يطبق فيه العلم على العمل إلا فى الصناعة فقط وأما ما يختص بتهذيب النفس وكبح الأهواء فيقتصر على تدوينه فى الأسفار الضخمة ليتلوه من أراد أن يفهم معنى علم الأخلاق، فلبست الوحشية والعياذ بالله لباسا من استبرق الصناعة وتحلت من حلي الفنون الجميلة بما يغر البسيط حتى إذا قرب منها أبرزت له أنياب الأفاعي ومخالب الأسود الضواري فمزقته أو يهجر ضرتها الإنسانية هجراً كلياً، ويظل أمام هيكلها راكعاً ساجداً يعبد هواه حتى يقضى الله امراً".

"نقول لهذا القائل: نحن لم نرد أن نبحث فى عجالتنا هذه عما إذا كان من الممكن أن أهل المدنية المادية العصرية يوفقون بينها وبين مطالب الإنسانية ولكنا أردنا فقط أن نعرف ماهية "المراة الكاملة" وقد استجوبنا الطبيعة في ذلك الشأن فأجابتنا بلسان نواميسها الناطقة بأن كمالها لا يتأتى إلا إذا عرفت كنه وظيفتها ومبلغ اختصاصاتها وقد أريناك أنها اختصاصات خطيرة على ملاحظتها سعادة البشر

([172]) الغارّ: من يغر الناس ويضللهم بالأماني الكاذبة كالشيطان.

كما أن على إهمالها شقاءه ولا نظن أن ما أوردناه هنا يقبل جدلاً، لأنَّا إنما استفتينا نواميس الحكمة الإلهية فأفتتنا، ومن أراد جدالها فقد جادلها كثيرون فكبتتهم بعدما بكتَّتهم، ولم يزل يجادلها الناس في كل مكان وهي تقيم عليهم الحجة بعد الحجة قولا وفعلا. إما قولا فبلسان علمائها ممن ذكرنا بعضهم سابقا ولو شئت لأتيناك بهم قبيلا. وإما فعلا فبالفساد الذي ينتشر فيهم كلما لجوا في جدلها وتمادوا في محاولتها".

"نحن لا نقول إن امرأة حاصلة على حريتها في أي أمة من الأمم بل هي لم تزل مُستعبَدة أسيرة بجهلها في كل بقعة. ولكنا نقول والبراهين بين أيدينا إنها أشد عبودية فى البلاد الغربية منها في البلاد الشرقية، لأن حريتها ليست في رفع الحجاب والإذن لها بالخوض في معترك الحياة وهو ذلك المعترك الهائل الذي لا يُنَالُ الفوز فيه إلا باقتحام المخاطر. وتكبُّد مشاقٍ تشق المرائر. معترك يأكل القوى فيه الضعيف وليست القوة والضعف فيه تتعلق بصلابة العضل أو بلينه فقط بل بأمور أخرى أيضا مركزها العقل وحسن التصرف بقوى الفكر. ولو قارنت الرجل والمرأة من هاتين الحثيتين لحكمت لأول وهلة أن الغالب لن يكون على أى حال إلا الرجل دون سواه كما أثبتنا ذلك علميا. فأي خديعة يخدع بها هذه المرأة الضعيفة أشد من جعلها ترمى "سلاحها الطبيعي" الذي يمكنها أن تنال به مركزها السامي في هذه الحياة، وتتناول سلاحاً آخر لا تحسن استعماله أمام مغالبيها مهما استبسلت واستماتت؟ إذا علمت أن الحياة حرب عوان وتنازُع في البقاء فقل لي

أي سلاح يليق أن تخترق به المراة المسكينة صفوف هذه الهيجاء المستعمرة؟ أتجعل سلاحها العلم؟ السياسة؟ التجارة؟ الصناعة؟ الزراعة؟ كل هذه أسلحة يستطيع الرجل أن يغلبها بها ولا سبيل للمكابرة. وإذاً هل خلقت المرأة ليطحنها الرجل بكلاكل الغلبة والقهر كما يرى ذلك في بلاد المدنية، حيث تجد أسراباً من ذلك الجنس اللطيف يقضين الليل والنهار في العمل الشاق بالمعامل لسد رمقهن وكسوة أبدانهن حتى لم يسمح لهن الشغل أن يتزوجن فصرن كما يقول الاستاذ "فريرو" وغيره لا رجال ولا نساء بل جنساً ثالثاً من مميزاته شحوب الوجه وعبوسه ودوام الاكتئاب والماليخوليا؟ وهل من آثار حرية المرأة هجرة الشابات والعجائز منهن إلى البلاد الشرقية بعشرات الألوف ليؤدين وظيفة خادمات عند الشرقيين أو حاملات لأطفالهم؟ اللهم إن كان ذلك التحرير يؤدي المرأة إلى هذه الحال التعيسة فما أجدر نساءنا بأن يرفعن أيديهن إلى السماء داعين الله أن يسبغ عليهن نعم الاستعباد بأكثر مما هن فيه!!".

"كلا لم تخلق المرأة لتُستعبَد فيجب عليها أن تجاهد لنوال حريتها. ولكن بأي سلاح وهبه الله لها وليس من جنس سلاحنا وليس في مكنتنا أن نقابلها بمثله، ولكنها بغاية الأسف غافلة عنه ولا تفكر فيه وليس ذلك السلاح إلا معرفتها خطارة وظيفتها وسمو مقام الهبة التي منحتها والعمل على حسن التصرف بها. هذا السلاح يجعلها موضوع التجلة والاحترام ومحل الإجلال والإعظام لأنها تعتبر عندئذ مالكة لأزمة الإحساسات وسلطانة على منازع الطباع فهي إن شاءت جعلت الحكومة

ملوكية وإن شاءت قلبتها جمهورية وإن شاءت عملتها اشتراكية وما ذلك إلا بتربية الأطفال على حسب أميالها وسوقها إلى الغاية التي تتمناها فتهابها الحكومات ويخشى سطوتها الملوك في عروشهم السامقات ويعدونها مزعزعة إن لم ترض عنهم الأمهات. وتستطيع وقتها أن تقتاد الرجل بزمام من حديد لتنتقم منه على ما اجترحت يداه فى حقها حيث كان يتركها تعمل بجسمها لتنال بلغة تتلمظ بها، هرباً من أنياب الموت، لولا أن الخالق تقدست صفاته قد احتاط لهذا الأمر فوهبها من رقة الأحساس والشفقة المتناهية والعواطف الرقيقة ما يؤهلها لمنزلتها هذه من السيطرة وقيادة الأميال فهي لا تأمر إلا بخير ولا تبعث إلا لمرحمة".

"هذا هو سلاح المرأة الذي لو علمته لسعت إليه سعياً حثيثاً ولرمت بقول كل من يريد أن يلفتها عنه عرض الحائط ولاتهمه بأنه يحسد مستقبلها فيريد أن يوجهها إلى ما يزيدها أسرا ويجعل عيشها مراً. هل ترضى المرأة عند ذلك ما تعرف كنه مستقبلها هذا أن ترفع الحجاب؟ كلا لأنها تعلم أن ذلك يسوقها إلى محجة التزين والتبرج ويبعثها إلى البذخ ومتابعة الأهواء كما أثبتنا لها ذلك مما لا سبيل معه للمكابرة، وهو أمر يعطلها بل يصدها عن بلوغ شأوها المنتظر. ثم هل تميل لأن تجاري الرجال في الأشغال؟ كلا لأن ذلك يسلخها عن عرش ملكها "أسرتها" سلخاً فلا تتوصل إلى مركزها المستقبل الذى فيه سعادتها وحريتها. إذا ماذا تعمل؟ تتعلم كيف تكون أما وتدرس قوانين وظائفها وتدأب على مطالعة أسرار التربية وعجائبها التي بها يصير الجبان شجاعاً والبخيل كريماً، والإمبراطوري جمهورياً والاشتراكي

ملكياً.. إلخ وتترك التبرج والتباهي بتعلم اللغات الأجنبية ولا تسرف في الزخارف فإن الانهماك على كل ذلك يبعدها عن كمالها الذي فيه سر مجدها ويجرها تدريجياً إلى ما فيه عبوديتها ورقها. ولا يغرها ما تراه من انطلاق النساء في غير قومها ولا تستنتج من تطوافهن مع أزواجهن فى الشوارع أنهن أقرب منها إلى ذلك المستقبل السامي. كلا فقد جرهن ذلك الانطلاق إلى طريق غير طريق سعادتهن وقد أخذ قومهن في التشكي من حالتهن، وقد نقلنا عنهم كل ذلك تفصيلاً ومن استزادنا زدناه تطويلاً. تلك هي المراة الكاملة وتلك هي حريتها الحقيقة وذلك هو سلاحها في معترك هذه الحياة فليتخذ الشرقيات هذا المثل نصب أعينهن وليعملن على التقرب منه شيئاً فشيئاً، حتى ينلن سعادتهن وبتلبية سعادتنا المرتبطة بهن والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل". أ. هـ.

openkandil.com

ذيل

كتب بعضهم – المسيو ا. م. دى افيبرينو – في جريدة الفارد الكسندري في عددها الصادر في 15 دسمبر سنة 1899 مقالة عنوانها: "**تحرير المرأة**" يقول فيها: "**إن نساء المسيحيين في البلاد الإسلامية كن يحتجبين احتجاب نساء المسلمين لعهد غير بعيد ثم نبذن ذلك الحجاب وبرزن من خدورهن واختلطن بالرجال وقلدن الفرنجيات فتقدمن تقدما عظيما وأفادهن الاختلاط فوائد جمة ما كن يحصلن عليها وهن محتجبات، وأنه يصعب عليه أن يرى نساء المسلمين محرومات من هذه المزايا والفوائد، ولذلك يدعو إلى الحث على رفع حجابهن واختلاطهن بالرجال وتخليصهم من هذا السجن الذي هن فيه وهذه الحياة المرة التي تقاسينها. ويقول إنه ليس بعد ما أصبح عليه النساء المسيحيات دليل على نِعَم الاختلاط وعلى ضرورة الاقتداء بهن وأن من يرميهن بغير صفات العفاف والصون والكمال فقد افترى عليهن وكذب، وإلا فلو كان ما يرموهن به صحيحاً ما كنا نشاهد هذا التقدم السريع والعظيم في البلاد المسيحية وهي أعظم البلاد منعة وقوة واقتداراً في هذه العصور باعتراف الجميع. كما أنه لا يعتقد بقول أن لكل دين خلقا ولكل قوم أدباً وطبائع وأن هذه الموائد لا تلائم أخلاق المسلمين ولا طباعهم إذ ماذا يضر**

المسلمين لو قلدوا الفرنج في هذا الأمر أيضا بعد أن قلدوهم في كل شئ: فقد قلدوهم في المأكل والملبس وتعلموا لغاتهم وبنوا بيوتهم على طرازهم وسبقوهم حتى فى شرب الخمور الذي تحرمه ديانتهم!!"

واختتم الكاتب مقالته بقوله: **"إنه مهما كانت مزايا الاختلاط ورفع الحجاب عظيمة ويجب تحقيقها للمسلمات فإنه يشك في أن النتيجة تكون حسنة بالنسبة لهن حتى لو اتبع في ذلك التدرج ما دام الطلاق وتعدُّد الزوجات على ما هما عليه ولم تُضيَّق دائرتها ولم يجعلان على طريقة تضمن للمرأة بقاء الزوجية فإن المرأة المسيحية يمنعها من الابتذال ارتباطها بزوجها، أما المرأة المسلمة فإذا أبيح لها الاختلاط ورفع الحجاب مع بقاء الطلاق وحق التزوج بغيرها في يد الرجل كما هو الآن، لكانت النتيجة أوخم والعاقبة أسوأ والضرر أعظم ولأصبحت المرأة كمتاع تصبح في يد زيد وتمسي في حوزة عمرو بدون أن يكون لها بيت حقيقي تنتسب إليه ولا وطن إليه تعزى، ويكون مثل من دعى إلى تحريرها كمثل من يملك منزلاً آيلاً للسقوط، فلما حاول ترميمه تهدم وبقي صاحبه بلا مأوى ولا ملجأ، ولذلك يجب على كل من يريد تحسين حالة المرأة المسلمة وتحريرها أن يسعى أولاً في تضييق دائرة الطلاق لدرجة أن يكون كممنوع ثم تحرير الرجال من نير الجهالة الذي أثقل كاهلهم ورفع الغشاوة التي أعمت أبصارهم وبصائرهم"**. أ. هـ.

هذا ما جاء فى **جريدة الفنار**. وإننا لا نتكلف الرد عليه بغير ما ذكرناه في هذا الكتاب ولا نقول إن عدم الطلاق من مسببات الابتذال ولا أن المرأة وجدت لو وجدت

نفسها مهددة بالطلاق تعمل جهدها في إرضاء زوجها فقط نستلفت الأنظار إلى كتاب حديث وضعه الموسيو "**ألبير سيم**" أحد علماء فرنسا باسم "**النساء المحرارت**" ليعلم نصراء تحرير المراة ماذا أنتج هذا التحرير بالبلاد الأوروبية وماذا ينتظرها من الأخطار من جراء فوشوّ([173]) هذا المذهب بل هذا الداء العضال. وهذا الكتاب وحده كافٍ للرد على جميع مدعيات نصراء الابتذال ومدحض لكل الحسنات الموهومة التى يتوسمونها أو يتخيلونها في تحرير المرأة. ومظهر ما هي أماني المرأة الوهمية ومطالبها الخالية التي تحاول الوصول إليها باسم التحرير.

فلنعتبر ولنتعظ ولا نغتر بما نراه ونسمعه من زخرف القول والكلام اللين ومحاولي الإقناع والتأثير فللقوم غاية لم يبق مجال في إخفائها أو في تجاهلها بعد أن تردد صداها في الخافقين: فقد نقلت مجلة الموسوعات الغراء في عددها الصادر في أول شعبان سنة 1317 ضمن مقالة غراء عنوانها "**نفثة مصدور**" بقلم حضرة مديرها محمود بك أبو النصر كلاما نشر بمجلة **العالمين** (revue des mondes) الشهيرة ليس لنا بعد أن نقرأ أدنى عذر في الاغترار بما يقولونه:

قال حضرته بعد كلام طويل:

"**ومن قبيل هذه النفثات نفثات أخرى صادفتها في عدد 15 سبتمبر الماضي من مجلة "العالمين" منشورة في خلال مقالة ضافية للكاتب الفرنساوي الشهير مسيو إتين لامي عنوانها "فرنسا في الشرق" وهي إحدى رسائله الطنانة في**

([173]) **فوشوّ: تفشي وانتشار.**

هذا الموضوع، وقد شرح تاريخ نفوذ فرنسا في البلاد المشرقية وما اعتوره من قوة وضعف، وبيَّن مقدار ما يبذله قومه من المساعي والأموال الباهظة في سبيل تعليم مسيحيي الشرق وغرس وغرس محبة فرنسا في أفئدتهم ليكونوا لها مصانع وأحزاباً ثم قال: "ومع ذلك فهذه المساعي لم تنتج تمام الغاية المقصودة منها لتبايُن الطوائف المسيحية، فمن الضروري إذن جمع شتات هذه الفرق حتى لا يعاكس بعضها بعضاً: ومتى صاروا فرقة واحدة تمكنوا من مقاومة المسلمين والاعتلاء عليهم".

"وفي كلامه على المدارس المسيحية التي اتخذوها سبيلاً إلى غاياتهم المنكرة شطَّ به القلم فاظهر ما تكنه صدور القوم من العداوة والبغضاء لدين الله تعالى ولم يخش هذا الكاتب الفيلسوف الذي طالما تشدَّق بكلمة الإنسانية والتمدن وحرية الاعتقاد واحترام الأديان أن يجاهر في أشهر المجلات: "مجلة العالمين" بأن من الواجب على الأمم المسيحية أن تعاكس الإسلام في كل طريق وتحارب أهله بكل سلاح ثم أخذ يقدح فكره في البحث عن أقرب الطرق وأنجح الوسائط لنوال بغيتهم السافلة من ديننا ودنيانا جزاءً وفاقاً على ما وقعنا فيه من الجهل والغفلة والاغترار حتى اهتدى إلى أن مقاومة الإسلام بالقوة لا يزيده إلا انتشاراً فالواسطة الفعالة لهدم أركان الإسلام وتقويض بنيانه على ما قال هي تربية بنيه في المدارس المسيحية وإلقاء بذور الشك في نفوسهم من عهد النشأة فتفسد عقائدهم الإسلامية من حيث لا يشعرون وإن لم ينتصَّر منهم أحد فإنهم يصيرون لا

مسلمين ولا مسيحيين مذبذبين بين ذلك. قال "وأمثال هؤلاء يكونون بلا ارتياب أضر على الإسلام وبلاده مما إذا اعتنقوا الديانة المسيحية وتظاهروا بها".

"ولما انتقل إلى تربية بنات المسلمين نفض كل ما في جرابه فانكشف الستر عن مكنون سره وتصعدت زفراته عن نار تتأجج في كبده الحرى وتضطرم في فؤاده العليل فقال:

"إن طريقة تربية أولاد المسلمين في المدارس المسيحية وإن كان لها من التأثير ما بيَّناه فإن تربية البنات في مدارس الراهبات أدعى لحصولنا على حقيقة القصد ووصولنا إلى نفس الغاية التي وراءها نسعى، بل أقول: إن تربية البنات بهذه الكيفية هي التربية الوحيدة للقضاء على الإسلام من يد أهله". وهاك طرفا من عباراته عسى أن تكون عبرة وذكرى للمسلمين عموما والقائلين برفع الحجاب واختلاط النساء بالرجل خصوصا. قال ما ترجمته بالحرف الواحد. (صحيفة **328**).

"إن التربية المسيحية أو تربية الراهبات لبنات المسلمين توجِد للإسلام في داخل حصنه المنيع عدوة لدَّاء لا يمكن الرجل قهرها فإن الإسلام أُسِّس على إهانة المرأة وإذلالها فيكون خروجها من الاستعباد سبب دماره، والتربية المسيحية أقوى باعث على خروجها، لأن المسلمة التي تربيها يد مسيحية تعرف ولا شك درجة اعتبار المرأة في المجتمع الإنساني وتكتسب من المعارف ما يبرر أطماعها في الاستقلال ويقوي آمالها في الارتقاء فتعرف كيف تتغلب على الرجل حيث تقوى رغبتها في الاستزادة من المعارف، وتطلب علم ما لم تكن تعلم فتُكثِر من مطالعة

الكتب جدها وهزلها حتى تظهر لها وظيفة المرأة متمثلة في مرآة التصور فلا تكتفي بأن تكون هي الزوجة المفضلة بل تحتم أن تكون الزوجة الوحيدة وتصبح وحدة الزوجة بتأثير المرأة من الأمور الاعتبارية في الطبقات العالية كما هي الآن لدى أغلب الأتراك بتأثير الفقر، ومتى تغلبت المرأة هكذا تغيَّر نظام العائلة بالمرة وأصبح في قبضة تصرفها وهنا يظهر تربية الراهبات لأنه سهل على المرأة والحالة هذه أن تؤثر على إحساس زوجها وعقيدته فتبعده عن الإسلام وتربي أولادها على غير دين أبيهم وكلما قويت مداركها وعرفت بمقدار حقوقها وواجباتها كلما زاد بغضها لدين يهين الأم بإهانة الزوجة وفي اليوم الذي تغذي الأم فيه أولادها بلبان هذه التربية وتطلعهم على هذه الأفكار تكون المرأة قد تغلبت على الإسلام نفسه".

"تلك هي أقرب الطرق وأنجح الوسائط لمحاربة الإسلام بأهله دون جلبة ولا ضوضاء وهي ولا شك أدعى لنوال المآرب وبلوغ المرام فليس لنا إلا اتباعها. أما السعى جهارا في محاجة المسلم وإقناعه بما هو عليه من الضلال فإنه يوقظ عوامل التعصب الكامنة في نفسه الساكنة بين جوائحه فلا يمكن تذليله وهذا ليس من الحزم في شئ". أ. هـ.

هذه نفثات مصدور أكتفى بالإشارة إليها دون تعليق عليها، وأرجو أن تكون عبرة للآباء وذكرى للأمهات والأبناء. أ. هـ.****([174])

****([174]) **هنا ينتهي الكتاب في طبعته الأولى، وكل ما يأتي بعد ذلك زاده المؤلف محمد باشا طلعت حرب في الطبعة الثانية الصادرة عام 1323 هجرية.**

علاوة

قرأنا فى مجلة "**المنار**" الإسلامية، مقالات في الحياة الزوجية، من إنشاء صاحبها ومحررها السيد محمد رشيد رضا([175]) المشهور باستخراج قواعد المدنية الصحيحة من الكتاب والسنة فآثرنا إلحاق ما نشر منها بهذا الكتاب لما اشتملت عليه من الحكمة وفصل الخطاب، وهذه هي بنصها.

([175]) محمد رشيد رضا: محمد رشيد رضا المولود في قرية "القلمون" بلبنان (23 سبتمبر 1865م)، وينتمي إلى أسرة شريفة من العترة النبوية الشريفة تعرف إلى محمد عبده، وكان محكومًا عليه بالنفي بتهمة الاشتراك في الثورة العرابية. نزل رشيد رضا الإسكندرية (3 يناير 1898م)، ثم نزل القاهرة واتصل على الفور بمحمد عبده. أصدر رشيد رضا العدد الأول من مجلته الشهيرة "المنار" (مارس 1898)، واستمرت 36 سنة وانتشرت انتشارًا واسعًا في العالم الإسلامي، واشتهر اسم صاحبها حتى عُرف باسم رشيد رضا "صاحب المنار"، ومن أهم مؤلفاته "تفسير المنار" الذي استكمل فيه ما بدأه شيخه محمد عبده الذي توقف عند الآية (125) من سورة النساء، وواصل رشيد رضا تفسيره حتى بلغ سورة يوسف، وحالت وفاته دون إتمام تفسيره.

الحياة الزوجية "1"

"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ". (الروم: 21)

"وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ" (البقرة: ٢٢٨).

الأزواج تلد الأفراد ومن الأفراد والأزواج تتألف الأمم والشعوب. يجتمع فردان فيكونان زوجا ولفظ الزوج يطلق على كل واحد منهما لأن الزوجية تحققت به للآخر كما تحققت بالآخر له فالزوجان كونا حقيقة الزوجية فهما حقيقة واحدة ظهرت في صورتين، وروح وحدة انبثت في جسدين، وبناء واحد أقيم بركنين، بل هما حقيقة الإنسانية الكاملة وكل واحد منهما جزء لها وجد وحده لما وجدت الإنسانية، ولو هدم بناء وحدتها بعد وجوده لما بقيت لها بقية، "**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**".([176])

هؤلاء الرجال والنساء الكثيرون هم الأمة، فالأمة أثر الزوجية وحياتها العزيزة تابعة للحياة الزوجية فإذا كانت البيوت التي يعمرها الأزواج ويبثون منها الأفراد في عيشة راضية وحياة طيبة خرج منها أولئك الأفراد احياء وكوَّنوا بيوتا يكون مجموعها بلاداً ومدائن وقرى ومزارع يطلق على عُمَّارها([177]) لفظ الأمة. والمكوَّن من الأجزاء الحية يكون حياً بحياتها،

([176]) **سورة النساء: 1.**

([177]) **عُمَّارها: من يعمرونها.**

فالحياة الزوجية الطيبة هي الأصل في حياة الأمة، والنظر في الأصل مُقدَّم على النظر فى الفرع.

الفطرة البشرية هادية إلى الزوجية بكمال معناها وإلى أثرها فى نفس الزوجين وفي آلهما وفيما يرزقان من الولد فهي تسوق كل رجل إلى طلب الزواج بأمرأة وكل إمراة إلى قبول الاتحاد مع رجل وهي التي تربط قلبيهما وتمزج نفسيهما وتوحِّد مصلحتيهما وتجعل الصلة بينهما أقوى من كل صلة بين اثنين في هذا العالم حتى يسكن كل منهما إلى الآخر عند كل اضطراب، ويأنس به ما لا يأنس بالأهل والأصحاب، وهي التي تنقل المودة منهما إلى أهل كل منهما حتى تكون كل عشيرة عونا للأخرى على دفع مضار الحياة وجلب منافعها، وهي التي تربي عاطفة الرحمة فيهما بالتعاون على تربية الولد فتنمو هذه الرحمة فيهما حتى ينتفع بها من يعجز منهما عن مساعدة الآخر في الشؤون المشتركة لضعف أو عجز فيرى عاطفة الرحمة قد نابت عن عاطفة سكون النفس إلى الإنتاج وعن الإحساس بالحاجة إلى التعاون.

لكن الإنسان قد أعطى من القوى ما يمكِّنه من التصرف في الميل الفطرى فيحوِّله عن جادته ويسلك به المجاهل والشعاب فيضل ويردى لذلك بغى الرجال على النساء في عصور لا يعرف التاريخ أولها واعتزوا عليهن بالقوة حتى ألزموهن بالكيد والمكر والكذب والخلابة والتصنع والدهان فأشقوهن وشقوا معهن في أنفسهم وفي أولادهم فساءت حالة البيوت، وساءت بها الحالة الأمم والشعوب، فجاء الدين مرشدا إلى الرجوع بالفطرة إلى جادتها، بل العناية بتكميلها وترقيتها، ثم بغى الناس في الدين كما بغوا في الفطرة حتى عميت علينا تعاليم أكثر الأديان، وحسبنا ما حفظناه من هداية القرآن.

يندفع الرجل لهضم حقوق المرأة بدافع الإحساس والشعور بقوته عليها وحاجتها إليه ودافع الاعتقاد بأنه سيدها وهي خادمته المسخرة أو متاعة المملوك. فأما الشعور بالقوة فهو آلة البغي في البشر ولولا أن للرجل شعورا آخر بحاجته إلى المراة وميله إليها يعارض ذلك الشعور الدافع إلى البغي عليها فيكسر من سورته([178]) لكان البلاء أعظم والشقاء أشد، وكان يجب عليه أن يجعل عقله مؤدباً للشعور الدافع إلى الشر ومؤيداً للشعور السائق إلى الحسنى لولا ما يعرض للعقل من الخطأ في الاعتقاد فيخرج به عن الصواب إذ يعتقد أن له الحق في أن يعامل المرأة بما يسوقه إليه طبعه الفاسد ورأيه الباطل. ولا سعادة في الزوجية ولا للأمة إلا إذا صحَّ اعتقاد الرجال فعلموا أن المراة هي شطر الحقيقة الإنسانية والرجل هو الشطر الآخر وأنه يجب أن يكون كل منهما متمماً لعمل الآخر في الوجود فيما يشتركان فيه، وعوناً له على ما تختلف فيه وظيفتهما مع ملاحظة جهة الوحدة كما تساعد إحدى اليدين أختها وتتم كل من الرجلين سعي صاحبتها وكما يؤدي العقل وظيفة الفكر والقلب وظيفة الشعور والوجدان وكما تسمع الأذن وتبصر العين والغرض من عمل كل عضو واحد وهو مصلحة الشخص. فإذا قام بناء الزوجية على هذا الأساس كان بناء الأمة الذي يتألف من الأزواج والأفراد التي ينسلها الزواج لتكون أزواجاً فى البيوت متفرقة وأمة في البيوت مجتمعة – بناءً محكماً رصيناً.

إذا فسد الشعور القلبي والاعتقاد العقلي في الأمة فنقضت ما أبرمته الفطرة من ميثاق الزوجية حتى صارت المعاملة بين الأزواج كالمعاملة بين التجار والصناع والأجراء

([178]) **سورته: ثورته.**

يؤدي كل واحد من حقوق الآخر ما يمكنه من استخدامه مع ظلم القوي للضعيف ومكر الضعيف وخداعه للقوي فالواجب المبادرة إلى معالجة هذا المرض فإن انتشاره في الأمة وباء مجتاح، وخسران لا يرجى معه نجاح، لأن من يضيع حقوق أشد الناس صلة به بل من كان متمما لمعناه وحقيقته، ومسوقا هو إلى حبه بمقتضى غريزته، فكيف يرجى أن يقوم بحقوق من لا يتصل به إلا بصلة بعيدة هي فرع تلك الصلة القريبة؟ وإذا لم يقم كل فرد من الأفراد بما عليه من الحقوق الخاصة والعامة فكيف تتكون الأمة وتتحد على دفع الأذى؟ وتتعاون على المصالح حتى تبلغ المدى؟

معالجة النفوس أعسر من معالجة الأبدان ومعرفتها أغمض وأدق والإحساس بالأمراض الروحية أخفى من الإحساس بالأمراض الجسدية لذلك كانت الأمراض الروحية فى الأفراد والجمعيات أكثر من الأمراض البدنية.

لا يتم علاج النفس المريضة إلا بإصلاح العقل والقلب معا وذلك بإقناع العقل بما تقدَّم الإلماع([179]) إليه من معنى الزوجية ومكانة كل واحد من الزوجين من الآخر وبتربية شعور القلب ووجدانه تربية صحيحة مبنية على احترام ذلك المعنى وإكباره ليكون الوجدان مؤيدا للفكر والاعتقاد بأن تحقيق معنى الزوجية وقيام كل من الزوجين بحقوقها من أركان السعادة التي لا تبنى إلا عليها. فأما تربية الكبير على ذلك فهي متعذرة أو متعسرة وأما اقناعه بذلك فهو سهل على العارف به ولكن فائدة العلم بغير إذعان النفس وشعور القلب قليلة الجدوى.

([179]) **الإلماع: الإشارة.**

إذا كان الناشئ على فساد الأخلاق وسوء الفعال لا يستطيع أن يقوِّم من نفسه عوجها فيعامل زوجة بالحسنى التي هي أثر سكون النفس وحب القلب فهذا لا يدل على أن العلم بمعنى الزوجية والاقتناع بحقوقها لا يكون نافعاً حتى يصير وجداناً وشعوراً، فإن العلم الصحيح ينازل الوجدان الفاسد ويبعث صاحبة على مقاومته بالتكلف حتى يزول إذا لم يكن راسخا وإلا ضعف أثره وحسنت الحال في الجملة. ولذلك ترى حياة الزوجين العالمين الفاسدي الأخلاق أهنأ من حياة الجاهلين الفاسدين أو أقل شقاءً ونغصاً. ذلك بأن العالمين يتحبب كل منها إلى الآخر حتى يصير التكلف حباً أو تكون له أكثر ثمرات الحب، وكذلك يتقي كل منهما ما يسئ قرينه بمقارنة طبعه ومغالبة ميله فتكون لهما صورة الحياة الطيبة وكثير من معناها. ثم إن الزوجين العارفين بمكان الزوجية ووجوب مساواة الزوجين فيما عدا رياسة المنزل وزعامة العشيرة يربيان من يرزقان من الولد على ذلك عسى أن يتم لهما في ولدهما ما فاتهما من السعادة في نفسها. ولولا أن العلم يكون وسيلة للتربية النفسية التى يتحد بها القلب مع العقل لما رأيت مصلحاً يظهر في الأمة الفاسدة الأخلاق يدعوها إلى التربية كما ترى في أمتنا الآن، إذن نحن في حاجة إلى العلم بمعنى الزوجية وحقوقها والشروط التي تتم بها حقيقتها.

حسبنا في بيان معنى الزوجية وسرها تلك الآية التى صدَّرنا بها هذا المقال وفي حقوقها بعض الآية الذي يليها. تفيد الآية أن أركان هذه الحياة ثلاثة: أولها سكون كل من الزوجين إلى الآخر فإن المراد بالأنفس فى الآية الجنس والمراد بالزوجة ما يعم الرجال والنساء. فالحكمة الأولى للزوجية أن يكون لكل من الزوجين وجود آخر من جنسه يسكن إليه من اضطرابه، ومثارات الاضطراب في هذه الحياة كثيرة وأنواع المتاعب فيها غير

معدودة، وما اخترع الناس أنواع الملاهي واللعب إلا ليقاوموها، على أن اللعب شأن الأطفال لا شأن الرجال وإن سكون الزوج إلى زوجه وأنس الإنسان بشقيق نفسه وزوجه وشريكه في جميع شؤون حياته لمما يذهب بكل اضطراب ويزيل كل وحشة إذا تحققت الزوجية بكمال معناها.

يقول المفسرون إن العلة في أنس كل من الزوجين بالآخر الجنسية كما يعطيه ظاهر للفظ في قوله: "**فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا**"([180]) وهو صحيح عقلاً وطبعاً فقد خلق الله في كل من الزوجين الذكر والأنثى جاذباً يجذبه إلى الآخر لأجل أن يتحد به وقد يكون هذا الجذب والانجذاب في بعض أطوار العمر لا يتصور صاحبه الغاية الفطرية من ذلك الاتحاد وهو أن ينشأ عنه وحدة أو وحدات أخرى من الجنس بل ولا مقدمة هذه الغاية أيضاً. ولكن هذا التعليل لا يصدق على إطلاقه في الوجود الخارجي كما يعقل في الوجود الذهني لا مع كل زوجين ولا مع أكثر الأزواج كما قيل فإن الباحثين في حياة البيوت يقولون إنه قلما يوجد زوجان سعيدان كل واحد منهما مغبوط بالآخر راض به يسكن إليه من اضطرابه ويفيه حبه ووده ظاهراً وباطناً. على أن هذا هو غاية الكمال في سعادة الحياة الزوجية وأنى للاكثرين أو الأقلين بالكمال في هذه الحياة؟.

والصواب أن أكثر الأزواج في البشر يسكن بعضهم إلى بعض ويوده مهما كانت حالهم من فساد الفطرة وسوء الخلاق والجهل بقيمة الطمأنينة والسكينة في الحياة ولكن لهولاء الكثيرين منغصات في حياتهم هذه لها أسباب تختلف باختلاف البلاد والأمم

([180]) **الأعراف**: **189**.

وباختلاف الأفراد، فلا التربية والعلم والأخلاق والأفكار واستقصاء هذا لا يكون إلا في كتاب مستقل يكون فيه باب للأزواج في القبائل البدوية وفي البلاد التي تقرب حال أهلها من حال البدو في السذاجة وتقارب النساء والرجال في الأدب والمعرفة وباب لأهل الحضارة العالية التي عمَّ التعليم والتربية جميع أفرادها أو أكثرهم. وباب أوسع للبلاد المذبذبة التي بعدت عن سذاجة الفطرة، ولم تصل إلى شئ من كمال العلم والصنعة، كالبلاد الشرقية التي طاف بها طائف المدنية الغربية فزلزل أخلاقها وعاداتها وعقائدها وأفكار الأولى ولم يبدلها بذلك الأخلاق الغربية وما يتبعها. فهذه البلاد اشقى بلاد الله تعالى وأبعدها عن سعادة الحياة الزوجية وما يتبعها، فإنك تجد أكثر الذين أصابهم هذا الزلزال في حيرة من أمر الزواج قبل الأقدام عليه وبعد الوقوع فيه، ونحن إلى الدخول في هذا الباب أحوج لأننا في بلاد الزلزال عائشون، ولأهله فى الأكثر مخاطبون وكاتبون، ونكتفي منه في هذا المقال ببيان طرق اختيار الزوج وما يكون من ورائه.

اختيار الزوج:

جرى العرف بأن يكون الرجل هو الذي يتخير المرأة ويطلبها والأصل في الاختيار أن أن يكون للمصلحة، وهى لا تتحقق إلا بصحة الجسم والتناسب مع الرجل في الأخلاق والعادات والميل والرغبة والاتحاد أو التقارب في الصنف والطبقة، لأن النفس لا تسكن وترتاح لمن يباينها([181]) في صفاتها ويخالفها في عاداتها. ولكن الناس قلما يجرون

([181]) **يباينها: يخالفها.**

على المصلحة الحقيقية في أعمالهم الاختيارية لأن اللذة عندهم ليس لها حدود طبيعية يقفون عندها، وإنما تعرف الحدود بالشرع والعقل، والشرع يؤخذ بالتعلم والاقتداء والعقل ينمو بالتجارب والاختبار، لذلك تختلف الحدود في نظر الفراد وترى بعض الناس يبني اختياره على الهوى والميل إلى الجمال، وبعضهم يحكِّم المصلحة ويجعل مناطها الجاه والمال، فالأصل في اختيار المراة عند الأمم الجاهلة الفاسدة الأخلاق هو الحسن والجمال اتباعاً لهوى النفس المستلذ، او الثروة والجاه إيثارا للمصلحة الموهومة.

أكثر ما يقع التخير بالحسن أو الاستحسان من طائفتين (أولاهما) الشبان الأغرار الذين يتوهمون أن عاطفة الهوى لمن رأى أجدهم فاستحسن وأحب تدوم، فإذا هو اقترن بمن أحب كان له نشوة سرور دائمة فيعيش مغبوطا ناعم البال قرير العين يرى الملك ملكه والزمان غلامه وهيهات ما يتوهم ولكن أنى له أن يفهم ذلك وهو محكوم بشعوره ووجدانه تعبث به الخواطر وتقوده الأماني التي يوليها عليه ذلك الشعور، ثم أنى له أن يعرف سيرة الناس الذين سبقوه في تحكيم الهوى واتباع لمحات العيون، وطاعة هواجس النفوس، فتزوجوا بمن استحسنوا وأحبوا ولم يلبث أن تحول الاستحسان استقباحاً، والحب العارض مقتاً وبغضا.

الحسن والجمال من الأعراض التي يسرع إليها الزوال. ثم إن سلطانهما على القلب الواحد لا يدوم أو لا يطول إلا إذا صار عشقا خياليا يخطف القلب من عالم الحس ويزج به في عالم الخيال. وهذا الضرب من العشق لا يكون مع ملك الاستمتاع بالمحبوب، على أن هوى الأغرار لا يتقيد بالحسن الرائع والجمال البارع، قل لهؤلاء الأغرار ليست تلك العاطفة الرقيقة التي وجدتم، عند إرسال الطرف إلى الوجه الذي استملحتم، هي أثراً

طبيعياً لشئ ثابت في ذلك الوجه فتقولوا إن العلة تلازم المعلول بل هي شئ كامن في النفس تحركة وتهزه في أحد الصنفين رؤية الآخر في صورة تعجب وقد يَضعُف ذلك الشئ في وقت ما وقد تُمَل الصورة المحركة له أو تعرض للعين صورة أخرى فتبطل حركتها، وتنسخ آيها، فالاعتماد في هناء العيش وسعادة الزوجية على الاستملاح والاستحسان الذي تحدثة النظرة العجلى اعتماد على ركن غير شديد.

والطائفة الثانية هي طائفة المترفين الذين لا همَّ لهم إلا الاستمتاع والتنقل في الشهوات واللذات وهم أعرق في البهيمية من الطائفة الأولى لأن الشاب الغر الذي يكتفي في اختيار الزوج بلمحة طرفه وخفقة قلبه دون الوقوف على أخلاق من أعجب بصورتها وخفق قلبه عند رؤيتها ولا على سيرتها وسيرة أهلها وعشيرتها ليعرف المنبت والنبات — قد يتفق أن تكون الفتاة التي اختارها مشاكلة له في طبعه قريبة منه في أخلاقه وعاده فيعيش معها عيشة راضية وتسكن نفس كل منهما إلى الآخر ويقيمان بإقامة هذا الركن الأول ركني الزوجية الآخرين — المودة والرحمة — بحسب حالهما وطبقهما في الأمة. وأما المترفون الذواقون من الأمراء وأهل الثراء ومن تسري إليهم سمومهم ممن دونهم فهم أشقى الناس في بيوتهم وما أشقى نساءهم بهم. ذلك أن أحدهم لا يلبث أن يَملَّ من تزوج بها لحسنها أو يستهويه حسن آخر فيهوى إليه، وهكذا يتبع مواقع الحسن الجديد ويوغل في المحرمات فلا يكون زوجاً حقيقياً للأولى ولا لغيرها وإنما هو شقي بشهوته، ومُشقٍ لمن يتصل به، فإن المراة عنده إما أن تفسد بفساده فتكون من الذواقات وما أسهل من ذلك على ذات الجمال البارع التي قلما يسلم مثلها مع تطلُّع الفساق المترفين إليها وافتتانها هي بنفسها، وإما أن تعيش في نكدٍ، وتظل في كَبَد، وكلا الأمرين شقاء للبيوت

وشقاء للأمة – فهذا الجمال يكشف للمتفكر عن وجه الخطأ في جعل استحسان الصورة والإعجاب بالجسم أصلا لتخيُّر المرأة زوجاً، وأما جعله أصلاً لتخيُّر المرأة للرجل فذاك مما لا حاجة إلى بيان فساده وخطأ الذاهب إليه.

يقول قائلون إن النظر رسول القلب، وإن الاستحسان علة الحب، والحب هو علة ذلك السكون الذي هو ركن السعادة وسر حقيقة الزوجية فإن لم يكن عينه فهو علة له أو أثر من آثاره فما بالك تطلق القول في تخطئة من يحكِّم استحسان الصورة وميل القلب في الاختيار كأنك تؤيد عادة مسلمي المدن الذين يتزوجون غالباً على السماع، غافلا عما يتبع هذه العادة من التنافر بين الزوجين لأول وهلة، وما يرزآن([182]) به من الخصام والجفوة: ونقول إننا قد بيَّنا أن استحسان الصورة وميل القلب إلى ما يرضي العين مما لا بقاء له ولا ثبات لما يبنى عليه وإنما البقاء والثبات للحب الذي علته تعارف الأرواح ومشاكلة الطباع ولا ننكر مع هذا أن حسن الصورة وجمال الخلقة له أثر عظيم في نفوس عشاق المعاني ربما يفوق أثره فى نفوس عشاق الصور ولكنه عندهم في الدرجة الثانية بل يقرب في ذوقهم من المحسنات العارضة كالثياب والحلي. فإن سليم الطبع لا تسكن نفسه إلى دوام معاشرة رث الثياب وسخها ويأنف طبعه من الطعام الطيب في الإناء الحبيث. وأن مِن الناس مَن تشمئز نفسه وتنفر من بعض العيوب الخلقية فإذا هي فاجأته في وجه من اختير له زوجا يلابسه ويمازجه حتى يتحد معه أتم اتحاد يوشك أن تنكمش نفسه انكماشا يتعذر معه الالتحام والالتئام لذلك كان من السنة في الإسلام أن لا يتزوج المرء

([182]) **يرزآن: تصيبهما مصيبة.**

إلا بعد الرؤية وما جرى عليه المسلمون في أكثر المدن أو جميعها مخالف للفطرة والشريعة جميعا ولكن حكم العادات أقوى سلطانا على نفوس الجماهير من كل حكم يخالفه.

على أن من يطلب الأزدواج لإقامة سنة الفطرة، لا لمجرد إرضاء الشهوة، ولا لأجل التنقل في معاهد اللذة، فقلما يخون الوصف رغبته فيما يحب من حسن الصورة وجمال الخلقة، ولعلنا لو أحصينا عدد الأزواج الذين متقوا أزواجهم استقباحاً لصورهن لما وجدانا فرقا كبيرا بين من تزوج منهم عن رؤية ومن تزوج عن سماع فإن للرؤية نظراً خادعاً ليس معه للروية مجال، والسماع يُتَّبت فيه ويُتروى حتى يغني عن النظر في كثير من الأحوال.

ويقولون فى انتقاد ما عليه أكثر مسلمي المدن من التشدد في الحجاب أن الحاجة إلى رؤية الرجل من يريد الاقتران بها للوقوف على طبعها وأخلاقها وعادها، أشد منها لمعرفة حسنها وجمالها، بل لابد لمعرفة الأخلاق والطباع من المعاشرة زمناً طويلاً: ونقول إن هذا هو الذي يظهر بادي الرأي وأما ما يظهر بعد التدقيق والتمحيص فهو أنه يتعسر أو يتعذر على الشاب أن يعرف حقيقة أخلاق الشابة وطباعها ورغائبها من المعاشرة بقصد الخطبة فإن ما يتنازع الفتاة من ضروب الشعور والوجدان إذا كانت بمرأى من الفتى ومسمع يخرج بها عن حال الاعتدال الطبيعي الذي طبعت عليه فلا يكون الحكم عليها صحيحا لأن حجاباً طبيعياً أسدل على أخلاقها وسجاياها. ثم إن من وراء هذا الحجاب أو من أمامه حجاباً آخر صناعياً وهو ما يكون من التكلف والتصنع لتكون أمام الفتى بالمظهر الذي تظن أنه يرضيه ويجذب قلبه، فالعمدة إذن في معرفة الآداب والأخلاق هي الوقوف على حال المنبت والعشيرة وخبر الصادق الذى يحسن النقد ويميز بين ما يُرغَب

فيه وما يُرغَب عنه وقد يسهل على الخلطاء والجيران من العشائر أن يعرِّف فتياتهم أخلاق فتياتهم بالاختيار الصحيح إذا لم يكن هناك مقدمات ولا وسائل تشعر برغبة المختبر في تزوج من يلاحظ أحوالها ويتنقد اعمالها وقلما يكون هذا في المدن إلا بين الأقربين. وحدثني السيد عبد الرحمن الكواكبي([183]) (رحمه الله) أن أهل الآستانة([184]) إذا رضوا

([183]) **عبد الرحمن الكواكبي (1854 – 1902): من رواد مفكري النهضة العربية. ولد في حلب بشمال سوريا وتعلم في مدارسها ثم عُين محررًا للجريدة الرسمية وهو في الثانية والعشرين من عمره وتقلب في الوظائف العامة وأصدر جريدة "الشهباء" ثم "اعتدال". وبسبب اضطهاد السلطات له قرر الهرب وسافر سرا إلى مصر عام 1899. سكن الكواكبي القاهرة وعرف في مصر واشتهر أمره عندما نشر كتابه "أم القرى" وكان حتى وقت قريب يشار إليه كعمل من نسج الخيال لكن تبين أنه يحكي وقائع محفل سري عربي كان الكواكبي عضواً فيه. وفي الكتاب سمى نفسه: "السيد الفراتي". وبتكليف من الخديوي عباس قام الكواكبي بجولة في شبه الجزيرة العربية وسواحلها والهند ودول شرقي آسيا، وفي سواحل إفريقية الشرقية والغربية، دامت ستة أشهر، وبعد عودته بثلاثة أشهر توفي (يقال مسموماً) ودفن في القاهرة.**

([184]) **الآستانة: هي اسطنبول أو استانبول (أسماؤها التاريخية بالعربية: القسطنطينية وإسلام بول والآستانة) هي من أبرز المدن في الجمهورية التركية. كانت في السابق تعرف باسم القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية البيزنطية. غُيّر اسمها، بعد السيطرة التركية لها، لاسطنبول وجُعلت عاصمة للخلافة الإسلامية العثمانية. .تقع الآستانة (اسطنبول) على مضيق البوسفور. هي أحد المدن الضخمة القلائل في العالم التي تقع على قارتي: أوروبا وآسيا. حسب إحصائية عام 2006 كان مجموع سكانها أكثر من 12 مليونا وهذا يجعلها أضخم المدن الأوروبية. اليوم تشكل اسطنبول والمناطق المحيطة فيها عصب الحياة الاقتصادية التركية وبوابة أوروبا على الشرق.**

بالخاطب دعوه إلى دراهم وجمعوا بينه وبين بنتهم في مجلسهم فيراها وتراه ويسمع كلٌّ حديث الآخر وتسال عن آثاره الآدبية والعلمية ثم يكون العقد بعد ذلك.

وجملة القول أن الذين يعتمدون على مجرد استحسان الصور في تخيُّر الأزواج ضالون لا يرجى لهم أن يكوِّنوا بيوتا (عائلات) تكون أعضاء حية عاملة لأمة عزيزة، وسيأتى بيان حال من يبنى اختياره على طلب المال والثروة ثم من يبنى اختياره على ما يجب أن يبنى عليه الاختيار وقد ذكر بعضه فى هذه المقالة تمهيدا واستطرادا.

2

اختيار المرأة طلبا:

إن من يختار المراة زوجاً له لحسنها وجمالها يختارها لصفات فيها وإنما كان مخطئاً لأنه عني بصفات الجسد التي يسرع إليها التغيير ولا تكفي للقيام بحقوق الزوجية وما تراد له الزوجة ولم يحفل بصفات النفس الثابتة التي هي مناط السعادة والهناء، أو مجلبة التعاسة والشقاء، وأما من يختار المرأة لأنها ذات مال وثروة فهو إنما يختارها لأمر خارج عن ذاتها فهي غير مطلوبة له ولا مرغوب فيها وإنما مطلوبه المال يتمتع به وهي عنده كالشئ اللقا لا قيمة لها ولا حاجة إليها. وما عساها تصادفه مع وجود المال من الحظوة والكرامة

obeikandl.com

فأجدر به أن يكون مصانعة ورياءً وحسب الزوجين شقاءً أن يرائي بعضهما بعضا ويداهن أحدهما للآخر. وهذا شأن من يطلب المال عفواً بغير عمل لا يكون إلا مرائياً مداهناً.

يعيش المنافق مع الناس الذين يدهن لهم في اضطراب دائم لأنه يشعر في نفسه بأنه يعيش مع خصماء وأعداء فإذا لم يكن له من يخلص هو لهم ويخلصون له كان شقاؤه دائما واضطرابه مستمرا. ومن أحق بهذا الإخلاص من الزوجين اللذين خلقا ليسكن كل منهما إلى الآخر ويلابسه في جميع شؤونه لباسا يتحد به معه حتى يكونا كشخص واحد!! أرأيت إذا انعكس الأمر فكانت الزوجة التي هي علة السكون والارتياح، ومبعث الحب والخلاص، وسبب المودة والرحمة، علة للاضطراب والانكماش، ومثاراً للرياء والدهان – أرأيت إذا صارت الغاية التي يقصد لأجلها الكسب، وسيلة للرزق وطريقة للربح، يلجا إليها الكسالى المترفون، ويرغب فيها أهل الشره الطامعون – أرأيت إذا وصل الناس إلى هذا الحد في فساد الفطرة: والخروج عن محيط الشرعة، أيكون المال الذي يعبدون كافياً لتحقيق سعادتهم، وحفظ شرف بيوتهم وأمتهم، كلا إن هؤلاء لا حظَّ لهم في الحياة إلا التوغل في اللذات الجسدية والزينة الظاهرة فلا يبالي واحدهم بشرف البيت ولا بعزة الأمة، يحربون بيوتهم بأيديهم. ويبسلون أمتهم بسوء مساعيهم، بل هم آلات التفريق والتحليل لأن كل واحد منهم يهتم بلذة نفسه، ويجتهد في أن لا يتصل بغيره، وكيف يمكن أن يتحد بمجموع قومه، من انكمشت نفسه دون الاتحاد بزوجة، على ما لاتحاد الزوجين من العلل والجواذب النفسية والطبيعية والشرعية والاجتماعية.

يكثر طلب المرأة الغنية لهذا العهد في الطبقة المتعلمة على الطريقة العصرية فلا تكاد ترى بين شبان هذه الطبقة إلا الباحثين عن البنات الوارثات أو اللواتي ينتظر أن يرثن

مالا كثيرا وأرضا واسعة ودورا عامرة ولا تكاد تسمع منهم عند ذكر الزواج إلا قولهم إنني أطلب فتاة تملك داراً وكذا فداناً من الطين. وهذا دليل على أن التعليم الذي تعلموه ما كان إلا ضارا بهم بما أفسد من فطرتهم، ويا شقاء من تتزوج بواحد منهم، فإنما يكون حظها منه أن يستعين بمالها، على التمتع بشهواته الفاسدة خارج بيتها، وويل لها إن سكتت موافقة، وألف ويل لها إن نطقت مخالفة، لو ذهبنا نعد مفاسد هؤلاء المخدولين في اختيارهم هذا وآثاره خرج بنا القول عن حد المقالة المُنبِّهة، ودخل في أبواب الكتب المطوَّلة، وكفى بما ذكرناه منبها للغافل وسائقا للنظر العقلي في ذلك، وللبحث في حال هؤلاء الناس وفيها عبر وآيات للمتفكرين.

وقد يشتبه على بعض الباحثين ما يراه من الحب وسكون النفس والوفاق وحسن المعيشة بين زوجين اختار الرجل منهما المرأة لغناها أو استحسان صورتها فيظن أن ما قلناه غير صحيح. ونحن لا نجهل أن مثل هذا قد يقع فيكون على حد المثل "**رميةٌ من غير رامٍ**"، والسبب في مثله أن يكون بين هذين الزوجين مشاكلة في الطباع وتناسب في الأخلاق وتقارب في العادات من حيث لا يدري بذلك أحد منهما قبل الاقتران. ولكن هذا قليل لا سيما في طُلاب المال وعبادة الذين يرضون أن تكون الزوجية وسيلة له لأن من بلغ منه فساد الفطرة هذا الملبغ قلما يهنأ لاحد معه عيش كما قلنا آنفا.

الطريقة المُثلى فى الاختيار:

يجب أن يلاحظ في المراة الصفات التي برجى أن يتحقق بها مضمون قوله تعالى: "**وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**"([185]) وقوله وجب ثناؤه: "**والمحصنات من النساء**"([186]) وهذه الصفات بعضها بدنية وبعضها نفسية وبعضها قومية ومنها ما لابد منه فى كل إمراة ومنها ما يختلف باختلاف أحوال الناس فيشترط عند بعض دون بعض.

أما الصفات الجسدية فما لا خلاف في اشتراطه منها الصحة وسلامة البدن من التشوية والعاهات المنفرة ولا حاجة لتعليل هذا الشرط ولا لبيان سوء حال الحياة الزوجية عند عدمه فإنه من المعلوم بالبداهة أن النفس لا تسكن إلى ذوي العاهات والأدواء بل تضطرب وتنزعج منهم. وأن المرأة المريضة لا تُحصِن الرجل ولا تكون قرة عين له بل تكون بلاءً عليه. وأما ما تختلف فيه الأذواق فهو ما وراء ذلك مما يسمون الكمال فيه حسناً بارعاً وجمالاً رائعاً. والميل إلى الحسن والجمال غريزي في البشر وهو مما تختلف فيه الأذواق والمشارب، "**وللناس فيما يعشقون مذاهب**"([187]) ولا نعرف شعباً من الناس يشترط رجاله الجمال البارع في الزوج وإنما يعدونه من الأوضاف الكمالية إلا من ذكرنا في النبذة الأولى من هذا المقال وهم الذواقون الذين يتزوجون ميلاً مع الهوى لا اتباعاً للمصلحة ولا إقامة لسنة الفطرة.

([185]) **سورة الروم: 21.**

([186]) **سورة النساء: 24.**

([187]) **شطر بيت من الشعر صار مثلا سائرا يضرب للدلالة على اختلاف الأذواق.**

openkanal.com

قد يكون من المصلحة للأكثرين تجنُّب الجمال البارع لمن يتزوج لما ذكرنا من منافع الزواج وحكمه ولكن يُعذَر من يمقت في المراة صفة من الصفات إذا لم يرض الاقتران بالمتصفة به كمن يمقت البحترة ([188]) أو البهصلة([189]) أو الرسحاء([190]) أو النقواء([191]). وقد تكون هذه الأوصاف من المنفرات لبعض الناس. على أن "**لكل ساقطة لاقطة**"([192]) وإنما يتخير الجمال البارع أو ما دون البارع من يكون موضعاً لتسابق رغبات النساء وأهلهن إليه لمكانته وجاهه أو لثروته وماله. فإن من طبيعة التفاضل أن يكون فيما تصل اليد إليه ويَسهُل الاستيلاء عليه.

وأما الصفات النفسية فهي الأخلاق والملكات والعلم أو العلوم فأما الأخلاق فإنها علة لسعادة الحياة أو شقائها في جميع طبقات الناس على الجملة. وأفضل أخلاق النساء العفة والصيانة لأن معنى الزوجية لا يتحقق بالاختصاص وإنما تكون المرأة مختصة

([188]) **البحترة: القصيرة.**

([189]) **البهصلة: جاء في لسان العرب أن البهصلة من النساء: الشديدةُ البياض، وقيل هي القَصيرة.**

([190]) **الرسحاء: (في معجم مقاييس اللغة لابن فارس) المرأة اللاصقة العَجُز، الصغيرةُ الأَلْيَتَين.**

([191]) **لم أجدها فيما راجعت من معاجم اللغة.**

([192]) **حكمة عربية على اختلاف الأذواق مستقاة قول الشاعر:**

لكل ساقطة في الحي لاقطة

وكل كاسدة يوما لها سوق.

ببعلها إذا كانت عفيفة. ثم إن الحكمة في الزوجية هي الإنتاج والنسل الذي يحفظ به النوع ويكثر به سواد الأمة وتَعظُم قوتها، واختلاف الرجال على أمرأة واحدة من أسباب قلة النسل، فما هتك النساء حجاب العفة في أمة إلا وقلَّ نسلها بمقدار شيوع الفاحشة فيها وناهيك بما في اختلاط الأنساب من المفاسد. لا يوجد عيب من العيوب في الخلقة أو في الأخلاق يذهب بهناء الزوجية وغبطتها ويمحو آيات منافعها وحكمتها، كخيانة المرأة للرجل في نفسها. ويغنينا عن الإسهاب في بيان ذلك ما هو ثابت في الغرائز ومعروف بالاختبار. وقد منَّ الشاعر العربي على أولاده بتخيُّر والدتهم من ذوات العفة، قال:

فأول إحساني إليكم تَخيُّري

لماجدة الأعراق بادٍ عفافها

ومن غريب إكبار الرجال لعفة نسائهم أنك تجد الفاسقين من أشد الناس غيره لأن علمهم بفساد النساء يزيد في حذرهم على نسائهم أن يكن كمن يعرفون من غيرهن وهذا من أسباب قلة الزواج في البلاد التى يكثر فيها الزنا لأن أكثر الرجال يخافون أن يُبتَلوا بمن لا عفة لهن. وأغرب منه ما اشتهر عن الفساق من محاولة بعضهم الاختصاص ببعض البغايا. يحب الرجل بغيا توهمه أن له عندها من الحظوة ما ليس لغيره فيبذل لها المال الجم الكثير ليغنيها به عما تكسب من سواه، وتكون خاصة به دون من عداه، ومتى كانت البغي ترعى العهد، وتصفى الود؟؟ ولكنه جنون الرجال بالاختصاص والغيرة يخرج بهم عن محيط العقل والتجارب، وكم أدى ذلك إلى دماء تسفك، وأرواح تزهق.

ومن الأخلاق التي لا يتم لا حد هناء العيش مع فقدها الأمانة والحرص والاقتصاد فإذا لم تكن المرأة أمينة على ما يعهد إليها حفظه حريصة على ما بين يديها من مال الرجل وكسبه مقتصدة فيها تنفق تسوء حال البيت ويقع فيه الشقاق ويحيط به الشقاء.

وأما الصفات والملكات التي تختلف الرغبة فيها باختلاف الأشخاص والطبقات، فأهمها عند الطبقات المرتقية بالعلم والتربية النظام وتدبير شؤون البيت. وإذا كانت بيوت الشعر في الصحارى وشعاف الجبال، وأكواخ الفقراء وبيوت الفلاحين في المزارع والقرى، ليس فيها من الأثاث والرياش والماعون ولا من المرافق والأعمال ما يعوز في إدارته وتدبيره ملكة النظام المكتسبة بالعلم والعادة والقدوة فإن في دور الطبقات العالية والمتوسطة من المتعلمين وكذا غير المتعلمين ما لا يتم نظامه إلا إذا كانت ربة الدار مدربة على النظام والتدبير. نعم إن غير المتعلمين لا يؤلمهم من فَقَد النظام في بيوتهم ما يؤلم الذين عرفوا قيمة النظام وفوائده وتربوا عليه أو حملهم العلم بفائدته على طلبه والاستقامة على طريقته. يبلغ حب النظام ببعض العارفين مبلغا لا يهنأ له عيش ما دام يرى في داره شيئا من الخلل الذي لا يشعر غير العارفين معرفته بكونه خللا يُطلَب إصلاحه ككون حجرة النوم قليلة الأثاث تعرض فرشها وحشايا سريرها للشمس والهواء كل يوم، وككون كل من حجرة الجلوس وحجرة الطعام وحجرة المكتب وغيرهن على طريقة كذا وكذا. ومن المتعلمين من يرى من ضروريات الحياة أن تكون نفقات البيت كلها في يد ربته وأن يكون العمل فيها بمقتضى ميزانية سنوية فإذا لم تكن امرأته قادرة على ذلك فإن نفسه لا تسكن إليها ولا تكون هي قرة عين له. ولا تقل إن هذا يدخل في صفة العلم الذي ينبغي أن تكون عليه

المرأة، فإن العلم لا يكفى فيه ولكنه شرط له فما كل من يتعلم علما يقدر على العمل به وإنما يقدر عليه من يقرن العلم بالعمل والمزاولة.

كثر في الترك عدد الرجال الذين يريدون أن تكون المرأة قهرمانة وريحانة معاً، وفي نسائهم (لا سيما في الآستانة) عدد غير قليل قديرين على ما يجب الرجال. وجمع المتعلمين من النصارى وكثير من المسلمين في سوريا ومصر على هذا الرأي أيضاً، ولكن عدد المسلمات المتعلمات المتربيات على هذه الطريقة قليل جداً في القطرين، ولذلك صار الزواج يقل في المتعلمين رويداً، وإذا ارتقى التعليم والتهديب عما هو عليه الآن في الرجال فإن هذه القلة تزيد زيادة فاحشة، ولكن أكثر المتعلمين لم ترتق نفوسهم عن اتخاذ المرأة ريحانة يتمتع بها ما صلحت للتمتع كالزهرة تُشَم ويُعتنَى بها ما دامت غضة ذكية فإذا ذبلت ألقيت. ولا رغبة لهم فيما وراء هذا إلا بأن تكون ذات مال يتمتع به الزوج كما يتمتع بصاحبته، فهي عندهم من جملة المتاع لا فرق بينها وبين ما يحصل معها إلى دار الزواج من الأثاث والماعون ألا كما يفضل إناء اناءً آخر من جنسه أو نوعه ولو كثُر عدد الفتيان المهذبين لتبعه كثرة الفتيات المهذبات لأنه متى عُرِف واشتهر أن جماهير الشبان المحترمين لا يرغبون في غير المهذبة القادرة على إدارة المنزل وإقامة النظام فيه بادر الناس إلى تربية بناتهم على الطريقة المرغوب فيها لأن الفتيات يطلبن الفتيان دائما بلسان الحال والاستعداد — فكل ما يشكو منه بعض الشبان المهذبين من سوء تربية البنات سببه سوء تربية البنين في الجمهورية.

وإن لي كلمة قلتها ثم علمت أن للأوروبيين كلمة تخالفها فاذكرهما هنا أما كلمتهم فهي "**كما يريد النساء يكون الرجال**"، وأما كلمتي فهي: "**كما يريد الرجال يكون النساء**" والدليل على هذا أن النساء لا استقلال لهن في أنفسهن وإنما هن تبع للرجال عند جميع الأمم يولد للزوجين غلام وجارية فيربيان الغلام على أن يكون رجلاً مستقلاً ببيت كبيتهما وعلى أن ينهض بكفالتهما عند الكبر أو العجز إذا كانا فقيرين، ويربيان الجارية على أن تكون تابعة لرجل يتزوج بها فيعولها ويكفلها فيكتفيان أمرها. ينشأ في الغلام من أول سن الإدارك شعور الاستقلال بنفسه وحاجة غيره إليه وينشأ في الجارية شعور القصور والحاجة إلى كفالة رجل غريب مجهول ستكون تابعة له، ومن التقاليد العامة في أمتنا وفي غيرها أن همَّ النساء الأكبر هو أن يكن بحيث يحبهن الرجال ويرغبون فيهن لأنهن في حاجة إلى كفالتهم ولا يَسهُل عليهن طلبهم إلا بلسان الاستعداد وكونهن كما يحبون ويرغبون، كما قلنا آنفاً، ثم إن الوالدين اللذين يربيان الغلام والجارية يعلمان أن تزويج الجارية أعسر عليهما من تزويج الغلام من حيث أنه لا عار عليهما ولا عليه في التماس امرأة بالطلب والبحث ولو ممن هم دونه وأنه من العار العظيم أن يبحثا على زوج لابنتهما ويعرضاها على الرجال وإن كانوا من الأكفاء، وأشد من ذلك عاراً أن تبحث هي عن الزوج وتعرض نفسها على من تظن أنه يرضاها، وأن الشرف والمصلحة محصوران في تعريضها للخاطبين بتربيتها على ما يحب الأكفاء ويرضون. نعم إن الأوروبيين قد حاولوا تربية النساء على الاستقلال وتعليمهن طرق الكسب وجعلوا للبنات رأيا في اختيار الأزواج ولكنهم لم يخرجوا عن جعل المرأة تابعة للرجل ولم يقدروا على جعل أكثر النساء مستقلات في معيشهن غنيات عن الرجال بل هم الذين يربون أبنائهم على ما يرغب فيه

جمهور فتياتهم ويخطبون الزوج بالحال وبالمال جميعاً، ويشعرون من سعادة الحياة الزوجية بما لا يشعر بمثله من لم يبلغوا شأوهم في الحياة الاحتماعية وللجارية المخطوبة عندهم مقام رفيع ولربة البيت مكانه عالية ولأم الأولاد المقام الأعلى وإنما قالوا كلمتهم تلك للترغيب في تعليم المرأة إذ لا يقدر الرجال على إتقان التربية إلا بإسعاد النساء لهم عليها. ثم إن هذه التربية الاستقلالية قد أضرت بالنساء أنفسهن حتى علت أصوات الكاتبات منهن بالشكوى منها ونقلنا بعض ما كتب في المجلد الرابع فليراجع.

الدين والأخلاق

ملاك تهذيب الاخلأق وقوام الملكات الدين فلو ربي البنات تربية دينية صحيحة لم لهن تهذيب الخلاق، وكن مصدرا لمحاسن الأعمال، وقرة أعين للرجال، وقد عرفت الأمم الحية ذلك فعنيت بتربية البنات على آداب الدين وأخلاقه وأعماله على فساد عقائد الكثيرين من علمائها وحكمائها. ذلك بأن هؤلاء الذين رأوا في دينهم ما لا ينطبق على علمهم القطعى فتركوا الدين للعلم، يعتقدون أن الدين هو روح التهذيب والأداب في البشر وأن هذا الروح هو الأصل في الحياة الزوجية والحياة القومية لاسيما في النساء والناشئين، فإذا هو زال تعذَّر الاستغناء عنه أو استبدال غيره به كالشرف والعلم بالمصلحة. والذين جروا على هذه الطريقة من نصارى الشرق يتحامون([193]) الانتقاد على الدين في حضرة النساء وأن كانوا لا يعتقدون ولا يؤمنون، لئلا يتسرب الشك والارتباب

([193]) **يتحامون: يتجنبون.**

opeikanar.com

إلى نفوس النساء، بل أخبرني بعض علمائهم وأدبائهم المشهورين أنهم يكونون في النادي أو السامر ينتقدون بعض رجال الدين منهم فتدخل إحدى النساء فيحوّلون الحديث لكيلا تسمع انتقادهم فيقل احترام الدين من نفسها ويضعف الشعور به في قلبها. ولا تجد جزءا من هذه العناية عند المسلمين الذين جهلوا الدين فأهملوه، بل ولا عند الذين سَلِم اعتقادهم وحَسُن عملهم. وكل ما عند النساء المسلمات من الدين فهو من تقليد الذين نشأن فيهم وتربين بينهم ليس للرجال فيه عناية ولا عمل، ويا ليت فساق قومنا وزنادقتهم يكتفون بإهمال تربية النساء على آداب الدين وتعليمهن أحكامه ولا يظهرون لهن ما هم عليه من الفساد والإلحاد، فقد حدثني كثيرون من الثقات المختبرين أن كثيرا من المسلمين (الجغرافيين) ([194]) يجتمعون مع عيالهم لطعام الغذاء بعد الظهر في شهر رمضان وأن منهم من يتزوج بالمرأة فيكرهها على شرب الخمر معه وأخبرني شيخ من أهل القاهرة أن رجلا تزوج ببنت من أقاربه (أي أقارب الشيخ) فدعاها إلى شرب الخمر معه فأبت ولما أعياه إلزامها طلقها. وأعرب من هذا ما يتحدثون به عن بعض أصحاب البيوت أو البيوتات من إشراك البنات مع الرجال في معاقرة الخمر ومن إحضار أهل الرقص والعزف من الرجال والنساء الى البيوت واجتماعهم فى بعض الحجرات على المعاقرة والمخاصرة، والنساء يسمعن وينظرن من وراء السجوف([195]) والأستار.

([194]) **نعبر عن المسلمين الذين ليسوا على شئ من الإسلام بـ "المسلمين الجغرافيين" لأن الإحصاء الذي يُذكَر في كتب الجغرافية يعدهم منهم وقد نبهنا على هذا من قبل. (من هوامش الأصل)**

([195]) **السجوف: (في القاموس المحيط للفيروزابادي) الأستار ومفردها الستر.**

يظن الكثيرون من فساق البلاد المشرقية أن الدين في أوربا قد صار نسيا منسيا وأن ذلك لم يزد أممها إلا ارتقاء لأنه أثر الارتقاء، وذلك أن هؤلاء لا تتوجه نفوسهم ولا يهديهم استعدادهم إلا لمعرفة أمثالهم، والصواب أن أكثر أهل أوربا متدينون وإنما أبطلوا التقاليد النصرانية التي تنافي العمران والارتقاء لأنها ليست إلا من وضع الرؤساء، وهم مع ذلك أشد الناس تعصبا لدينهم وعلى من يخالف دينهم، ولا ينافي ذلك كثرة الفسق في بلادهم لا سيما التي تَغلُب فيها الكاثوليكية كفرنسا وإيطاليا، فإن من الأسباب في ذلك المذهب الذي يعد من أصوله أن القسوس والرؤساء يغفرون الذنوب، كما أن من أسبابه الحرية الشخصية وعدم النكير وإباحة الخمر أم الخبائث. ولقد يَسهُل على الفاسق أن يجد كثيراً من الفاسقين والفاسقات في كل المدن العظيمة في الأرض حتى ما كان فيها الفسق منكرا وممنوعا إظهاره لا يراه إلا الباحثون عنه، ومن بحث عن شئ مما لا يخلو العمران منه وجده، فإذا هو قصر همه عليه، ظن أن كل الناس أو جلهم على مذهبه فيه:

إذا ساءَ فعل المرء ساءت ظنونه

وصدَّق ما يعتاده من توهُّم.

أهل فرنسا أقل الأوربيين تمسكاً بالدين، لتطرفهم في الحرية والجمهورية التي يرون سلطه الكنيسة الكاثوليكية خطراً عليها، ولذلك قاوموا جمعيات القسيسين ومدارسهم، وقد سألت فرنسياً عن تديُّن قومه فقال: "**أكثرنا متدين يحب الله، ولكن لا نحب الكنيسة**".

إذا فرضنا أن تعميم التعليم والتربية على حب الوطن والآداب القومية قد يغني عن الدين في إصلاح حال البيوت والجمعيات فأوربا هي التي يمكنها أن تستغنى عنه بذلك، ولكنها لم تقل بذلك ولم تعمل به، ولا أدري بماذا يستغنى المسلمون عن آدابهم الدينية التي أمسوا لا يبالون بها. هل الرابطة الوطنية التي يلفظ بها مصطفى كامل([196]) وأضرابه من الأحداث المتفرنجين كافية في هذه الأمة التي غلب عليها الجهل والأمية، ووقع معظم أوطانها في قبضة الدولة الأجنبية، لأن تُصلِح ما أفسد الزمان فيها من الأداب الشخصية والروابط الزوجية. ليتكون منها أمة عزيزة قوية؟ وهل يكفى في نفخ روح هذه الحياة الوطنية أن ينعق ناعق في الأمة بمدحها وإن لم يسمع نعاقه إلا قليل ولم يفهم مراده منهم إلا أقل القليل وأكثر من فهم ومن لم يفهم، يرى أن النفاق وسيلة للدرهم؟.

ومن العجائب أن هؤلاء الأحداث المتفرنجين يهذون أحياناً أو كثيراً بالكلام فى الأمة والملة ويشكون بالقوة من سوء الحال وخطر الاستقبال ثم لا ينتبهون لوجوب بث روح الدين في البيوت وتربية النساء على أعماله وأدابه ليربوا الأطفال عليها، بل تراهم بسيرتهم عونا للجهل على إفساد بقايا الدين التقليدية، إذ لا يتعلمون شيئاً من أحكام

([196]) **مصطفى كامل (1874 – 1908) زعيم سياسي وكاتب مصري. أسس الحزب الوطني وجريدة "المؤيد". كان من المنادين بإنشاء الجامعة المصرية. وكان حزبه ينادي برابطة أوثق بين مصر والدولة العثمانية. حصل على الثانوية وهو في السادسة عشرة من عمره، ثم التحق بمدرسة الحقوق (1891م)، وكانت تعد مدرسة الكتابة والخطابة في عصره، فأتقن اللغة الفرنسية. وفي 1893م ترك مصطفى كامل مصر ليلتحق بمدرسة الحقوق الفرنسية؛ ليكمل بقية سنوات دراسته، ثم التحق بعد عام بكلية حقوق "تولوز" بفرنسا.**

الدين ولا يعلمون بما هو معلوم منه بالضرورة، ولا يسألون عن دين من يخطبونها وإنما يسألون هل تعلمت لغة أجنبية هل تعلمت العزف على البيانو والعود هل عندها مال كثير يساعدنا على المصيف في أوربا والتمتع بلذاتها؟ وأعجب من هذا أنهم يدعون أحياناً الانتصار للدين بذم أوربا وذكر طمعها في بلاد المسلمين واعتدائها على استقلالهم أو على دينهم بما تبعثه من الكتب والدعاة إلى النصرانية. ويزول هذا العجب إذا عرف سببه وهو مخادعة المسلمين بإيهامهم خدمة الملة لينفحوهم بالدرهم والدينار، وأنى يخدم الملة من لا يفهم كتابها، ولا يعرف سنتها، ولا يتحقق بعقائدها، ولا يقيم عباداتها، ولا يتخلق بأخلاقها، بل أخذ عن أوربا من الأخلاق والعادات السيئة ما يفرق به كلمتها، ويبطل به وحدتها، وينسخ به شرعتها، ثم هو يشكو منها ومن أثارها في إفساد النابتة ومجموع الأمة!!

وجملة القول أن الحياة الزوجية في المسلمين لا يمكن أن تكون سعيدة في نفسها ووسيلة لارتقاء الأمة وتعزيزها إلا إذا كان الزوجان معتصمين بحبل الدين مستمسكين بعروته في الأخلاق والآداب والأعمال ليكونا قدوة لأولادهما في ذلك. وإن الخطر الذي يهدد المسلمين، ينذرهم بزوال سلطتهم من الأرض لا يزول إلا بصلاح حال البيوت الأدبية على هذا الوجه. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "**تُنكَح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**". رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن ما عدا الترمذي عن أبي هريرة. ولكن من لنا من يصلح لنا أخلاقنا

وآدابنا الدينية وليس لنا زعماء ولا سراة([197]) من أهل الدين والحكمة. وإذا ظهر فينا زعيم فاننا لضعف استعدادنا لا نتتفع به بل يحكم فيه جمورنا كلام الأحداث المغروبن، الذين يضرهم ويفضحهم ما يدعو من إحياء روح الدين!!

([197]) **السراة: (في لسان العرب) الأشراف.**

obeikandl.com

"المقالة الثالثة منقولة عن ص 182 من مجلد المنار الثامن"

وأما العلم فلا يشترطه في المرأة أحد في بلادنا إلا ثلة من المتعلمين والمتأدبين على الطريقة الأفرنجية وقليل من العارفين بكنه مدنية الإفرنج الذين يقدِّرون محاسنها قدرها وإن لم يتعلموا على طريقتهم. ولا يزال أكثر المسلمين لا يعقلون لتعليم المرأة فائدة بل يرونه ضارا من جهة واحدة هي عندهم لا تُوازَن ولا تُقابَل بشئ إلا وتكون أربى منه وأكبر وهي أن البنت المتعلمة تجرأ([198]) على الرجال وتُقدِم على مكاتبة من تميل من الشبان، وإنه ليوجد في المتعلمات لهذا العهد من يُحكَى عنهن ذلك، ومثل الحكايات تسري وتذيع بسرعة البرق وتؤخذ بالتسليم ويجرى فيها القياس للقطع بأن علتها التعليم، وأنه حيث وجدت العلة لزمها المعلول لا محالة. ولا يمكن إقناع العامة بأن العلم ليس علة لمكاتبة البنات للشبان يلزم من وجودها الوجود وإنما هو شرط يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم، لأن العامة لا تفهم مثل هذه الحجج وخاصة النساء، فالعمدة في إقتناعهم بمزايا تعليم البنات هو ظهور أثره الحسن في المتعلمات بمصر وتونس وسوريا وغيرها من الأقطار ولم يظهر. على أن التقليد يفعل في الأمم ما لا يفعل الإقناع، وأشد

([198]) **أي تتجرأ.**

الناس استعدادا وقبولا له الشعب المصري، وإذا وجد في أمرائه وكبرائه عناية بتعليم البنات تقليدا للإفرنج الذين يعاشرون ويمازجون فلابد أن يعم جميع الطبقات وقد ظهرت بوادر ذلك منذ أعوام، وهى تنمو مع السنين والأيام، فالآباء والأمهات صاروا ينبذون بناتهم إلى المدارس وهم لا يدرون ماذا يتعلمن ولا يعرفون من المصلحة في ذلك إلا أن البنت المتعلمة يرغب فيها الخاطبون الأغنياء ما لا يرغبون في غيرها، ثم إنهم بهذا الاندفاع لا يميزون بين مدرسة إسلامية أو غيرها، ولا يفكرون في خطر إفساد عقيدة البنت وتحويلها عن دينها أو عادات قومها وخلائقهم المميزة لهم، ولا في كونها تطرح الحياء وتجرأ على مكاتبة الرجال كما يعتقدون، لأن تيار التقليد الجارف لا تقف في طريقه هذه الخواطر إن هي طافت بهذه العقول الضعيفة والقلوب الميتة التى أعوزتها البصيرة والعزيمة، فلم تجدهما في وارثة ولا تربية، وفي هذا الاندفاع خطر عظيم على الأمة كنا ولا نزال نحدِّث الناس به فيقبله المتعدلون وينبذه الغلاة في التفرنج، وقد أتيح لنا في هذه الأيام ما يقنعهم وهو ما قاله اللورد كرومر([199]) في تقريره عن مصر لسنة 1904. وإننا نذكره هنا لأن بحثنا في الحياة الزوجية إنما هو من حيث هي ركن لحياة الأمة وسعادتها أو عكس ذلك، قال:

([199]) اللورد كرومر: إفلين بارينج (1841/ 1917). سليل عائلة شهيرة كانت تعمل في مجال البنوك ومفوضاً على الدّين المصري العام ووزيراً للمالية في الهند، أصبح اللورد كرومر عام 1892. حكم مصر نيابة عن بريطانيا العظمى لمدة ربع قرن بخبرته الطويلة التي اكتسبها في شبه القارة الهندية، وكان يعيش في قصر الدوبارة المطل على نيل جاردن سيتي بالقاهرة وكانت الحكومات البريطانية المتعاقبة تفكر في الانسحاب من مصر، ولكنه كان يقنع الحكومة تلو الأخرى بإبقاء الاحتلال. ظل اللورد كرومر المحرك

"تعليم البنات"

"كثيرا ما أسمع الناس يقيمون الحجج والأقيسة على حل بعض المسائل السياسية والإدارية في بر مصر ويبنونها على فرض أن المصرين لا يزالون متصفين اليوم بصفات أجدادهم وخصائصهم. وعندي أن هذه الحجج والأقيسة لا تخلو من سفسطة. فالتغير حاصل ولست أقصد أن أعظمه أو أبالغ فيه وإنما أقول إنه لا يمكن أن كل خلق وصفة من الأخلاق والصفات القومية يتغير تغيراً تاماً في ربع قرن، ولو أمكن ذلك لما كان مستحسناً لأنه يُخشَى في مثل هذا التغير السريع أن يذهب الحسن من الأمة بجريرة الردئ. ولكن ليكن معلوماً عند الحكام المصريين وعند كل من له اتصال بأمور مصر أن هناك قوات عاملة قد أثرت في أخلاق المصريين القومية فغيرتها بعض التغيير وستغيرها أكثر من ذلك على مر الأيام. وهذه القوات العاملة معظمها يعمل تدريجا وبغير رويداً رويداً حتى لقد يخفى عمله عن عيون المراقبين في بعض الأحوال ولكن بعضها يعمل سريعاً حتى لقد غيَّر تغييراً ظاهر محسوساً".

"ومن الشواهد على ذلك تعليم البنات، فإن الرأي العام المصري تغيَّر في هذه الأعوام الأخيرة تغيراً كلياً في هذه المسألة الجوهرية العظيمة الشأن، ومما

الرئيس لما يجري في مصر نحو ربع قرن (1883 . 1907) وكان لقبه الرسمي "المندوب السامي البريطاني".

يزيدنا استعظاما لهذا التغير في الرأي العام أنه آخر ما كان الناس حتى الذين يراقبون منهم أخلاق أهل الشرق أدق مراقبة يتوقعون حدوثه بمثل ما حدث من السرعة نظراً إلى الآراء المعهودة عن مقام المرأة في بلاد مصر. ولكن مصر بلاد العجائب والغرائب فلا عجب إذا كذب أهلها نبوءات المصلحين الاجتماعيين بتحولهم عن حال إلى حال تحولاً لم يكن يخطر على بال، فقد كانوا منذ عشر سنوات لا يبالون بتعليم البنات، بل ربما استخفوا به واستنكفوا منه ولذلك كانت كتاتيبهم خالية من بناتهم سنة 1900 ما عدا 271 كتَّابا، من جملتها الكتاتيب التى تحت مراقبة الحكومة. وكان عدد كل البنات اللواتي يتعلمن فيها 2050 بنتا أما في سنة 1904 فبلغ عدد الكتاتيب التي يتعلمن فيها 1748 كتَّاباً، وبلغ عددهن فيها 10462 بنتاً. وأبلغ من ذلك أن 100 بنت طلبن دخول المدارس الابتدائية العالية ومدارس تعليم المعلمات بالقاهري في السنة الماضية فلم يُجَبن إلى طلبهن لعدم وجود محل لهن فيها. فأحسن خدمة يخدم بها المصريون المعارف والتعليم في بلادهم تقوم بإنشاء مدارس ابتدائية منظمة للبنات في بنادر القطر".

"هذا وإن قلة المعلمات المدربات على التعليم أفضت إلى تأخير تعليم البنات في جميع فروعه ولكن العقبات في هذا السبيل أسهل من العقبات التي في سبيل وجود المعلمين المدربين على التعليم. فإن عند نظارة المعارف في المدارس الابتدائية العالية والكتاتيب عدداً قليلاً من البنات المسلمات الممرنات على التعليم. وعليه يتسع نطاق تعليم البنات شيئاً فشيئاً. وفي مدرسة المعلمات الآن

15 تلميذة ينتهي معظمهن منها في الثلاث سنوات القادمة وينتظمن في سلك المعلمات. وقد أُخبرِت أنهن متى انتهين من المدرسة لم يعسر وجود غيرهن من اللواتي يدرسن مكانهن".

"أما مقدر ما تؤثره هذه النهضة لتعليم البنات في أفكار الجيل المقبل من بنات مصر وفي أخلاقهن ومقامهن فستظهره لنا الأيام على مر الأعوام. على أنه إذا تأتى عنها تغيير في مقامهن فالمأمول أن هذا التغيير يكون تدريجياً وعسى أن المصلحين الاجتماعيين من أبناء مصر يحفظون في أذهانهم قول مثلهم العربى "العجلة من الشيطان والتأني من الله" وعلى الأخص في هذه المسألة أكثر مما في غيرها، لأن العجلة فيها يمكن أن تؤدي إلى طامة أدبية عظيمة. على أنه إذا لم يتغير مقام المرأة المصرية تغيُّراً تدريجياً فمهما قلَّد المصريون أهل التمدن الأوربي ظاهراً، فهيهات أن يتشربوا روح التمدن الأوربي الصحيح بأحسن مظاهره حقيقة". أ. هـ. كلام اللورد.

فلينظر وليتأمل القارئ البصير كيف عدَّ هذا السياسى الحكيم تحوُّل أهل مصر بسرعة من حال في هذه المسألة من العجائب والغرائب التي لم تكن تخطر في بال أحد من علماء الاجتماع، وكيف أشار إلى أن هذه العجلة شيطانية، ونقول إن نصيحته هذه للمصلحين من أبناء مصر سيحفظها له التاريخ ويذكرها له في المستقبل مقرونة بإجلال الفضيلة والإخلاص لا سيما إذا كان إثم الانقلاب المنتظر أكبر من نفعه كما يتوقع.

كانت حال النساء في أوربا على أسوأ ما يخطر في بال البشر من المهانة والاحتقار ولذلك كان ما يسمونه "**رد الفعل**" في التحول والانقلاب عظيماً، فبعد أن كانوا يعتقدون أن المرأة ليست من البشر وإنما هي دون الإنسان وفوق سائر الحيوانات وبعد أن يسومونها الخسف حتى حرموا عليها أكل اللحم ومنعوها الكلام والضحك في حضرة الرجال وأوجبوا عليها السمع والطاعة لزوجها في كل شئ ولو كان ضاراً أو خسيساً أو شاقاً لا يطاق، أطلقوا لها العنان: تتعلم ما تشاء، وتعمل ما تشاء، وتتهتك كما تشاء، وتتحكم كما تشاء، حتى صارت تشارك الرجال في أعمالهم الخاصة خارج البيوت، فأهمل من أمر نظام البيوت بقدر ذلك ولا غنى للبيوت عن النساء وكل عمل خارجها فهو مستغنٍ بالرجال عنهن وانتهى الأمر بكثيرات منهن إلى اختيار التبتل فراراً من أثقال الزوجية، وناهيك بانتشار البغاء وشيوع الفاحشة وما في ذلك من المفاسد والمضرات. وقد أنشأ([200]) العلماء والحكماء يشعرون بخطر هذا الإطلاق لصنف لا همَّ لأفراده غير الزينة والراحة واتباع هوى النفس، لأن وجدانهن أقوى من عقلهن، ولكن كل ما يتعلق بصفات الأمم وشئونها لا يظهر نفعه ولا ضرره ولا يمكن إيجاده أو منعه إلا فى زمن طويل.

ليس من غرضنا في هذا المقال أن نبحث عن أحوال الأمم في انتقالها وتحول أحوالها ولا عن حال النساء في أوربا ومنافع تعليمهن ومضاره، وإنما غرضنا أن نبيِّن أن العلم الذي ينبغي أن تعرفه المرأة هو ما لا يخرج بها عن كونها امرأة، وهو ما تكون به قرة

([200]) **أنشأ: بدأ.**

عين وخير سكن للرجل المتعلم يحسن معها به عيشه ويكون عوناً لها على تهذيب ولده وإدارة شؤون بيته لا ما تكون به فيلسوفة أو سياسية أو صانعة، وهذا ما اختارته أرقى دول أوربا في العلوم والمعارف وهي دولة ألمانيا التي ينسب إليها بعض دول أوربا التقصير في تعليم النساء وستضطر كل الدول إلى سلوك سبيلها في يوم من الأيام.

ليس البيت مملكة فيتوقف عمرانه على العلوم العالية والفنون الصناعية والزراعية والتجارية وتتوقف إدارته على معرفة الشرائع والقوانين، وليست العلاقة بين البيوت كالعلاقة بين الدول فتضطر ربة البيت في حفظ حقوقه إلى التوغل في السياسة والفنون العسكرية. حسب المرأة أن تتقن لغة أمها وتعرف آدابها وأن تعرف الحساب وعلم تدبير المنزل وعلم حفظ الصحة وتعلم الأخلاق وعلم التربية وأن يكون هذان العلماء قائمين على أساس الدين مقرونين بمعرفة عقائده وآدابه وأحكامه والتاريخ العام بالإجمال وتاريخ أمتها وبلادها وموضوعات سائر العلوم وفوائدها بوجه الإجمال، وإن تعرف الطبخ والخياطة والتطريز وما يتصل بذلك، ولا يصدنها عن هذا أنها من بيوت الأغنياء الذين لا يطبخون طعامهم ولا يخيطون ثيابهم بأيديهم، فإن علمها بذلك وتَمَرُّنها عليه نافع بل ضروري. وقد بلغنا أن قيصرة روسيا تحسن الطبخ والخياطة، وكانت فيكتوريا ملكة انكلترا وامبراطورة الهند تنسج وتخيط وتطرز فهذا كمال للنساء وإن لم يعلمن به فعليهن أن يعلمن كيف يُعمَل في بيوتهن ويعرفن نَفقته ودرجة جودته ويُحسنّ المراقبة والرياسة على الخدم التي تقوم به.

أما معرفة موضوعات وغايات العلوم والفنون المتداولة في الأمم الحية فلها فوائد منها أن لا تكون عدوة أو كارهة لشئ نافع لقومها، فإن "**من جهل شيئا عاداه**" وكرهه وإن الإنسان يكون ناقصاً بمقدار ما يجهل من المضارو المنافع. ومنها أن تعرف قيمة زوجها إذا تزوجت بمن يشتغل بتجارة زراعية أو كيماوية مثلا عرفت فضله في ذلك ورجت له من القائده ما تكون عونا له على عمله. فإن المرأة التي تجهل قيمة زوجها المعنوية ومعارفة التي يمتاز بها لا يهنأ لها معه عيش لأنها لا ترى عمله إلا شاغلاً له عنها كأنه ضرة لها، وهو لا يهنأ له معها عيش لأنه يراها جاهلة بقدره، بعيدة عنه في نفسه وعقله. وإن شئت قلت إنهما يكوّنان شخصين متباعدين بالروح والعقل لا يمكن أن تتكون منهما حقيقة الزوجية التي بينا معناها في النبذة الأولى. ومن تلك الفوائد أن يكون لها رأى فيما تنصرف وجة أولادها لإتقانه من العلوم والفنون بعد التعليم الابتدائي والثاني. وكثيراً ما يموت الوالد وتكون المرأة هي القَيِّمة على أولادها منه فينبغي أن تعرف وجهتهم في المدرسة وغايتهم في التعليم لتُحسِن القيام عليهم.

وأما فائدة اللغة وآدابها فهي بديهية([201]) لمن يقول بالتعليم فالمرأة التي لا تفهم لغة أمتها العلمية الأدبية تكون بمنزلة البهائم لا تشعر إلا بالحاجات الجزئية التي أودع الشعور بها في فطرة كل حيوان، ويكون سكون الرجل العالم الأريب إليها بمقدار الداعية

([201]) **من الأخطاء الشائعة جدا أن النسب إلى: بديهة هو بدهي بحذف ياء "فعيلة"، فالصواب هنا بدهي لا بديهي.**

الحيوانية إلى ملامستها وفي وقت هذه الداعية، وتكون في سائر الأوقات كَلاً[202] عليه وبلاءً ومصاباً، إذ يراها مباينة له في إنسانيته لا تشاركه في حُسنِ تصوُّره ودقة مداركه ورقة شعوره بالمعاني الأدبية والأفكار الاجتماعية، ويرى إقناعها بالمسائل المعقولة والمصلحة القطعية متعذرا أو متعسرا عليه لأنها ليس لها لغة تعبر عما وراء الضروريات التي يدور عليها كلام العامة. ثم إنه إذا سافر تنقطِع الصلة بينه وبينها لا يكتب إليها ولا تكتب إليه فيما يتعلق بشؤون البيت ومصلحة العشيرة إلا إعلاماً بالصحة واستعلاماً عنها ونحو ذلك، ويتعذر عليه إن يُشعِرها بما يشعر به في سفره من لذة وألم وسرور كآبة كما يتعذر عليها ذلك.

وأما فائدة الحساب فلا يجهلها أحد في البشر إلا أن يكون بعض أهل الأزهر، فالمرأة التي تعرفه يمكنها أن تضبط نفقات البيت على القاعدة التي يسمونها الميزانية فتجعل الخرج على نسبة إلى الدخل معرفة فهو عون على الاقتصاد. وقلما توجد إمراة في الأرض لا تشتري ولا تبيع شيئا ولا تعامل أحد بالمال، والنساء للواتي يملكن المال والعقار والأرض والعروض كثيرات، والإسلام جعل لهن حق التصرف في أموالهن فالمرأة التى لا تعرف الحساب تكون عرضة للخطأ في كل معاملة مالية فيغشها البائع والمشتري والوكيل والأجير ويطمع في اغتيال مالها زوجها السفيه ويعبث به ولدها الصغير.

وأما الإقتصاد الذي يُعدُّ الحساب من وسائله فهو روح المعاملة وأس النظام وملاك المعيشة ودعامة السعادة. فإذا لم تكن ربة البيت عارفة بهذا الفن عاملة به فلا

([202]) **كَلٌّ**: عبء.

يستقيم للمعيشة حال بل تكون مضطربة بين أمواج الحوادث يتقاذفها اليسر والعسر، ويتناوبها الغنى والفقر، وليس الرجل بمغن في اقتصاد المرأة عن رضى وإقناع، ولا رضى ولا اقتناع إلا بالعلم والمعرفة بأن مصلحتها ومصلحة بيتها في الاقتصاد. ألم تر أن معظم المال يذهب في سرف النساء وخيلائهن، ألم تسمع أنين الرجال وأطيطهم([203]) من ثقل النفقة على ما يبتدع النساء كل حين من الأزياء والتنقل في ضروب الحُليّ، ألم تعلم بأنهن لا يعذرن الرجل إذا قال: لا أستطيع، لا أقدر، لا أملك، بل ينغصن عيشه ويسلبن راحته أو يبذل لهن ما يطلبن، ولو استدانه بالربا الفاحش أو باع لأجله الغالي النفيس بالثمن البخس!

هذا مما تعرف فهل لك أن تضم إلى معرفة الداء معرفة العلاج وهو أن تتزوج بأمراة كاتبة حاسبة مقتصده وتجعل للبيت بالاتفاق معها ميزانية يكون الخرج فيها جزءًا من الدخل وتكون هي المنفقة والقيمة، كما تجعل لأرضك وعقارك ميزانية تكون أنت المنفذ لها، وبذلك تكون أمراتك مقتنعة بأن ما تَوفَّر من الدخل في الحال، هو عدة لها ولأولادها في الاستقبال([204]).

جرب كثيرٌ من الرجال هذا العلاج فوجدوه نافعا مفيدا ومنهم من أسعده الحظ به على غير علم بفائدته فأصاب السعادة عفوا. أعرف رجلا مسرفا كان يضيع كسبه الكثير بغير عقل ولا حساب ويضطر إلى الدين حتى أخذ الدين بتلابيبه لأنه كان جاهلاً

([203]) **الأطيط**: (في: "**العباب الزاخر**" **للحسن الصغاني**) **صوت الإبِلِ من ثِقَلِ أحمالها**.

([204]) **الاستقبال**: **المستقبل**.

سكوراً([205]) فتزوج بفتاة كانت يهودية وأسلمت إسلاماً صحيحاً فما عتم أن حسنت حاله فقَلَّ سَرَفُه وحَسُن عمله وقُضِي دينه ثم صارت له ثروة مدخرة. وحُدِّثت عن رجل في مصر له راتب من الحكومة لم يكن كافيا لسعته في نفقاته الشخصية فتزوج بفتاة متعلمة مهذبة فهو يعيش معها في هناء ونعيم ويقتصد من راتبه شيئا يدخره للمستقبل المجهول. أعرف غير واحد من الفقراء جعلوا كسبهم في أيدي نسائهم فكانوا معهن في عيشة راضية يزيد فيها دخلهم على نفقتهم زيادة لها شأن عندهم. وإنني أظن أنه يصعب على أكثر النساء أن يبذلن جميع ما في أيديهن من المال في الأمور الزائدة على الضروريات أو الحاجيات ولكن يَسهُل عليهن أن يبذلن أكثر مما في أيدي أزواجهن إذا كانت النفقة في أيديهم. فالمرأة الجاهلة تقدر على الحياة الاقتصادية في بيت فقير ولا تقدر على ذلك في بيت غني ولا متوسط إلا بالعلم وحسن التربية.

وأما علم حفظ الصحة فهو ضروري لكل إنسان سواء كان يعيش منفرداً أو زوجاً أو صاحب عيال ورئيس عشيرة، فمن عرف هذا العمل سَهُل عليه التوقي من أكثر الأمراض والأوبئة ووقاية من يعوله منها وإذا هو أصيب بمرض فإنه يحسن وصفه وبيان أسبابه وكيفية سيره للطبيب فيكون أكبر عون له على تشخيصه ومعرفة حقيقته، ثم إنه يُحسِن العمل بما يأمره به الطبيب من المعالجة، فربة البيت الجاهلة بهذا العلم تكون بلاء على نفسها وعلى زوجها وأولادها ولا يمكن أن تقل الأمراض والأدواء في أمة إلا إذا تعلم نساؤها هذا العلم، فكم من طفل فتك به المرض لجهل أمه بمداراة صحته وكم من امرأة

([205]) **سكور: كثير السُكر.**

قتلت ولدها أو زوجها بنفس الأدوية التي وصفها الطبيب لشفائه لجهلها بأسمائها وبمقادير ما يعطى المريض منها. ولقد يتعسر على المريض العالِم أن يحسن معالجة نفسه في بيت قيّمتُه([206]) جاهلة لأن أي عمل في البيت لا يتم إلا بها.

وأما علم الأخلاق فهو عون للإنسان على نفسه في الكبر وعلم التربية يتوقف عليه لأن من لا يعرف قوى النفس وكيفية تكوين ملكاتها وانطباع أخلاقها وطريقة وأثار صفاتها ووجدانها فهو لا يعرف معنى الإنسان أو هو ليس بإنسان كامل فيتعذر عليه تكميل غيره بحُسن التربية التي هي أهم ما يجب على المرأة وأعلى ما يُطلَب منها.

ويدخل كل ما تقدَّم في علم تدبير المنزل ما عدا مبادئ الفنون وعلم اللغة التي هي وسيلة كل علم لأن المراد بتدبير المنزل سياسة أهله وموضوعه حقوق كل من الزوجين على الآخر وحقوقهما على الأولاد والخدم وحقوق هؤلاء عليهم وطريق قيام كلٍّ بما يُطلَب منه. والمرأة هي ربة البيت ومديرة نظامه فينبغي أن تكون عارفة بما عليها ومرشدة للأولاد والخدم إلى ما يجب عليهم تحت رعايتهما لينتظم شأن البيت فتكون العيشة راضية وليتربى الأولاد بالقدوة الصالحة فيكونوا أعضاء صحيحة عاملة في الأمة.

ومعرفة التاريخ وتقويم البلدان هي التي تودع حب الأمة في القلب وتبعث فيه روح الغيرة فإذا كانت المرأة جاهلة بتاريخ أمتها ومكانتها من غيرها فهي لا تشعر بأنها عضو من جسد أمة كبيرة لها حقوق يجب على الأفراد القيام بها، وعلى الوالدين تربية أولادهم على احترامها والتنافس في المسابقة إليها واعتقاد أنها دعامة الشرف وركن العزة والسيادة.

([206]) **القيّمة: القائمة على تدبير الأمر.**

يكون الإنسان كبير النفس وعظيم الهمة إذا كان يشعر بأن وجوده غير محصور في مساحة جسمه الصغير وإنما هو واسع بروحه المنبثة في عالم كبير يسمى الأمة تعمل له كما يعمل كل عضو في جسده لمصلحة الجسد كله. ويكون أكبر وأعظم إذا كان يشعر بأن وجوده أوسع وأرقى لأنه خُلِق ليعمل ما يفيد البشر كلهم بالتقريب والجمع بين المختلفين والتأليف بين المتنافرين وغير ذلك من الأعمال أو بث العلوم التي ينتفع منها الجميع. ويكون الإنسان حيواناً حقيراً ضيق الوجود إذا كان علمه وعمله موجهين لخدمة شخصه ومن عساه يتصل به اتصالاً محسوساً كأهله وعشيرته. ومن كانت هذه حالة فإنه لا يرجى منه أن يربي أولاداً ينفعون أمتهم ووطنهم أو ينفعون الناس أجمعين. لذلك كان لابد لكل إنسان من ذكرٍ أو أنثى أن يعرف التاريخ ليتسع وجوده بقدر استعداده لعله يربي من ينفع الأمة والناس. وعلم تقويم البلدان في معنى التاريخ بل هو منه في الأصل ثم صار أصلاً مستقلاً. تلك إشارة إلى ما يُطلَب من كمال المرأة وتُختار لأجله. وسنكتب كلمة في اختيار المرأة للرجل.

(المقالة الرابعة منقولة عن ص "208" من المجلد الثامن من المنار)
"اختيار المرأة للزوج"

إن الشروط التي تعتبر ضرورية في اختيار المرأة زوجاً يجب أن تعتبر ضرورية أيضاً في اختيار الرجل زوجاً وهي صحة الجسم وصحة النفس أعني حسن الخلق والاستقامة وصحة العقل وهذه لازمة لما قبلها. ويزاد عليها القدرة على النفقة اللائقة كما يقول الفقهاء أو القدرة على الاستقلال بإنشاء عشيرة أو أسرة كما يقول الحكماء وهو ما يريده العوام بقولهم: "**فلان قادر على فتح بيت**" والقدرة على النفقة اللائقة بحال المرأة تختلف بحسب طبقتها فزيد يستطيع كفاية من نشأت في بيت النعمة والترف، وعمرو يستطيع أن يمون من نبتت في أرض الفاقة والشظف، والناس أصناف وطبقات، والله فضَّل بعضهم على بعض درجات، وهذا الشرط هو ركن الكفاءة الركين في نظر أكثر النساء، وعرف أكثر الأولياء، وإن شئت قلت في عرف جميع الناس لأن رضاء امرأة أو أولياء امرأة بزوج غير قادر على كفايتها مما تعودت من طعام وكسوة وخدمة نادر لا يعتد به، والمرأة الغنية أحرص من الفقيرة على التزوج بالغني لأنها وأهلها يحتقرون الفقير، وما زال الأغنياء يتعايرون بمصاهرة من ينزل عن درجاتهم في الثروة إلا أن يعلوهم بمجد أثيل، أو جاهٍ

عريض، فيمُتَّ إليهم بشرفٍ صاعد، أو جدٍ مساعدة، ومن رفعه المال، لا يلبث أن يمد عنقه إلى الجاه، ويحاول أن يصيبه بتنصي أهل السؤود[207] وتذرّي ذوي المجد المؤثل، لا سيما من قلَّ من هؤلاء مالهم، وساءت في الثروة حالهم، فالمال والشرف إذا انفردا كان كل منهما شفيعا للآخر ومن جمع بينهما لا يكاد يرضى بمصاهرة من فاته أحدهما، إلا إذا لم يجد له صهرا مثله. وإنك لتجد من العوانس في بيوتات المجد والغنى ما لا تجد مثله في بيوت المتوسطين. وأكواخ الفقراء والمعوزين، وذلك خطء كبير. وعتوٌّ[208] عظيم.

تُعذَر المرأة ويُعذَر وليها وذوو قرابتها إذا لم يرضوا بصهرٍ يعجز عن كفايتها لأن المرأة ضعيفة الاستقلال، قليلة الاحتمال، إذا مسها العوز والإقلال، لا تستقر من القلق على حال. ثم إنها وَلوعٌ[209] بالحلية، فخور بالزينة، هَلوع عند الحاجة، ضَجور من الشدة، فهى أحوج من الرجل إلى الكفاية، وأشد تطلُّعا إلى السعة والزيادة، وإن قومها ليألمون لإعوازها مالا يألمون لعوز الرجل منهم وهو وارث مجدهم، وحافظ نسبهم، ومصبرهم عند الشدة، وغوثهم عند الحاجة، لما انطوت عليه نفوسهم من الثقة باستقلاله، وجدارته بإصابة المخرج من إقلاله، وما أُودِعته قلوبهم من الشعور برقة حاشيتها دون التحمل، وضيق مذاهبها عن التحول، وإن حظ الوالدان والأقربين وغيرهم من الرحمة

([207]) تنتصي القوم: تزوج في نواصيهم أي أشرافهم. ومثله تذرَّاهم أي تزوج في ذروتهم. (من هوامش الأصل)

([208]) العتو: (في "مقاييس اللغة" لابن فارس) الاستكبار.

([209]) ولوع: مولعة.

والحنان والخوف والإشفاق والحزن والامتعاض والغضاضة والنعرة، وغير ذلك من ضروب الشعور والوجدان إنما يكون على مقدار الداعية الطبيعية لذلك فيهم. قيل لبعضهم أي ولدك أحب إليك؟ فقال: "**صغيرهم حتى يكبر، وغائبهم حتى يحضر، وسقيمهم حتى يبرأ**".

يشبه أن يكون الناس عندنا ماديين فإنهم يعنون بالبحث عن ثروة من يخطب إليهم ظانين أن سعادة بنتهم وهناء عيشها مقرونان بمال من يتزوج بها وقلما يبحثون عن دينه وأخلاقه وآدابه. ذلك بأنهم يجهلون أن السعادة في النفس لا في اليد أو الجيب ويغفلون عن حال الجم الغفير من أصحاب الجيوب الملأى والقلوب المرضى الذين شقيت بهم نساؤهم، فهن يتمنين لو كانوا فقراء الجيوب أغنياء القلوب بالعفة والوفاء والحب والإخلاص، إذا لكُنَّ أنعم بالا وأقَرَّ عينا وأهنأ عيشا، فإن الإنسان ليطغى أن رأه استغنى، إلا من هذَّب نفسه الإيمان والتقوى، وإن من طغيان الغنى، إذا لم يقترن بالأدب والتقى، أن يغيِّر صاحبه زوجه وسكنه ويتغير عليها – يغيرها باتخاذ الأخدان، واتباع خطوات الشيطان، ويتغير عليها إذا زارت أو زارها الأهل والجيران، فيعذبها بالغيرة عذاب الضعف، أو يضارها ليضيق عليها من غير ذنب، وإنما هو ملل الذواقين، وتنقُّل المسرفين، ومن وراء ذلك أن إرشاده عسير، والانتصاف منه عزيز، لا سيما في بلاد فسدت حكوماتها، وأكل السحت قضاتها، فأين السعادة والهناء، في مصاهرة أمثال هؤلاء.

يَسهُل على الرجل المسلم أن يتخير من ربات الخدور من ترضيه فيعرف عنها من وراء الحجاب كل ما يجب أن يعرفه ويعسر على الفتيات أن يعرفن ما يجب معرفته لصحة

تَخيُّر الزوج وإن فارقن الحجال([210])، وعاشرن الرجال، لأن المرأة سريعة التصور سريعة التأثر سريعة الحكم سريعة الانخداع فهي لهذا قليلة الروية كثيرة الخطأ لا سيما إذا كانت عذراء، خاضعة لسلطان الحياء، تخدعها النظرة، وتتجاذبها الغرة، ولذلك حظرت الشريعة الإسلامية على المرأة أن تزوِّج نفسها وجعلت أمرها في ذلك إلى وليها وإليها لابد من رضاهما معا. على أنها منحتها من حقوق التصرف في أموالها ما لم تمنحه لها شريعة سواها بل تجد معظم البشر من جميع الشعوب والقبائل المختلفة في الملل والنحل متفقون على استقباح استقلال المرأة بتزويج نفسها وعلى وجوب تفويض أمرها في ذلك إلى أوليائها وعصبتها. ومنهم من لا يتقيد باستئذانها واستئمارها كما أمر الإسلام بل كثرت هذه العادة في المسلمين على ما ورد عن الشارع من الأوامر باستئذان أمها أيضا، فليس للولي أن يستبد بذلك فيزوجها بمن تكره ولو كان أبا أو جدا.

يحسب أكثر الرجال أن للحسن والجمال سلطانا على قلوب النساء لا يدع فيه لغيره أمرا ولا نهياً وأن شغف النساء بالحسن يعلو شغف الرجال به فلو أُطلقِت لهن الحرية في تَخيُّر الأزواج لما اخترن إلا ذا الوجه الجميل والطرف الكحيل وإن كان خسيس الأبوين صفر اليدين عادم الفضليتين – فضيلة العلم والأدب – وهذا هو الوجه في الحجر عليهن أن يتخيرن لأنفسهن فإنهن يتبعن الهوى دون المصلحة فيصبحن على ما فعلن نادمات بعد أن يقاسين من استبداد سلطان الجمال، ما لا طاقة لهن به ولا احتمال، وهذا الحسبان خطأ سببه قياس أحد الصنفين على الآخر. وهو السبب في تصدي حسان الوجوه من

([210]) **الحجال: الحجاب وكل ما يعد من الأستار.**

الشبان لتصبي النساء وإغوائهن وقد يُعدُّ نجاحهن في التصبي دليلا على صحة القياس وما هو بدليل إلا عند من يجهل التعليل.

إن الفتنة بالجمال أولع بالرجال منها بالنساء فيَقلُّ في النساء من فُتِنت بجمال الرجل كامرأة عزيز مصر وصواحبها([211])، ولا يتناول الإحصاء عدد الرجال الذين فُتِنوا بجمال النساء كبني عذرة([212]) من جميع القبائل والشعوب وهذا هو السبب عندي في شكوى الرجال من قلة الوفاء في النساء. إنما يفتن المرأة من الرجل تحبُّبه إليها فهي مجنونة في حب الحب، أي حب، أن يحبها الرجل كما قالت علية بنت المهدي حكاية عن نخيزة صنفها:

تَحبَّب فإن الحبَ داعيةُ الحبِ

فهُنَّ يُفتَنَّ بالرجال على قدر تَصيبِّهم لهن وتحببُّهم إليهن إذا هُنَّ صدقن وأمِنَّ الخلابة والحيلة، وما أسرع تصديق الفتاة الغر لوحي العيون، وانخداعها بقول الزور، واستسلامها للود الممذوق، والحب المصنوع، بل هي فتنة لا تكاد تسلم منها العوان، التي مارست الرجال وعرفت الزمان.

([211]) **امرأة العزيز: امرأة فتنت بنبي الله يوسف عليه السلام وكانت لها معه قصة مشهورة رواها القرآن إذ راودته عن نفسه، وكذلك ورد في القرآن الكريم قصتها مع صواحبها.**

([212]) **بنو عذرة: هم بنو عذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن إلحاف بن قضاعة، وإليهم ينسب الحب العفيف، ويضرب بهم المثل في الحب العذري.**

obeikandi.com

قرأت قصة "**رواية**" فى امرأة كانت تدعى "**فاتنة باريس**" وكانت تهوي إليها أفئدة الرجال، وتمطرها سحائب الأموال، فتفوز لديها آمال وتخيب آمال، حتى إذا ما عرض لها مرض حال له لونها، وحال([213]) بين طلاب التمتع وبينها، انفض من حولها الناس إلا رجلا واحدا كان الحب قد أخذه عن نفسه، وران على عقله وحسه، ثم اختطفه من طبيعة الرجال، وطار به في فضاء الخيال: ولم تلبث المرأة أن أفاقت من غشية المرض فلم تر من تلك الجموع إلا ذلك الرجل فاعتدت أنه محب لها مخلص في حبه فاصطنعته لنفسها، وثابت على يديه إلى رشدها، وهجرت الرجال وهاجرت معه من باريس إلى أريافها وهناك تزوجت به ومكنته من جميع ما تملك.

هذا الذى ذكرته من افتتان النساء بالتحبب والتصبي هو العلة الأولى فيما هو معروف بين الناس من ميل نساء المدن إلى المتورنين والمتطرسين([214])، وزهدهن في أهل العلم والدين، فهن يعتقدن أن هؤلاء في شغل عنهن، وأن أولئك لم يبالغوا في التطيُّب والتزيُّن إلا لأجهلن، ثم صار ذلك عادة موروثة فيهن، وقد فشت هذه العادة السوءى في بيوت المترفين من أهل مصر وغيرها حتى أن العذارى ليقترحن أن يغير الحاطب لهن زيه العلمي إن كان عالما وقد يكون هذا التغير وبالا عليهن بعد الزواج لأنه يُسهِل على صاحبه الدخول في بيوت الفسق التي تخرب بيتهما وتوقع بيتهما. أما أهل البادية ومن في حكمهم فإن نسائهم لا يملن إلا لمن اشتهر بالشجاعة والشهامة والرجولية والكرم، وبهذه

([213]) **حال: حال الأولى معناها تحوَّل وتغيَّر، وحال الثانية معناها كان حائلا يمنع.**

([214]) **المتطرسين: المُتَأنِّقين.**

الصفات يتقرب الرجال إلى النساء عندهم، ولو وجدوا في المدن شبانا يعرفون بهذه الصفات لما فضل النساء عليهم أحدا، فإن صفات الفطرة أن تحب المرأة من الرجل ما هو من شأن الرجولية والعكس بالعكس. وهذا الذي يُحكَى عن نساء الأمصار من ولعهن بالمخنثين ومن يقرب منهم هو من فساد الفطرة. وقد كان من حسن تربية النساء في بلاد الإنكليز أنهن قربن من الفطرة السليمة فقد اقتُرِح عليهن في بعض الجرائد أن يذكرن أحب صفات الرجال إليهن فكان الجواب من أكثر من أجبن ناطقاً بحب صفات الرجولية من الشجاعة والاستقلال والسلطة عليهن.

يقول أناس: إن الحب بين الزوجين هو الأساس الذي تقوم عليه جميع أركان سعادة الحياة الزوجية فإذا كان قويا راسخا فلا يضر هذه الحياة ضعف الأركان وإذا كان غير قويٍ فإن الأركان لا تلبث أن تسقط. فيجب أن يؤذن للعذارى والأيامى بمعاشرة العزاب على أعين أهليهن ومراقبتهم ليتخيرن منهم من يبيعهن قلبه، ويصفيهم حبه: وقد سبق القول في بحث تَخَيُّر الرجل للمرأة بأن هذه المعاشرة ليست سبيلا موصلة إلى الأمنية التي يتمنون. وإذا كان يعسُر على الرجل أن يعرف قلب المرأة بمثل هذه المعاشرة التى يقصد بها الخطبة أفلا يكون وصول المرأة إلى قلب الرجل أعسر لا سيما إذا كانت فتاه غرا؟. ونزيد ههنا أن كثرة معاشرة أفراد كلٌ من الصنفين للآخر يحبب إليهم التنقل في هذه الرياض ويزينه في قلوبهم حتى إذا ما ازدوج اثنان منهم عن حب ثم فتر الحب للملل أو لما عساه يبدو لأحدهما أو كليهما مما لم يكن في الحسبان تحن القلوب إلى من عرفت بالمعاشرة وتجنح إلى التنقل ولا يعسر ذلك على من سبق له التمرن عليه والأنس به.

الحب هو الركن الأول أو الأساس لسعادة الزوجية وهو السكون المذكور في الأية الحكيمة: "**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**"([215]) أو هو علته وقد تقدَّم شرح ذلك فلا نعيده ولكننا نزيد على ما قلنا هناك إن دوام الحب وسكون القلب إنما يُرجَى بين زوجين لم يتعود الرجل منهما معاشرة النساء ولا المرأة معاشرة الرجال إذا كان اختيار كل مهما للآخر على الوجه الذي ببينا فإن علة سكون كل منهما إلى الآخر ثابته في أصل الفطرة وإنما يجب التخير للحذر من الصفات العارضة التي تشارك الفطرة في الاستحسان أو الاستهجان ولا شئ أقطع لرابطة الزوجية وأذهب بسعادتهم من ميل أحد الزوجين أو كل منهما إلى غير زوجه ميلاً للمعنى الخاص بالزوجية.

إن الحب الذي يكون للزوجين برابطة الزوجية نفسها هو الحب الذي يُرجَى دوامه إذا روعي في عقد الرابطة صحة الجسم والنفس والتقارب في العادات والتأدب بأدب الدين، وأهم هذه الآداب عفة الزوجين ورضى كل منهما بالآخر نصيبا له لا يفضي إلى سواه. ذلك بأن النزعة الطبيعية في كل من الصنفين إلى الآخر مبهمة مضطربة في أصل الفطرة، فإذا تعينت في اثنين فأفضى بعضهما إلى بعض وقد وطَّنا أنفسهما على إقامة سنة الفطرة والدين بإحصان كل منهما للآخر وعدم التطلع إلى سواه فهناك السكون التام والحب الخالص. وليس وراء الفطرة والدين تطلُّع لهناء العيش وسعادة الحياة، ولكن هذا الإنسان يخرج عن سننهما ليتمتع بالهناء وسعادة الحياة فيضِلَّ ويشقى.

([215]) **سورة الروم: ٢١.**

يقول غير المسلم: إن حب الزوجة لا يكاد يتذوق حلاوته الزوجان المسلمان لأن المرأة تكون مهددة دائما بإحد الأمرين: الطلاق أو الضرة: ونجيب عن هذا القول من وجهين:

أحدهما: دفعه بقول مثله في الزوجين النصرانيين ومن في حكمهما.

وثانيهما: البحث فيه وتعرُّف حقه من باطله.

أما الأول فإن الزوجين اللذين يرى أحدهما أنه ملزم بالآخر إلزاما إجباريا جعله كالوهق في عنقه، والوقر على كاهله، فإنه يمله ويستثقله فلا تسكن نفسه إليه، ولا تقر عينه به، ولا يخلص وده له، وإن كان قد رضي به قبل العقد انخداعا بما ينخدع به الشباب، أو ذهابا وراء الطمع في مال أو جاه، فالمرأة تلج في الزهو والصلف، وتتمادى في المخيلة والسرف، والرجل يتجرع مرارة الصبر ولا يكاد يسيغه، وينشد استقلال الرجال فلا يجده، وربما لجأ إلى السلوة باتخاذ الأخدان، أو الأختلاف إلى ذلك المكان... إن كان، وليس هذا القول من تخيل الشعر بل هو الحقيقة حكاية عن شعور أهلها فقد سمعت أحد فضلاء الإنكليز وهم أحسن الأوربيين حالا في الحياة الزوجية يقول ما مثاله: أظن تحريم الطلاق ومنعه يُشعِر الرجل بأنه ملزم بالمرأة مجبور على ودها والتحبب إليها لا فضل له في ذلك، وما أعصى الحب والود على إلزام كما يقول المثل "**حبني غصباً**" وإذا كان يعلم من نفسه القدرة على فراقها فإنه يكون على فطرته وأدبه في معاملتها يشعر بالسرور والارتياح لاختيار المعاملة الحسنة التي هي مناط السعادة الزوجية: فهذا هو شعور المهذبين الممنوعين من الطلاق فما بالك بغير المهذبين الذين يعجزون عن مكابرة شعورهم، وتَكلُّف المحاسنة

لمن يرتبط بهم، وللمرأة مع الفريقين شعوران مختلفان أحدهما الضعف والعجز وبهما ترى نفسها أسيرة للرجال وثانيهما أنه لا بد للرجل منها ولا قدرة له على الانفصال عنها والأثر الطبيعي لهذين الشعورين هو الكيد من جهة والصلف والعناد من جهه أخرى، ولا يقال إن هذه فلسفة لا يصدقها الواقع فإنه إن كذبها في الزوجين المتشاكلين في الطباع المتناسبين بالتهذيب فإنه يصدقها في الأزواج الذين خانهم الحظ فلم يمنحهم المشاكلة والتناسب، لا سيما إذا كانت المرأة عاقرا أو ظهرت آيات الخيانة من أحد الزوجين أو كل منهما للآخر. ناهيك بالمرأة العاقر عند ملك أو أمير قد جعل الحكم إرثا في ذريته أو غنيٍ عظيم يعز عليه أن لا يكون له وارث يتمتع بماله.

وأما الوجه الثاني وهو البحث في فَرَق([216]) المراة وحذرها من الطلاق أو الضرة فقد يقال فيه إنه يكون من أسباب تحبُّبِها إلى الرجل وعنايتها بمرضاته وإن هذا السبب للتآلف يقابله في الرجل حذره من خسارة المال إذا أراد استبدال زوج بزوج، لأن الشرع يوجب عليه أن يمتع المتروكة بما تنفقه على نفسها مدة العدة التي لا يباح لها الزواج فيها وهذه خسارة فوق خسارة المهر وما عساه يكون مع المرأة من متاع وأثاث وماعون أو يكون لها من مال تسعفه به أو تدخره لولده، ثم إنه لا بد أن يبذل للزوج الجديدة المهر اللائق بها. وهذان السببان في حرص كل من الزوجين على التعلق بالآخر يدعمان سكون النفس الفطري في كل منهما إلى الآخر على أن الطلاق والمضارة بزواج أخرى هو خلاف الأصل الذى عليه الأكثرون من المسلمين، وإننا لنعلم أن الأكثرين من المتزوجين في بلادنا لا

([216]) **الفَرَق: الخوف.**

يخطر في بال الرجل منهم ولا المرأة أمر الطلاق أو المضارة أعني أن الرجل لا ينويه والمرأة لا تتوقعه منه. وأن أكثر الذين يقع منهم الطلاق من غوغاء المسلمين فإنما يقع منهم على سبيل المنع من الشيء كأن يقول واحدهم: عليه الطلاق عن فعل كذا أو إن فعلت كذا ونحو ذلك. وما كان من ذلك تعليقاً حقيقياً على فعل المرأة وهو الأكثر يجعل الطلاق في يدها كما هو في يده فيشتركان فيه. وقد ذهب الكثير من الأوربيين إلى صحة الطلاق من كل من الزوجين وهذا شئ منه. ومن أئمة السلف من يقول بعدم وقوع الطلاق بأيمان اللجاج وكل لفظ لا يُقصَد به حلُّ عقدة الزوجية قصداً صحيحاً وعليه بعض علماء الحنابلة. ولو حرر المسلمون مسائل الطلاق من غير التزام مذهب بأن يأخذوا من مجموع كلام الأئمة ما يوافق النصوص المنطبقة على المصلحة العامة لما كان يقع الطلاق من المسلمين إلا مثل ما يقع ممن قلدهم فيه من الإفرنج. ولعله يكون في بعض البلاد الإسلامية أقل منه في بعض بلاد الإفرنج بل هو الآن أقل في بعض البلاد.

نعم لا ننكر أن المسلمين في بلاد مصر قد أسرفوا في الطلاق وفي التزوج بأكثر من واحدة فساءت حالة الحياة الزوجية فيهم وفي أمثالهم ممن على شاكلتهم وإن قلوا وأنهم في ذلك على غير ما يحب الإسلام ويرضى كما يعلمون في الطلاق وكما بينا في حكم تعدد الزوجات وشرطه في المجلد الماضي ولكن سوء هذه الحالة خاص بالمسرفين من أهلها وبمن يقربون منهم بما يروِّعون نسائهم ويوقعون الريب في قلوبهم بكثرة الحديثفي التزوج وإظهار الميل إلى بعض العذارى أو الأيامى بالقول أو الفعل. وقد مرضت الفطرة في هؤلاء واعتل مرشدها وهو الدين حتى كان انحلال الرابطة الزوجية بعض أعراض ذلك المرض الذي فقد علاجه فهم لا يذوقون للحياة الزوجية طعماً ولو لم يروعوا نساءهم بالطلاق والمضارة إلا

أن يقيموا وجههم للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها. فإن السعادة الزوجية كغيرها من ضروب السعادة لا تكاد تُنال إلا بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب التي جاء بها الدين. ولذلك قال المصلح الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: "**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه**" إلخ (رواه الترمذي والليث بن سعد) ومن يطلب السعادة بغير ذلك فهو من الخاسرين" أ. هـ.

انتهى الكتاب.

openkandl.com

مصادر الدراسة والتقديم

أولاً: كتب

- موسوعة السياسة – المؤلف الرئيس/ رئيس التحرير: دكتور عبد الوهاب الكيالي – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت.
- قاسم أمين: الأعمال الكاملة – دكتور محمد عمارة – دار الشروق – مصر – الطبعة الثانية.
- معجم أعلام المورد – موسوعة تراجم لأشهر الأعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين مستقاة من "موسوعة المورد" – تأليف منير البعلبكي – إعداد: الدكتور رمزي البعلبكي – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الأولى – 1992.
- معجم المؤلفين – عمر رضا كحالة – مؤسسة الرسالة – لبنان – الطبعة الأولى – 1993.

obeikandl.com

- صلاح عريبي عباس العبيدي – الدور الاقتصادي للبرجوازيين الوطنيين في المشرق العربي حتى ستينات القرن العشرين – دار غيداء للنشر والتوزيع – الأردن – 2009.
- طلعت حرب: قصيدة في حب الوطن – محمد الشافعي – كتاب يصدره صندوق التنمية الثقافية بمناسبة الاحتفال بمرور 140 سنة على ميلاد رائد الاقتصاد المصري نوفمبر 1867 – مصر 2007.
- عودة الحجاب – محمد إسماعيل المقدم – موقع مكتبة صيد الفوائد: http://saaid.net.
- الغلو في حجية الإجماع الأصولي: صوره وأسبابه" – الأستاذ الدكتور صلاح الدين عبد الحليم سلطان أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة – الناشر: دار سلطان للنشر – بأمريكا.
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة – عبد الرحمن السَّخاوي – دار الكتاب العربي.
- تحرير المرأة – قاسم أمين – المستشار بمحكمة استئناف مصر – ملتزم الطبع محمد كامل علي صاحب مطبعة الترقي ومطبعتها – 1899 – طبعة مصورة عن هذه الطبعة نشر: مكتبة الآداب – مصر – 2003.
- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام – عمر رضا كحالة – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة العاشرة – 1991).

ثانياً: مواد أخرى ورقية وإليكترونية:

- المرأة المصرية في مئوية قاسم أمين! – مقال – دكتور وحيد عبد المجيد – جريدة الأهرام – 2/ 9/ 2008.

obeikandl.com

- وثيقة بخط يد "طلعت حرب" تكشف اشتغاله بالمحاماة – تقرير: محمود عبد الباقي – جريدة فيتو المصرية – 1/ 12/2015 – الرابط:
http://www.vetogate.com/1930075
- طلعت حرب.. العظيم الذى قتلته الخِسّة – مقال – م/ يحيى حسين عبد الهادي – جريدة الأهرام القاهرية – 29 نوفمبر 2014.
- طلعت حرب.. غروب حزين – مقال – دكتور يونان لبيب رزق – جريدة الأهرام – 20/ 12/ 2007 – سلسلة: ديوان الحياة المعاصرة – الحلقة 701.
- تحرير المرأة بين النموذجين الإسلامي والغربي – مقال – دكتور نبيل السمالوطي (عميد كلية الدراسات الإنسانية سابقا، أستاذ علم الاجتماع جامعة الأزهر) – جريدة الأهرام – سلسلة حوارات معاصرة – 31/ 3/ 2008.
- ظل طويل من كالكتا إلى القاهرة – مقال – روجر أوين نقلاً عن موقع: المركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب:
http://www.icaws.org – 9 / 8/ 1425.
- الماسونية المشرقية من "جمعية حيدر أباد" إلى "الشلة الباريسية": رسائل محمد عبده لأستاذه تكشف عن وجود جمعية سرية وخطرات الأفغاني تصرح بالانضمام للمحفل الفرنسي – محيي الدين اللاذقاني – جريدة الشرق الأوسط اللندنية –21 /3 / 2002.
- كارلا وقاسم – مقال – يوسف القعيد – جريدة الأهرام – 12 /5 / 2008.
- تحرير المرأة .. وهذا الانحناء الذليل للغرب – صافي ناز كاظم – مقال – جريدة الشرق الأوسط اللندنية – 15 /3 / 2007.
- حمزة فتح الله.. باكورة الكلام عن حقوق النسوان – مقال – أحمد تمام – موقع إسلام أون لاين:

.(http://www.islamonline.net

- قضايا المرأة في خطاب الإصلاح الحديث والمعاصر – إعداد: هند مصطفى علي – ورقة قدمت إلى مؤتمر: "اتجاهات التجديد والإصلاح في الفكر الإسلامي الحديث – مكتبة الإسكندرية – 19 – 21/ 1/ 2009.

obeikandl.com

ممدوح الشيخ ... سيرة ذاتية

الجنسية : مصري

مدير المركز الدولي للدراسات والاستشارات والتوثيق (مداد)

**** عضو اتحاد كتّاب مصر.**

أولاً: ترجمات في معاجم وموسوعات

**** ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين". (مؤسسة البابطين – الكويت).**

**** ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم أدباء مصر" (الهيئة العامة لقصور الثقافة – مصر).**

**** ترجمة في الطبعة الأولى من: "الموسوعة الكبرى للشعراء العرب المعاصرين: 1956 – 2006" – إعداد وتقديم: فاطمة بوهراكة – المغرب – 2009 – برعاية الشيخة أسماء بنت صقر القاسمي.**

**** ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم الأدباء: من العصر الجاهلي حتى سنة 2002" – كامل سليمان الجبوري – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – 2002 – 1424 هـجرية.**

مؤلفات إبداعية منشورة

**** نقوش على قبور الشهداء (ديوان شعر) – مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – 1996.**

**** عاصمة للبيع (مسرحية) – دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة – دولة الإمارات – 2000.**

**** الحلم المسروق (ديوان شعر بالعامية) – مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – 2003.**

**** الندى والموت (ديوان شعر) – مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – 2003.**

**** القاهرة.. بيروت.. باريس (رواية) – الدار العربية للعلوم – بيروت – 2006.**

obeikandl.com

** أهي القدس؟ – ديوان شعر – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – 2009.

** الممر – رواية – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – 2009.

أفلام تسجيلية:

* دولة المنظمة السرية – الفكرة والإعداد والمادة العلمية – إنتاج قناة الجزيرة – قطر – 2009.

من الأعمال النقدية عن أعماله:

** رسالة ماجستير عن مسرحيته عاصمة للبيع في جامعة جنت البلجيكية للمستشرقة البلجيكية ماريكي فان كرايسبليك – 2006. (قيد الترجمة)

جوائز

* جائزة مؤسسة "اقرأ الخيرية" – مصر – المسابقة الثقافية للشباب لعام 1991 – المركز الثالث في مجال الشعر.

* جائزة مؤسسة "اقرأ الخيرية" – مصر – المسابقة الثقافية للشباب لعام 1992 – المركز الثاني في مجال المسرح عن نص ما زال مخطوطا.

** جائزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من "المجلس الأعلى للثقافة" – مصر – 1999 – عن قصيدة "نقوش على قبر شهيدة".

** جائزة "الإبداع العربي" من: "دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة" بدولة الإمارات العربية المتحدة في مجال المسرح (المركز الثاني) عام 2000 – عن مسرحية "عاصمة للبيع".

** جائزة "أحمد فتحي عامر" في مجال الشعر (المركز الثاني) من "الهيئة العامة لقصور الثقافة" – مصر – الدورة الأولى – 2003.

** جائزة "أحمد فتحي عامر" في مجال الرواية (المركز الثالث) من "الهيئة العامة لقصور الثقافة" – مصر – الدورة الثانية – 2004 – عن رواية "القاهرة – بيروت – باريس".

** جائزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من "نادي جازان الأدبي" بالمملكة العربية السعودية في المسابقة الثقافية لعام 1423 هجرية – عن قصيدة "بقصائدي ويقيني".

** مساهمات أخرى:

** نشرت مؤلفاته في القاهرة وبيروت وعمان والشارقة ودبي وواشنطون والرياض ومسقط.